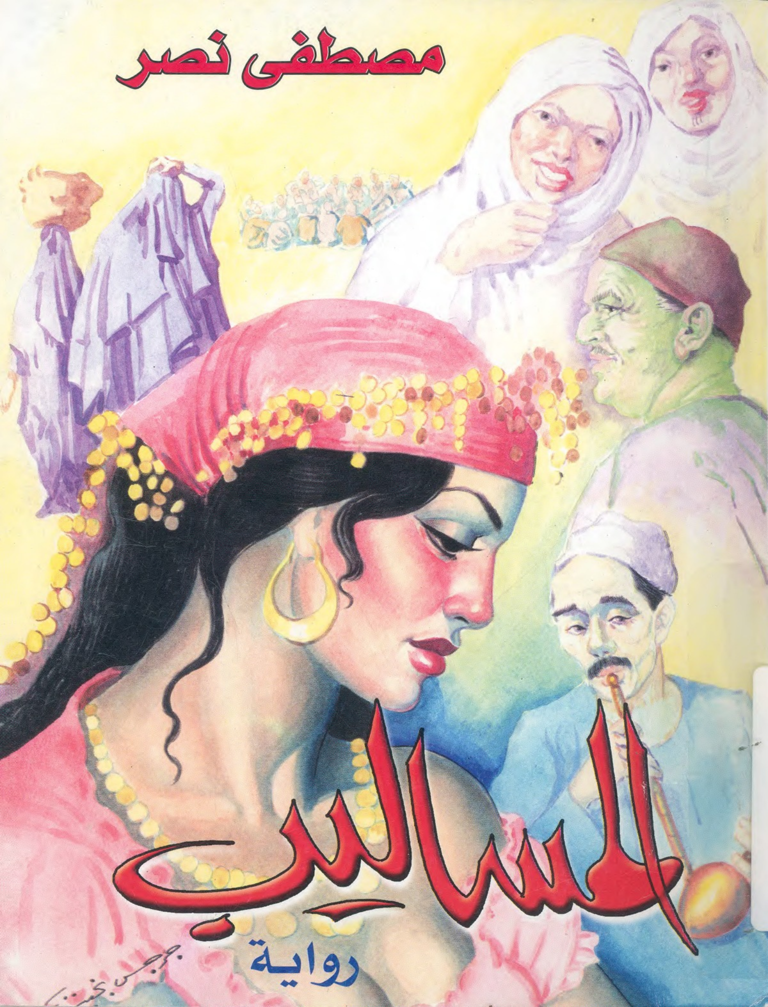

مصطفى نصر
المساليب
رواية

المساليب

رواية

مصطفى نصر

المساليب

دار ومطابع المستقبل
بالفجالة والإسكندرية
ومكتبة المعارف ببيروت

الطبعة الأولى ١٩٩٩

- ١ -

الباب موارب، وشوق الغازية تجلس أمام التسريحة، رأسها يصل إلى حافة المرآة؛ من فرط طولها.شعرها الطويل يصل إلى ما بعد المقعد الذي تجلس فوقه.

خرج ضيف الله -زوجها- عند الظهر، داعبته وهو نائم، قبلته. هي غازية وتجيد الغزل (هكذا قالوا عنها يوم زفافها).

ابتسمت لنفسها في المرآة، ثم غنت أغنية من أغنياتها التي كانت تشدو بها في الأفراح والموالد.

كانت تعيش في عشة طلبة العجوز على حافة الجسر، تسافر مع الفرقة من بلدة إلى أخرى، تهز جسدها الطويل الرشيق..

شعرها الشديد السواد يرقص مع تحركات جسدها، وجهها الطويل دائم الابتسام، يكشف عن فمها الواسع والمفتوح دائمًا، مما يجعل الرجال يصرخون من النشوة.

في الليالي التي لا تعمل بها، تجلس أمام عشة طلبة العجوز، يصنع الشاي الأسود للمراكبية، الذين يقفون بمراكبهم في البحر الكبير، إلى أن يخفون حمولة المراكب.

ويقدم المعسل في قوالح الذرة الملتهبة. كانت تنام في حجرة داخلية

من عشة طلبة، وينام هو في الخارج.

يأتي الرجال في المساء. يقدم طلبة الشاي لهم. يشد فهمي العجل شاربه الأسود الملتصق بوجهه الأسود... عيناه صغيرتان. يتابع بهما جسدها برغبة لا تخفى على أحد.

يأتي ضيف الله. يخافه طلبة. فهو ابن منصور عشرة -شيخ البلد- الرهيب الذي يجري الفلاحون أمامه. يقدم طلبة الشاي متوددًا، يحدثه الرجال في حرص، يحكون -بعد أن يمشي- عن والده الذي يدخل وسط النساء، وهن يحملن أوانيهن في الترعة، فيكشف عن عورته متظاهرًا بقضاء حاجته.

تضحك النسوة جزعات ويجرين. البعض يكذب هذا. لكن شوق تعرف حقيقة منصور عشرة -والد ضيف- فهو ينظر إليها إذا ما رآها في الطريق؛ نظرات تعرف معناها جيدًا، من طول ما رأت. كما أنه أرسل إليها خادمه -مسعود السقا- طالبًا منها أن تزوره في بيته البعيد، والذي يسكنه مسعود الآن مع أسرته.

لكنها أحبت ضيف. فكيف ترضى بوالده ؟!

عندما عرض ضيف الله عليها الزواج، ظنت أن هذا لن يحدث أبدًا، فكيف لها أن تدخل بيت منصور عشرة الذي يخافه الجميع، حتى العمدة نفسه.

لكن ضيف ألح، عارضت أسرة أمه، بينما رحب أبوه منصور بذلك.

* * *

فرقت شوق شعرها من منتصفه، فانسدل على الجانبين، وارتفع صوتها بالغناء؛ فهي في البيت وحدها. عارف شقيق زوجها يختلف عنه في كل شيء.. يصلي الوقت في وقته، ويقترض بعض كتب خاله هارون ليقرأها في

حجرته.

كفت شوق فجأة عن غنائها.. لمحت شبحًا يمر أمام بابها الموارب.. ظنتها ياسمين زوجة مسعود آتية لتخبرها بشيء.. لكن الباب فتح، وظهر منصور عشرة أمامها.. اضطربت. تبدل الابتسام إلى خوف

- أهلاً.

دخل الرجل، كان يرتدي سرواله الأسود المعقود بحبل أبيض يتدلى من وسطه، وصديرية تكشف عن كمي فانلته البنية، والتي تظهر عضلاته المفتولة.

- تريد شيئًا ؟

لم يكن الذي في عينيه رغبة في الجنس.. لا، كان أقرب إلى الرغبة في القتل.

تركت المشط يسقط من يدها، وأرادت أن ترجع إلى الوراء، لكنه أغلق الباب.

- أرجوك .. أرجوك

لم يقل شيئًا. أمسك ذراعها العارية بيده الكبيرة، احتوى الذراع باستدارته، أحست بالألم..

- دعـ...

لم تستطع أن تكمل. جسدها نحيل، لن يظهر منه شيء إذا ما ضمه لجسده العملاق..

ابنه ضيف أقل منه في الطول والعرض، لو كان في مثل جسده ما أحبته أبدًا، ولا رضت به زوجًا..

- بربك دعـ....

لم يدعها، دفعها فوق السرير القريب.

لا تدري إن كانت صرخت أم لا. كل ما تذكره أنه ابتسم قبل أن يخرج من الحجرة.. وشعرها ملتصق بوجهها، وأجزاء منه ممزقة وملتصقة بالوسادة، وكدمات في ذراعيها، وآلام في جسدها كله.

هبت فزعة.. أحقيقة، أم كان كابوسًا ؟

أسرعت من الباب الحديدي الكبير كما هي.. جرت، والناس تتبعها.

- ماذا حدث ؟ حرقت دار شيخ البلد ؟

وهي لا تجيب، تجري وتبكي.

عندما رأت طلبة العجوز، ارتمت في صدره. ترك الجوزة التي كان يحملها، ووقف الرجال في هلع. أمسك ضيف الله ذراعيها، صرخ:

- ماذا حدث ؟

أسرعت إلى الداخل، وتبعها طلبة وفهمي العجل، وضيف الله وبعض الرجال.

صرخ ضيف في فزع :

- هل حدث شيء للدار ؟

صرخت أكثر، وارتمت في صدر طلبة العجوز، أخذها الرجل إلى حجرتها (التي كانت تنام فيها قبل الزواج) ثم عاد.

قال ضيف الله وجسده كله يرتعش :

- ماذا حدث لها ؟

قال فهمي العجل :

- لقد حنت لعملها كغازية.

لكن طلبة العجوز صاح لضيف :

- أبوك

فهم فهمي، ردد في نفسه :

- لا حول ولا قوة إلا با لله.

ضيف دفع العجوز، حتى ألقاه على الأرض، وأسرع إلى الداخل، صفع شوق في جنون :

- تكذبين.. تختلقين الأكاذيب لتعودي ثانية إلى الرقص وعشة طلبة.

لم تستطع مواجهته، لا تدري كيف أحبته وفي وجهه بعض الشبه من أبيه منصور ؟!

- ماذا فعل أبي بك ؟

لقد وافق منصور على الزواج، رغم معارضة هارون -خال ضيف ا لله-

كان منصور يعاملها بود، يجلسها بجانبه وقت الطعام، ويوصي مسعود السقا، وياسمين زوجته بالاهتمام بها، فكيف يغضبها، أو يطردها ؟!

أسرعت شوق إلى الخارج، كانت كالمحمومة، وطلبة العجوز يجري خلفها هلعًا.

- عودي يا شوق، عشتي مازالت في انتظارك.

وبكى ضيف. الرجل الذي قال أهل بسونة عنه إنه مثل أبيه في قسوته وجرأته، يبكي من أجل امرأة.

الرجال الذين لم يدخلوا حجرة شوق حائرون فيما حدث. الرّيّاح أمامها، قريبًا من عشة طلبة، الماء فيه يندفع كالشلال.

رمت شوق بنفسها من فوق الجسر. رآها طلبة العجوز والرجال الذين جاءوا خلفها.

ما الذي جعلها تفعل هذا، فعلة منصور بها، أم ضرب ضيف وتكذيبه لها ؟!

صرخ ضيف، مر ما مر بسرعة شديدة، كأنه حلم شديد الوطيس.

لقد خرج من البيت سعيدًا، داعبته شوق. منذ أن تزوجا وهي هكذا، تضحك وتغني وترقص.. كانت سعيدة لأنها ارتاحت من السير في البلاد، ومن العيون الكثيرة التي تتابعها في نهم.

صرخ ضيف، أمسك بالتراب الأسود، وضعه فوق رأسه، وقفطانه الشديد البياض.

سار مع فهمي العجل، يبكي كطفل، فهمي يحمله من تحت إبطه، ورجل آخر يحمل الإبط الثاني، والناس يزداد عددهم، يخرجون من بيوتهم بعد أن يصلهم الخبر الأسود.

أدخله فهمي العجل بيته. سألته زوجته سليمة عما حدث. لم يجبها.

البندقية معلقة فوق الحائط. يحملها فهمي في الحفلات، يرقص بها، ثم يطلق منها طلقات ابتهاجًا بالحفل. نظر ضيف إلى البندقية طويلاً، كان شاردًا عن كل ما يقال حوله، وفجأة خطف البندقية وأسرع إلى الباب. صرخ فهمي :

- أجننت ؟ تقتل أباك ؟

جرى ضيف والبندقية بين يديه، سيريح الناس من شر ذلك الجبار.

لكن قبل بيت منصور عشرة بقليل، أحس بارتعاش، ركع على ركبتيه، فلامست البندقية الأرض، بكى والرجال يقفون حوله. أمسكه فهمي بعجل. شده إليه:

– عد يا ضيف. لن يفيد ما تفعله الآن.

عادا ثانية إلى الرّيّاح، جلس ضيف فوق الأرض ناظرًا إلى الماء المتدفق أمامه، والرجال يسبحون، يبحثون عن جثة شوق.

في الرّيّاح شياطين يشدون الناس المارين فوق الجسر ليلاً، فما بالك بالذين يلقون أنفسهم فيه... لاشك أن شوق في القاع الآن، يمسك بها ألف شيطان.

لم يعد ضيف الله إلى بيت أبيه، بل لم يقابله ثانية.. ركب البحر الكبير، ثم سار فوق أرض "الشرق" حيث يجثم الجبل الكبير في آخر البلدة.

قابل الرجال الذين كانوا يجالسونه في عشة طلبة العجوز مساءً، يحكون له عما يلاقونه في الليل من أخطار، يسرقون المواشي وأطفال الرجال الأغنياء، مطالبين بفدية كبيرة، ثم يأوون في الجبل، بعيدًا عن أعين الباشا خير الدين، حاكم سوهاج، ورجاله.

ترك ضيف بسونة دون أن يودع أخاه عارف.

* * *

عندما غرقت شوق الغازية في الرّيّاح، كان عارف لدى خاله هارون، يجلسان في الحديقة الكبيرة. يحكي هارون عما لاقاه في رحلته إلى القاهرة، أيام كان يدرس في الأزهر.

دخلت ياسمين. زوجة مسعود السقا، بجسدها المترهل. صاحت:

- تجلسان هنا. والدنيا مقلوبة في الخارج ؟

دهش هارون. كيف تجرؤ امرأة مثل هذه على أن تحدثه بهذه الطريقة؟!

صاح عارف :

- ماذا حدث ؟

قالت المرأة وأسهبت، أسرعا إلى الخارج. كان رجال بسونة يقفون أمام بيوتهم، منتظرين أحداثًا جسامًا: أن يقتل ضيف الله أباه، جزاء ما فعله بزوجته، أو أن يخرج منصور عشرة متحديًا بسونة كلها، مهددًا بالويل لكل من يعترض على أفعاله.

النسوة خلف الرجال، ينظرن من بعيد.

سار هارون بجسده النحيل، ونظارته ذات الإطار الذهبي، وابن أخته خلفه.

الحديقة الصغيرة أمام البيت مظلمة. ومقاعد البهو الكبير متناثرة، ربما أوقعت شوق بعضها وهي تجري. أو أوقعها منصور عشرة في ثورته.

دخلا حجرة منصور، كان نائمًا بملابسه التي داهم بها حجرة شوق. بطنه المرتفع يتحرك مع تحركات تنفسه. الرجل فعل ما فعل، ودخل حجرته لينام.

نظر هارون إلى ابن أخته متسائلاً عما يفعل. لكن عارف أخفض بصره وصمت. إنه لا يستطيع أن يوقظه.

صاح هارون :

- منصور.. منصور

صحا الرجل. اعتدل في سريره :

- ماذا بكما ؟

عارف لم يتحدث.

- ما الذي حدث في البيت هنا ؟

هارون لا يحبه. منذ أن رآه -في صغره- يدخل بيت أبيه، وهو يكرهه.

- لا أدري عن أي شيء تتحدث.

- ماذا فعلت بشوق الغازية ؟

أراد أن يصرخ فيه، مثلما يفعل مع باقي أهل بسونة

- إنني أعرفك جيدًا

- أجننت ؟ تتهمني بهذه البشاعة

- بل يمكنك فعل ما هو أدهى

- لا تنسى أنك في بيتي

- بيتك يا منصور.. لقد جئت إلى بسونة دون شيء.. أبي أعطاك ما أنت فيه الآن.

- لأجل هذا لن أرد عليك.

- اعلم أن شوق قد ألقت بنفسها في الرّيّاح، وللآن لم يعثروا على جثتها، وابنك ضيف الله لا نعرف مكانه.

جلس منصور فوق سريره. بدا حزينًا لما سمع. وخرج هارون ثائرًا. وتبعه عارف الذي لم يقل كلمة واحدة لأبيه.

* * *

لقد مات الوجيه الأمثل -عبد المولى أحمد- والـد هـارون كمدًا؛ لما فعله منصور به، أراد الرجل أن يدرس ابن ابنته -عـارف- في الأزهـر، بعـد أن وجد فيه رغبة لهذا. وسـافر عـارف فعـلاً إلى القـاهرة. لكـن منصـور أعـاده، مدعيًا أنه في حاجة إليه في عمله بعد أن ضاق بتصرفات ابنه الأكبر ضيف الله، الذى لا يريد أن يرافقه في قياس الأرض كما كان يفعل عارف قبل سفره.

ثم بلغ الوجيه الأمثـل أن ضيـف -ابـن ابنتـه- يسـهر في عشـة طلبـة العجوز مع المطاريد الذين يأتون ليلاً، ويجالسون الغوازي هناك.

ثار الوجيه الأمثل، وقال لضيف الله :

- ربما لا تعلم أن أسرة أمـك عريقـة، وذات جـذور بعيـدة. كيـف تعرضها للمهانة بأفعالك ؟!

لكن ضيف الله لم يكتـفِ بهـذا. بـل أصـر علـى أن يتزوج شـوق الغازية.

لم ينـم الوجيـه الأمثـل ليلتهـا. أرسـل خادمًـا مـن خدمـه في طلـب منصور. قال له :

- كيف تسمح لابنك بأن يتزوج غازية ؟

- مادامت هذه رغبته فلن أمانع.

- أجننت ؟ تريد أن تلوث شرف العائلة ؟

كان واضحًا للوجيه الأمثل أن منصور يهـزأ بـه، بعـد أن أواه ورفعـه فوق كل أهالي بسونة.

- ٢ -

كان رضوان نائمًا عندما غرقت شوق الغازية في الرّيّاح.

أيقظه فهمي العجل، قال له ما حدث. أحس الرجل بأن أطرافـه قـد شلت :

- هل فعل منصور هذا حقًا ؟

- ذلك ما يقوله أهل البلدة عنه.

اهتز جسد الرجل كله، استند على الكنبة ليستطيع الوقوف.

لقد جاء منصور إلى بسونة، هو الذي فرضه على أهل البلدة.

رآه آتيًا من ناحية البحر الكبير، أيام كان رضوان يحرس البحر، خشية أن يزيد، فيغرق الأرض والزرع والمباني والناس بفيضانه.

كان يقف منتظرًا زميله الذي سيتولى الحراسة عنه (على الحراس أن يسرعوا إلى العمدة في المراغة ليخبروه بحالة البحر، فإذا ما حدث جديد، يبلغ العمدة الباشا خير الدين ليتخذ إجراءاته).

لم يكن باديًا على منصور غبار الطريق. ملابسه نظيفة، كأنه يرتديها منذ لحظات قصار.. ردد البعض وقتها "إنه جاء عن طريق البحر وليس للبحر غبار ولا تراب".

أخذه رضوان إلى بيته، كان وجلاً (أو هكذا تظاهر منصور وقتها).

ردد رضوان :

- يا ساتر

لكي تدخل حسنية زوجته، وتخلي الطريق للوافد الجديد.

بعد أن تناولا الطعام وارتاح الضيف من العناء، خرجا إلى الناس. لم يكن واضحًا -وقتها- إن كان منصور سيبقى في بسونة أم سيعود ثانية مع إحدى المراكب من حيث جاء.

وعندما تأكد رضوان أنه سيبقى، أخذه من يده وأعلن للناس:

- شهدوا يا أهل بسونة أن منصور أخي في السراء والضراء، وله عليَّ حق الأخوة.

هو الذي فرضه على أهل بسونة. وقدمه للوجيه الأمثل عبد المولى أحمد -أغنى رجل في المركز.

لم يكن رضوان يمتلك سوى بيته الصغير، وقطعة أرض يزرعها بنفسه، ولا تحتاج إلى أجير، لكن لتقواه كان مصاحبًا لكبار البلدة، خاصة الوجيه الأمثل. يقترب منه في المسجد، يصافحه، ويتحدثان عن الكتب الصفراء التي يقرؤها. يسمع من الوجيه الأمثل، ويظل يفكر فيما يسمعه طويلاً، ويسأل الوجيه الأمثل فيه عندما يقابله في الغد.

كما أن رضوان يهتم بأن يجعل لنفسه ثوبًا أو ثوبين نظيفين، يرتديهما في المناسبات، ويصونهما في مكان أمين، ليظلا نظيفين وجديدين، يرتدي ذلك الرداء الحسن، فيبدو وسط الأكابر كأنه منهم.

شعر رضوان بالسعادة عندما رأى الوجيه الأمثل يهتم بمنصور، ويقربه إليه. وكان يوافقه على كل ما توحي به له كتبه الصفراء، من أن غريبًا سيأتي

إلى بسونة ويصنع بها المعجزات.

يحكي له رضوان عن أشياء يأتي بها منصور تؤكد صدق كتبه، فتلك الأشياء لا يأتي بها سوى الأولياء وأهل الخطوة. وأنه -أي رضوان- أعلم الناس بهذا؛ لمرافقته الدائمة لمنصور.

بمرور الأيام، بدأت حسنية تنكشف على منصور، وهل هناك امرأة تحتجب على شقيق زوجها (هكذا أجابته حسنية حين لامها لانكشافها على منصور).

وأمَّن هو على قولها وصدقها. فمن أي شيء يخاف، ومنصور يأتي بأشياء لا يأتيها إلا المختارون من الله ؟ لكن ما يدهش رضوان أنه لم يلحظ عليه اهتمامًا بالصلاة، أو اهتمامًا بالدين بالمرة. وكان يجيب نفسه قائلاً: "إن أهل الخطوة ليسوا كغيرهم، فالركعة منهم بألف ركعة في حساب الناس العاديين".

لم يعمل منصور عملاً ثابتًا منذ أن جاء. كان يدور بين الحقول بردائه النظيف الأبيض، يحادث الناس بصوته الحسن، يعين من في حاجة للعون بخبرة في كثير من الأشياء.

ثم صار مرافقًا للوجيه الأمثل، يصحبه في مروره على أرضه، ويدعوه لقصره في جلساته، يقرأ منصور، والوجيه الأمثل مضطجعًا، يسمع منه، أو يدخلان المسجد معًا.

افتقدت حسنية الرجل. قالت لرضوان :

- ستترك أخاك للوجيه الأمثل يأخذه منك.

أحس رضوان -وقتها- أن هذه كرامة جديدة من كرامات بمنصور

عشرة؛ فها هي المرأة تفتقده، وهو الذي ظنتها تضيق بإقامته في بيتها، ومشاركته لهم في الدخل القليل الذي يأتيه من الأرض.

وبلغ حسنية أن منصور سيتزوج بابنة الوجيه الأمثل، فاغتمت، وأبدت اعتراضها، فأجابها رضون دهشًا:

– لماذا تحسدين الرجل على النعمة ؟!

قالت في شرود :

– لا أحسده، إنما ذلك سيبعده عنك، بعد أن جعل حضوره إلى بسونة هيبة ومكانة لك لدى الوجيه الأمثل، وكل كبار البلدة.

ولم يمنعه الزواج من زيارة أخيه رضوان.

وجاءت كوكب إلى الدنيا. بعد أن شاخ رضوان، ويئس من الإنجاب. أتت جميلة، ليس في بسونة من هي في حسنها.

سعدت حسنية بها. وألحت في طلب منصور، الرجل البركة، ليباركها.

* * *

سار رضوان مهتزًا، وحسنية تجلس فوق الكنبة، وكوكب الجميلة بجوارها. تابعهما الرجل في شرود. صاحت حسنية :

– ماذا بك يا رجل ؟

لم يجبها.

بعد أن اختلى بها مساءً، شدها من ذراعها غاضبًا :

– سمعتِ عما فعله منصور عشرة ؟

– وما شأني يا رجل ؟

ضربها في جنون :

- إن كان أراد زوجة ابنه، أَسَيَعِف عن زوجة رجل غريب ؟

- لقد كان مثل أخيك.

ضربها ثانية :

- ليس لي أخوة.

لم ينم الرجل من ليله دقيقة واحدة.

في الصباح خرج مشعثًا. لم يغسل وجهه. عندما لاقته كوكب، دفعها عنه في ضيق: بدا واضحًا أنه يشك في كوكب؛ فقد جاءت بعد حضور منصور، وبعد أن قضى رضوان أكثر من ثلاثين عامًا دون إنجاب.

وقف رضوان أمام بيت منصور، صاح :

- يا منصور عشرة، يا منصور عشرة

خرج منصور، ومسعود السقا وزوجته ياسمين يطلان من النافذة، وأهل بسونة يتابعون ما سيحدث.

خرج عارف من البيت. قدم يده فرحًا لرضوان :

- أهلاً عمي رضوان.

دفعه رضوان بعيدًا، و لم يجبه بشيء، كان يتابع جسد منصور عشرة العملاق فوق عتبة الدار :

- إنني بريء يا منصور منك، ولست بأخي.

أراد منصور أن يقول له : "إنني شيخ البلد الآن، وأخُوَّتي لك شرف، فإن رفضتها زال عنك ذلك الشرف"؛ لكنه لم يستطع، أحس بأن رضوان يريد قتله، وأن أهل البلدة يريدون ذلك أيضًا، ولولا خوفهم منهم لثاروا عليه،

خاصة بعد غرق شوق الغازية في الريَّاح.

سار رضوان إلى بيته يجر ساقية جرًا.

* * *

لقد أطاحت شوق الغازية بكل شيء.. ضاع ضيف الله، هجر بسونة، عارف لم يعد يراه، وأهل بسونة يلعنون أسرة منصور عشرة كلها، رغم أنهم يصمتون إذا ما مر منصور أو عارف أمامهم.

وضاعت كوكب من عارف. كوكب الجميلة، النسمة الرقيقة التي تمر فوق وجهه، في أحلك المواقف التي يمر بها.

دفعه رضوان في غمرة غضبه، وهو الذي كان يفسح له مكانًا بجانبه كلما رآه، ويقول له :

– أنت ابن أخي منصور، أعز ما لي في بسونة.

فتبتسم حسنية له. الكل يعلم أنه سيتزوج بكوكب.

قال رضوان يومًا لمنصور وهو يزورهم بعد أن أصبح شيخًا للبلد:

– يقولون في الأمثال: "اختر لبنتك ولا تختر لابنك"، وأنا اخترت عارف لكوكب.

قال رضوان هذا قبل أن يتزوج ضيف الله –شقيقه الأكبر– من شوق الغازية. فهم يعلمون أن عارف يحب كوكب، وهي تحبه أيضًا.

لكن بعد أن تبرأ رضوان من منصور أمام كل أهل بسونة، أقسم منصور على عارف بألا يذهب إلى بيت رضوان وأن يقطع صلته بهم.

أيستطيع عارف أن يفعل هذا، وهو يرتاح في بيتهم، يأنس لحديث رضوان وحسنية، ويرتاح لرؤية كوكب.

لكن منصور عشرة -في هذه الأيام- صار فظًا، يهرب عارف منه.

يسيران معًا في طريقهما إلى الأرض التي سيقيسانها للناس، فلا يحدث أحدهما الآخر.

يقضيان وقتًا طويلاً معًا في قياس الأرض أو متابعة زراعة أرض منصور، فلا يتحدث عارف بشيء.

أحس منصور بهذا، لكن كبرياءه منعه من أن يسأل عن ذلك.

* * *

ذهب عارف إلى بيت فهمي العجل، الذي كان في شبابه مرافقًا للمطاريد، ويكتفي بدور الوسيط الآن بينهم وبين أهل البلدة أو أهل البلاد المجاورة، فإذا ما سرقت جاموسة، أو خطف طفل لرجل غني، يأتون إليه؛ ليكون وسيطًا في الصفقة التي ستتم.

قال فهمي :

- أعلم أنك جئت من أجل ضيف الله.

- أجل. اشتقت إليه وأريد رؤيته.

- صدقني لا أعرف مكانه.

- بل تعرف. فقد كان صديقك، تجلسان معًا في عشة طلبة العجوز. كما أنك تعرف الجبل ورجاله.

- لا أعرف مكانه صدقني.

عاد عارف حزينًا. ضاع ضيف الله. وضاعت كوكب. ومنصور عشرة صار أكثر عصبية، يدخل حجرته فلا تسمع سوى صوت سبابه لمسعود السقا خادمه.

يشرب "عرق البلح"، طوال الليل. ثم ينام إلى قرب العصر، يسمع غطيطه من خارج الحجرة المغلقة.

توارى منصور عشرة عدة أيام بعد فعلتـه تلـك. لم يسـأل فيهـا عـن ولده ضيف الله، ولم يحدث أحدًا سوى خادمه مسعود السقا وزوجته ياسمين.

ثم ارتدى ملابسه، وخرج حاملاً عصاه ذات المقبض الفضـي. وسـار في بسونة بخيلاء.

تهامس الناس وقتها، وأسرعوا بعيدًا عنه؛ كـان يسـمع همسـهم، ولا يحرك ساكنًا.

ذهـب إلى المراغة، حيث مقـر العمـدة رشـوان. دخـل القصـر الكبـير على الجسر. وقف له العمدة مرحبًا :

- أهلاً شيخ البلد. لقد افتقدناك لأيام طويلة.

جلس في كبرياء.

رجال العمدة كلهم أقاربه. أفرطوا في تقديم الـود لمنصـور، رغـم أن منصبه أقل من منصب العمدة -قريبهم- لكنهم يعلمون أنـه رجـل الباشـا خـير الدين، والمقرب إليه، ويعلمون بحادثة شوق الغازية من ليلة حدوثهـا؛ لكـن مـن يقدر أن يتحدث في هذا ؟!

رزق -أقرب أقارب العمدة إليه- يحب كوكب ابنة رضوان. عشقها منذ أن رآها مرة في بسونة، ولعلمه أن عارف سيتزوج بها، اكتفى بالحلم فقط.

فلا هو ولا العمدة في حاجة لمشاكل مع منصور -و لده- لكن تجدد أمله في الزواج منها عندما علم أن رضوان قد برئ من منصور. لهذا أراد أن يعرف نوايا الرجل في ذلك الموضوع :

- سمعنا أنك اختلفت مع أخيك رضوان.

قال منصور في هدوء شديد :

- ليس لي أخوة.

قال العمدة ضاحكًا :

- رزق -ابن عمي- عاشق ولهان لابنته كوكب.

أكمل رزق مسرعًا، حتى لا تحدث مشكلة مع منصور :

- لكن، زال هذا كله، عندما علمت أن بنك عارف يريدها.

- عارف لن يتزوجها، إنما سيتزوج سندس ابنة هارون خاله.

كاد رزق يطير فرحًا. نظر العمدة إليه مهنئًا.

تحدث منصور في أشياء كثيرة مع العمدة، ثم عاد إلى بسونة يدق عصاه في خيلاء.

* * *

عندما دخل عارف بيت رضوان، أسرعت كوكب بدخول حجرة أخرى. بينما رحبت حسنية به :

- تفضل يا عارف.

اندهش لتصرف كوكب هذا :

- ماذا حدث لكوكب، لقد كانت تسعد بحضوري.

- لا تهتم، إنها متأثرة بما حدث بين أبيها وأبيك. لكن هذا سيزول،

وستعود كما كانت.

جلس عارف حزينًا :

- عمي رضوان -هو الآخر- لا يريد أن يتحدث معي، إذا ما رآني في الطريق يبتعد عني.

- أجل لقد صدر فظًا، لا يرتاح لأحد. كما أن أباك -هو الآخر- لا يريدك أن تتزوج بكوكب.

بكت كوكب في حجرتها. إنها تحب عارف منذ الصغر. البلدة كلها تتحدث عن حكايتهما معًا. لعبهما في قصر الوجيه الأمثل، وسيرهما وسط البلد، طفل وطفلة، والنسوة يرددن :

-سبحان الله، قمر وقمرة، لقد خلق كل منهما للآخر.

- أجل، هي لا تصلح سوى له، وهو لا يصلح إلا لها.

لكن ما حدث من منصور عشرة مع شوق الغازية أضاع كل شيء. جعل أباها يصر على عدم زواجها بعارف، بل شك في سلوك أمها، سمعته يضربها في حجرتهما ليلاً، ويتهمها بخيانته مع منصور أيام أن كان يتردد على البيت في غيابه. لهذا، لن تتزوج بعارف، ولا تريد أن تراه.

خرج عارف من البيت، قبل أن يعود رضوان ويجده.

ذهب عارف إلى بيت خاله هارون، الوحيد الذي يستطيع أن يحدثه في ذلك الأمر.

- أريد أن أتزوج كوكب.

- بسونة كلها تعرف أن كوكب لك.

سندس ابنة هارون تتابع ما يحدث. لا تدري للآن أن منصور يعد

العدة لكي تتزوج بعارف ابن عمتها حتى لا يضيع منه شيئًا من ثروة الوجيه الأمثل.

- لا تغضب يا عارف. سأحدث أباك في هذا. كفاه ما فعل. لقد ماتت أمك كمدًا من أفعاله. وهرب ضيف الله، و لم يتبق سواك.

* * *

أعد الخدم الجلسة المعتادة للشيخ هارون. المائدة الصغيرة وسط الحديقة. ومقعده الكبير، وكتبه الصفراء، وأطباق الفاكهة حوله على مقاعد صغيرة.

ليس هناك أجمل من أن تحلم بأشياء مضت، ولن تعود، حتى تصنعها بخيالك كما تشاء.

المرأة القاهرية الممتلئة تسكن البيت الذي جعله سكنًا له وقت الدراسة بالأزهر. أحب هارون وجهها وجسدها وصوتها الذي لا يشبهه صوت في بسونة.

رغم مرور السنين الطوال، مازال الصوت يداعب أذنيه كأنه يحدث الآن.

بعد موت أبيه الوجيه الأمثل، وأمه وأخته هَنا، بعد ضياع كل شيء منه، ما الذي يريده من الدنيا سوى أن يشرد طويلاً فيما ضاع و لم يستطع تحقيقه.

سبحان الله العزيز الحكيم. هذا الولد الذي لا نعرف له أصلاً ولا فصلاً، جاء إلى بسونة لا ندري من أين : سائرًا على القدمين، أم ممتطيًا دابة، أو عن طريق البحر. جاء ذلك الغريب ليغير بسونة ويقلب حالها.

حرمه منصور التفكير اللذيذ في المرأة القاهرية.

كان هارون صبيًا يوم أن جاء منصور إلى بسونة سمع الناس يتحدثون عنه. يقولون :

- شاب كالملاك، وجهه مستدير كالقمر، ولونه كالشمع الأبيض، وشعره مائل للإحمرار.

والد هارون -عبد المولى أحمد- أفسدت الكتب الصفراء عقله. كل ما يحدث في الحياة يحيله إلى ما قرأه من قصص في تلك الكتب. لهذا قال، عندما سمع ما يحكونه عن منصور :

- الكتب الصفراء تقول إن كل مائة عام يأتي رجل بهدف سام وغاية شريفة. يعطيه الله الجمال والحسن، ليجعلانه مقبولاً لدى الناس، ويعطيه القوة لتعينه على الشدائد وعظائم الأمور. وذلك الغريب الذي تحكون عنه، ما هو إلا ولي من هؤلاء، جاء إلى بسونة ليعينها، وليجعلها فوق كل القرى حولها.

وعندما عارضه بعض الحاضرين، صاح فيهم :

- قولوا لي عن سر وجوده بجوار البحر الكبير، يوم أن لقيه رضوان، ولم تكن هناك مراكب راسية.

- لقد تخلف عن مركب جاء قبل أيام.

- إن كان ذلك حدث حقًا، فلماذا لم يعد ثانية مع مركب آخر إلى موطنه ؟

قالوا أشياء كثيرة. ولكن عبد المولى أحمد كان قد اقتنع بما قال.

وعندما دخل منصور القصر، كرهه هارون، فقد جعل أباه لا يهتم

بأحد سواه، نسي الرجل ابنه الوحيد. قال هارون يومها :

- منصور هذا ليس تقيًا. وما جاء إلى البيت إلا ليفسده.

غضب منه أبوه. ولولا بعده عنه لكان صفعه. وقال في تحدٍّ غريب، لم يره هارون فيه من قبل :

- إنه في القصر قبلك. وإن لم يعجبك اتركه أنت.

وتركه هارون فعلاً. بعد أن وجد ذلك الغريب يتزوج من أخته الوحيدة "هَنا".

ذهب إلى القاهرة ليتعلم في الأزهر. كان يريد أن يهرب من تجاهل والده له.

ما الذي جعله يفكر في منصور هذا. لقد أفسد الجلسة عليه.

المهم. إنه قابل في القاهرة المرأة الممتلئة التي لم يرها منذ سنوات طوال.

سأل نفسه مرة، في لحظة سقم وإخفاق :

- إنها الآن قد تغيرت، شاخت وكبرت مثلما كبرتُ.

لكنه أحس بسخافة قوله. وضاق لسقم خياله هذه المرة. فلابد أن يعيش لحظات ينسى فيها بسونة والأرض والفلاحين والمرارة التي تركها منصور في فمه. لابد أن يحدث هذا. وإلا مات.

ها هو يعود ثانية إلى منصور دون أن يحس.

جاءت سندس ابنته قائلة :

- منصور عشرة يريدك يا أبي.

- لا حول ولا قوة إلا با لله. مثل القطط يأتي على السيرة. دعيه يدخل.

وجاء منصور. لم يقف هارون له. ولم يرحب به.

- كيف حالك يا هارون ؟

- بخير. اجلس.

وجلس أمامه. أمسك بثمرة برتقال من الطبق. وأخذ يقشرها بأصابعه في هدوء

- أريد سندس لابني عارف.

صاح هارون غاضبًا :

- أجننت ؟ إنك تعلم أنه يريد كوكب ابنة رضوان.

- لكنني لا أريد سوى سندس.

- لو كان رضوان قد أساء إليك، فما ذنب ابنته أو ابنك ؟

- حتى إن لم يُسِئ إليّ. ما كنت سأزوج عارف من ابنته.

- أنت تريد أن تفسد كل شيء.

- دعك من هذا الآن. سندس ابنة خاله؛ وهو أحق بها.

- إنني أفهمك جيدًا. كل ما يهمك الأرض، لا تهمك مصلحة ابنك.

- ولو، ابني أحق من الغريب.

- لا يا منصور. لن أسمح لك هذه المرة. كفى ما فعلته في أختي "هَنا"، وفي ضيف الله ابنها.

قام منصور. كان يلوك البرتقالة في فمه. قال :

- لقد قلت لك يا هارون. وفكر جيدًا.

تابعت سندس ما يحدث من بعيد. لم تفكر هي في عارف من قبل.

كانت تعلم أنه يحب كوكب. و لم تحزن عندما قال أبوها فرحًا بهذا الحب :
"أجمل ما في الوجود أن يجتمع اثنان، يحب كل منهما الآخر، ويكونان في جمال وشباب كوكب وعارف".

لكن منصور أحدث في نفسها مجرى جديدًا.

ماذا لو تزوجت عارف ؟

كوكب أجمل منها بكثير. لا تستطيع هي أن تخفي هذا. وعارف أجمل شباب بسونة كلها. لو تزوجته ستسعد. ستحسدها قريناتها الجميلات من أجله.

صاح هارون في غضب :

– لن أجعله يفرق بينهما أبدًا. لقد كانا أجمل شيء في بسونة.

وحمل عباءته فوق كتفيه وسار مسرعًا.

* * *

وهزل رضوان. بدت عظام وجهه بارزة، تكاد تخرج من الجلد، ولحيته لم يحلقها منذ أن بلغه نبأ غرق شوق الغازية في الرِّياح.

– أهلاً بك يا شيخ هارون.

– ماذا حدث يا رجل ؟ لم نعد نراك، لا في الطريق ولا في المسجد.

– صهرك أفسد علينا بلدنا.

– عندك حق. لكننا يجب أن نمنعه من أن يتمادى.

– لقد فعل ما أراد وانتهى الأمر. خدعنا جميعًا.

أحست كوكب وحسنية وهما تجلسان بجوار الباب المغلق بأن زيارة هارون لها صلة بموضوع عارف.

- ليتك تزورني يا شيخ رضوان. كما كنت تفعل من قبل.

- لا أرغب في الخروج من البيت.

- لقد جئت من أجل عارف.

- ابن منصور ؟

- وابن "هَنا" أختي أيضًا. وحفيد الوجيه الأمثل الذي كان صديقك.

- لا تكمل يا شيخ هارون. لقد حملته بيدي وهو صغير، وكان في قدر كوكب ابنتي. لكن ما فعله أبوه جعلني أكره عائلة منصور عشرة ولا أطيق رؤية أحدهم.

- وما ذنب عارف ؟

- لا أعتقد أن منصور يأتي بخير أبدًا.

- وكوكب ؟

- ليتها ماتت قبل أن تكبر.

- رضوان. إنك...

- كنت أود ألا أرفض لك طلبًا. لكن ذلك مستحيل.

* * *

بعد أيام قلائل، أقيم حفل كبير، صوان أمام بيت رضوان الملاصق لبيت منصور عشرة...

جلس العمدة -الحاج رشوان- وأقاربه القصاصيون ورزق العريس، بجسده الممتلئ وكرشه الممتد أمامه. وأطلق فهمي العجل الطلقات من بندقيته، بينما جلس رضوان منزويًا، بملابسه المتسخة، ولحيته المتناثرة حول وجهه، كان

ينظر إلى الجميع في شرود.

وعندما دخل منصور -شيخ البلد- ليهنئ العمدة بزواج قريبه، هب رضوان فزعًا :

- أخرج من الصوان، لا تدنسه.

وقف الرجال جميعًا، وكفت الفرقة عن العزف والغناء. ظن الناس أن منصور سيهوي بعصاه -ذات المقبض الفضي- على رأس رضوان. لكنهم فوجئوا به يحني رأسه ويصمت.

أسرع الحاج رشوان ورزق قريبه إلى منصور، سارا به خارج الصوان. صافحاه. قال العمدة :

- دعه لقد جن.

لم يجبه منصور، وعاد إلى بيته كسيفًا.

- ٤ -

عندما مات عمدة المراغة السابق، كان هارون مازال في القاهرة. الكل يعلم أنه كان يدرس في الأزهر، بينما هو يتابع عجيزتي المرأة القاهرية وهي تتحرك أمامه. هذه المرة داخل شقتها. فقد هام في حبها، و لم يجد سوى أن يتزوجها.

جاء في ذلك الوقت بعض رجال المراغة وبسونة وبقية النجوع الأخرى التابعة للمراغة، إلى قصر الوجيه الأمثل. قالوا له :

- أنت أحق رجل في المراغة كلها بالعمودية. أرضك كبيرة، ومنتشرة في كل النجوع. كما أنك تلبس نظارة وتقرأ الكتب الصفراء المنمنمة الحروف، وتنطق بالحكمة.

لكن الوجيه الأمثل عارض هذا بشدة، قائلاً :

-إن الكتب الصفراء والحكمة تتعارضان مع أعباء العمودية. كما أنني لست في حاجة إلى مزيد من الأموال والأرض.

بعد أيام، حدث حادث في المراغة لم يحدث من قبل، ولغرابته، جاء رجل إلى هارون في القاهرة -خصيصًا- ليحكي له ما حدث، قال :

- إن الباشا خير الدين قد جاء إلى المراغة، كان يسير وحوله رجاله وعبيده الذين يجرون أمام موكبه ليفسحوا له الطريق.

وجاءت الأخبار بالأمر والأدهى: "الباشا سوف تطأ قدمه أرض بسونة الصغيرة".

ودخل الباشا قصر الوجيه الأمثل عبد المولى أحمد. لم يجرؤ فلاح واحد -مهما علا شأنه- على حضور ذلك اللقاء.

لكن خدم عبد المولى أحمد رأوا ما حدث. ويقسمون أن الوجيه الأمثل كان يتحدث مع الباشا "رجلاً لرجل"، وكان يجلس في حضوره ويضحك معه، وكأن الباشا رجل من أهل بسونة.

عرض الباشا خير الدين على الوجيه الأمثل عمودية المراغة، خلفًا لذلك العمدة الذي مات.

لكنه اعتذر، كما اعتذر لوفد المراغة من قبل. ولكي يؤكد للباشا أن رفضه لم يكن تهربًا من دفع "حلوان" للباشا، أصر أن يدفع له مبلغًا أكبر مما كان سيدفعه لو قبل العمودية.

وتكريمًا له سأله الباشا عمن يصلح لهذا غيره.

فكر عبد المولى أحمد طويلاً، ثم قال :

- شاب نبيل، كل ما فيه ينبئ بالخير.

- ما اسمه ؟

- منصور عشرة.

فكر الباشا، ثم قال :

- لا أعرفه، ولا أستطيع أن أعينه عمدة.

ثم حدث ما كدر المراغة بكل نجوعها. فقد دفع الحاج رشوان -عمدة قصاص المتاخمة للمراغة- حلوانًا للباشا خير الدين، فجعله عمدة على

البلدين معًا (المراغة وقصاص). وكأن المراغة ليس بها من يستحق. ولكي يزيد أهل المراغة همًا، جاء الحاج رشوان، وأقام قصره الأبيض وسط المراغة، وعلى الجسر، متحديًا بذلك مشاعرهم، وجعل رجاله وخفراءه كلهم من قصاص. حتى يطمئن إلى ولائهم له.

أرسل الحاج رشوان -بعد تعيينه عمدة للمركزين معًا- رسولاً إلى الوجيه الأمثل، طالبًا منه الحضور إلى قصره في المراغة، فصاح يومها في الرسول، ولولا أن الرسل لا تضار، لكان رماه بطبق الفاكهة الذي كان موضوعًا أمامه. قال :

- قل لسيدك إن الباشا قد جاء إلى قصري.

وجاء العمدة رشوان معتذرًا.

وقف الخفراء خارج قصر الوجيه الأمثل. وأقيمت الولائم التي حضرها كل رجال بسونة الكبار، ومنهم رضوان ومنصور عشرة.

قال الحاج رشوان إن سبب زيارته ما أخبره به الباشا خير الدين، بأن يعين من يأمر به الوجيه الأمثل شيخًا للبلد.

بدا واضحًا -وقتها- أن الباشا قد نسي في غمرة مشاغله اسم ذلك الذي أشار به الوجيه الأمثل إليه، فأرسل إلى العمدة بأن يسأل عنه ويعينه.

صاح عبد المولى أحمد، أمام كل رجال البلدة الحاضرين :

- منصور عشرة.

دهش الحاضرون، حتى منصور نفسه دهش.

قال الحاج رشوان :

- نحن نعلم بأنه زوج ابنتك، لكن لابد لشيخ البلد بأن يكون ممتلكًا

أرضًا.

قال عبد المولى أحمد :

- منصور لديه خمسة أفدنة يا حج رشوان.

فهم الجميع بأن خمسة أفدنة من أرض الوجيه الأمثل قد انتقلت ملكيتها إلى منصور عشرة. ذلك غير البيت الذي أخذه ليلة زفافه على ابنته "هنا".

لولا وقار رضوان وتقواه، لكان رقص من فرط فرحته.

* * *

انتقلت كوكب الجميلة إلى المراغة. أسكنها رزق -زوجها- في بيت قريب من قصر الحاج رشوان. بكى عارف عندما رأى الهودج يتهادى بها، مارًا فوق "الجزجة" التي تصل المراغة ببسونة. فوق الترعة. أراد أن يسرع إلى الجمل الذي يحمل الهودج، ويضرب قائده. ويكشف الغطاء عن حبيبته التي تركته، وستذهب إلى رجل لم تعرفه من قبل. وهي التي تربت معه، ولعبت معه في قصر جده الوجيه الأمثل.

وفي اليوم التالي، خرج المنادي يعلن موت رضوان.

قالوا وقتذاك :

- لقد كان رجلاً طيبًا حقًا. انتظر حتى ستر ابنته. ثم مات.

في نفس اليوم الذي مات فيه رضوان، صاح منصور عشرة في ابنه عارف :

- إن لم تتزوج سندس لن تكون ابني.

أراد عارف أن يقول إنه يحب كوكب؛ لكنه لم يستطع، فقد أخرسه

زواجها من ذلك الغريب.

- سأتزوجها يا أبي.

رغم أن هارون غير راضٍ عن زواج سندس من عارف؛ لأنه يعرف سببه؛ إلا أنه لم يستطع المعارضة. فعارف -بعد زواج كوكب- بدا مستسلمًا لرغبة أبيه، بل طلب منه أن يوافق. فما دامت كوكب قد تزوجت، فكل النساء -سواها- سواء.

بل أحس هارون أن سندس -ابنته- راغبة في ذلك الزواج وسعيدة من أجله.

ردد هارون بأن ما يحدث أمر مدبر ومكتوب. كما كان يردد أبوه الوجيه الأمثل، متأثرًا بكتب الصفراء. فوالده لم ينجب سواه وأخته هنا. فيتزوجها منصور عشرة، وينجب ولديه: ضيف الله وعارف، وهارون لا ينجب سوى ابنته سندس، رغم كثرة من تزوجهن. ثم يتزوج عارف هذه الابنة الوحيدة، لتنتقل أملاك الوجيه الأمثل كلها إلى أسرة منصور عشرة، وينتهي نسب أسرة الوجيه الأمثل، ليبقى نسب منصور.

وذلك ما فعله الله في بني إسرائيل. فلكي ينهي فيهم النبوة، جاء يحيى بن زكريا حصورًا، ليس له رغبة ولا قدرة على النساء، وصعد عيسى بن مريم إلى السماء قبل أن يتخذ حليلة، أو أن يأتي بولد. ثم جاءت النبوة -بعد ذلك- خالصة في نسل إسماعيل في محمد عليه السلام.

ها هي روح الوجيه الأمثل تتقمصه، فينطق بالحكمة مثله.

* * *

كثرت السرقات في كل نجوع المراغة، فيما عدا بسونة. كل ليلة

تسرق جاموسة أو بقرة. بل وصلت السرقات إلى "شُوَن" القطن، وصوامع الغلال، وحجرات النساء، فسرق المصاغ والمال.

لكن ما أثار العمدة رشوان أكثر، أن السرقات وصلت إلى موطنه قصاص، وخاصة بيوت أقاربه، وكأنه هو المقصود بهذه السرقات. لذا جمع خفراءه، وسبهم. قال شيخ الخفراء :

– إن ضيف الله بن منصور عشرة وراء كل هذه السرقات.

يعلم العمدة بهذا، لكنه لا يستطيع مواجهة منصور.

قال رزق :

– لابد أن يعلم الباشا خير الدين بهذا، ليتصرف.

* * *

عاد منصور من عند الباشا خير الدين مهمومًا. لقد ثار الرجل عليه، صاح فيه غاضبًا :

– شيخ بلد وابنك شيخ منسر.

– يا باشا ابني لم أره منذ ....

– منذ فعلتك مع امرأته. أليس كذلك ؟

– يا با....

– ابنك يريد أن ينتقم منك بأفعاله تلك. يعلم أن هذا سيضعف موقفك أمامي.

– يا باشا لو تمكنت منه، سأقتله.

– هذه مشكلتك وحدك، ولابد أن تتصرف. لقد زادت حالات السرقة والقتل.

- سأفعل يا باشا. سأفعل.

دخل بيته الفارغ الآن، إلا من مسعود السقا وزوجته ياسمين. عارف يقضي معظم وقته مع خاله هارون، وضيف الله ينتقم منه بسرقاته.

أغلق منصور باب حجرته عليه.

* * *

يقولون إن منصور رغم جبروته وظلمه، كان يخشى رضوان، وأنه رغم غناه الشديد -بالنسبة لرضوان- لم يستطع الرد عليه عندما تبرأ منه أمام أهل بسونة، و لم يرد عليه -أيضًا- عندما طرده يوم حفل زفاف كوكب على رزق القصاصي.

ويقولون إن منصور قد ازداد ظلمًا بعد موت رضوان. فقد جعل الفلاحين يزرعون في أرضه بالسخرة، وكان يضربهم بعصاه، ويجمع منهم الضرائب التي يحددها كما شاء، مدعيًا أن تلك أوامر الباشا خير الدين.

لكن شيئًا قد حدث لمنصور، حارت فيه بسونة كلها. فقد ازداد وزنه فجأة، وبدت بطنه بارزة تكاد تشق الثوب. وثقلت حركته، حتى بدأ ينام بجوار الشجر في أرضه، أو أثناء حديثه للفلاحين، بل نام في لقاءاته بالعمدة رشوان.

ويردد الحاج رشوان -لأقاربه القصاصيين الذين يثق بهم- "إن منصور لم يكسب منذ أن عنفه الباشا خير الدين، وهدده بسبب ابنه ضيف الله".

* * *

أقيم حفل زفاف عارف على سندس في حديقة الوجيه الأمثل. لكن

منصور عشرة لم يستطع الخروج من داره. فعندما ارتدى ملابسه التي ضاقت عليه، وسار بها خطوات قليلة، وقع فوق الدرجات، وأخرج شخيرًا عاليًا من أنفه وفمه.

تركوا الحفل، وذهبوا إليه. حملوه في عناء حتى سريره. وأمر هارون ابنته بأن تظل في بيته، وأن يعيش عارف معها، إلى أن يجدوا حلاً لذلك الذي ينام ويشخر دون أن يحس بشيء.

أرسل عارف في طلب الطبيب من سوهاج. ومنصور ينام فوق فراشه، بطنه يزداد انتفاخًا.

ويدور الحديث بين الحاضرين همسًا. الكل يحاول أن يبدي رأيه في هذا المرض الذي لم يروا مثله من قبل.

قال الطبيب :

– كان الله في عونه.

قال عارف :

– ننقله إلى مستشفى سوهاج ؟

– ليس هناك داع. ما هي إلا أيام يقضيها.

لكن الأيام طالت، والطبيب يزوره كل يوم.

- ٥ -

وجه عارف المستدير يتجه ناحية الكلوب المعلق. يشرد وكأنه ساعة يرجوها بأن تدور وتسرع؛ حتى ينتهي هذا العزاء.

المقرئ مازال يقرأ داخل الدار. والمعزون -من أهل بسونة والبلاد المجاورة- يجلسون حوله.

مل عارف هذه الجلسة المشدودة فوق المقعد، ومتابعة الولائم، ومقابلة الزوار الذين يأتون من بعيد، من خلف البحر الكبير، راكبين البحر. يقضون الليل لديه، ثم يعودون في الصباح.

الليلة هي الأخيرة في العزاء. يريد عارف أن يجلس وحده. يفكر في الأيام المقبلة، التركة التي تركها له والده ليست الفدادين الكثيرة ولا البيت الكبير؛ إنما الكره والخوف اللذان يحيطان به من كل جانب. يجدهما في أعين الفلاحين الذين يلاقونه في كل طريق. يجدهما -أحيانًا- في عيني خاله هارون.

أنهى المقرئ قراءته، قائلاً في لغة ممطوطة :

- الفاتحة.

بسمل عارف مسرعًا، وهو يتابع خاله هارون الذي يقف أول الصف، وبجانبه فهمي العجل، والعمدة رشوان، وعبد الوهاب البقال، والرجال الآخرين.

أراد هارون أن يسرع. فلقد أبعده ذلك العزاء عن خلوته، وجلوسه في حديقة قصره، يتأمل.

أمسكه عارف من ذراعه :

- لا تذهب يا خالي.

وقف مترددًا. ما الذي يريده عارف وقد انفض ذلك العزاء الممل ؟ "الجنازة حارة والميت كلب".

لو بيده ما جلس دقيقة واحدة في عزاء ذلك الفاجر.

ذهب كل المعزين. ولم يتبقَّ في الدار سوى عارف، وفهمي العجل، وهارون.

قال عارف :

- هيا.

صاح هارون :

- إلى أين ؟

- ستعرف بعد قليل.

عارف مشدود ومتجهم. كأنه ينوي أمرًا صعبًا. فهمي العجل يبتسم، مما يوحي بأنه يعلم بما سيحدث.

أسرع هارون خلفهما. لقد كان يود أن يذهب إلى بيته قبل أن تنام ابنته سندس. فمنذ أن مات منصور وهو لا يذهب إلى البيت. كان يستقبل المعزين مع عارف.

سار عارف مسرعًا. وتبعه فهمي العجل وهارون. وصلوا إلى حافة البحر الكبير. داست أقدامهم الهشيم الملقى بجوار البحر. قارب صغير في

انتظارهم.

حل فهمي رباط القارب، ودخل فيه. ودفع عارف خانه هارون إليه:

- هيا.

أمسك فهمي بالمجدافين وهو ينظر إلى عارف في ابتسامته الواثقة. لم يستطع هارون أن ينتظر أكثر من هذا. ما الذي يدور بين عارف وفهمي، فهما لم يكونا صديقين أبدًا. فتصرفاتهما مختلفة تمامًا. عارف هادئ، درس في الأزهر سنوات قليلة، بينما فهمي العجل، رغم تركه معاشرة المطاريد، مازال يعاشر الغوازي ويدخن الحشيش في عشة طلبة العجوز. واشتهر في بسونة بتربية عجول تلقيح إناث المواشي هناك نظير أجر محدد، حتى اقترن اسمه باسم العجل.

قال هارون في دهشة :

- ما الذي يحدث ؟

- سنقابل ضيف الله.

زام هارون وصمت. يتابع المياه الراكدة السوداء التي لا تريد أن تنتهي، والمستسلمة لشق القارب لها. الرحلة في هذا الوقت خطرة. البحر كبير، يأتيه المسافرون بمراكبهم في عز النهار.

قال عارف لفهمي :

- سنقابله في الجبل ؟

- لا. قريبًا من الشط.

لم تكن الليلة مقمرة. هكذا أراد الله أن يموت منصور عشرة في ليلة

شديدة الإظلام. يعلم عارف أنهم سيربطون بين هذا وبين أفعـال أبيـه المظلمـة أيضًا.

الجبل بعيد. في آخر البلـدة. والنـاس نيـام. حتـى الذيـن ذهبـوا إلى بسونة للعزاء، فضلوا أن يبدءوا رحلتهم في الصباح.

يمشي فهمي العجل في المقدمة. ينظر إليهما دون قول. وهما يتابعانه دون قول أيضًا.

لم يمنعهم الخوف من الحديث. فكل منهم يشرد فيما سـيحدث بعـد دقائق.

ضيف الله يقف وسط مقاعد من الحجارة ملساء. تستخدم في النهار كمقهى. لكن في هذا الوقت المتأخر من الليل، كانت خالية تمامًا.

أسرع ضيف الله إلى عارف. شده لجسده:

- عارف !!

دق ظهـره بيديـه، قبلـه عـارف. وفهمـي العجـل ينظـر والبسـمة لا تفارقه. وهارون يتابع الموقف في قلق.

بكى عارف. انتحب. لكن ضيف الله مسح دموعه في صمت. ثم أسرع ناحية هارون وضمه لجسده.

- كيف حالك يا خالي ؟

- بخير.

جلسوا فوق المقاعد الحجرية العريضة. بينما ظل فهمي العجل واقفًا.

- تعرف أن أباك قد مات ؟

- أجل.

- وددت لو رأيته وهو يحتضر.

- لم أستطع.

- كان يمكنك أن تأتي لتلقي عليه نظرة.

صاح غاضبًا :

- لم أستطع.

- ما علينا .....

أراد ضيف أن يهرب من هذا الحصار. قال مسرعًا :

- كيف حال بسونة ؟

كانوا جميعًا يتسمون. قال عارف :

- ليتك تعود معي لنفتح بيت منصور عشرة ثانية.

ضحك ضيف في استخفاف :

- منذ أن هجرت بسونة، وإلى أن مات منصور عشرة، ارتكبت أفعالاً كثيرة، سرقة وقتل. كل البلاد المجاورة موتورة مني. ولن يتركوني أعيش في أمان.

- سأحميك منهم. سأعطيهم ما يشاءون من مال ليسكتوا. ولو لم يتبق مليم من مال منصور عشرة.

- والباشا خير الدين الذي يبحث عني ؟

- سأقابله وأطلب لك العفو منه.

نظر ضيف الله إلى فهمي العجل وإلى هارون خاله. أحس أن عارف يريد أن يحكم الدائرة حوله ليعود ثانية.

صاح في ضيق :

- لا أستطيع. لقد اعتدت العيش في الجبل.

عندما أراد عارف أن يتحدث ثانية. صاح فيه :

- لقد أفسد أبوك كل شيء.

ثم شده إليه عنوة. لينهي اللقاء. دق فوق ظهره العريض ثانية.
أبعده عارف في ضيق :

- أنت أخي الوحيد. وأنا في حاجة إليك.

- سنتقابل كثيرًا. إذا أردتني قل لفهمي وهو يعرف طريقي.

أومأ فهمي برأسه. وشعر هارون برغبة في البكاء.

ظل ضيف وحده وسط الظلام. والثلاثة يسيرون إلى حيث جاءوا.
ليعيدهم القارب إلى بسونة.

قال هارون في صوت خافت :

- كنت أعلم أن ضيف الله لن يعود معك.

- إنني في حاجة إليه الآن.

- إنني معك يا عارف. سأكون سندك.

ربت عارف على يده سعيدًا.

- ٦ -

سار هارون ناحية بيته. لاشك أن ابنته سندس ظلت تنتظره لوقت متأخر. ثم نامت بعد أن غلبها النعاس. فمسعود السقا ينادي الآن لصلاة الفجر.

تنهد في أسى، فسوف تذهب سندس إلى بيت زوجها عارف، وتتركه في هذا القصر وحده.

يطارده طيف والده الوجيه الأمثل بابتسامته الهادئة، وصوته المتهدج وهو يقرأ دعاء الصباح. وأخته "هنا" بوجهها الشاحب كوجهه، وابتسامتها التي اغتالها منصور عشرة منذ أن تزوجها.

جاءته بعد موت أبيها. كانت تعاني أمرًا. الجسد ينحل، والوجه يشحب، ولونها في اصفرار دائم.

- ماذا بك يا هنا ؟

بكت...

- منصور عشرة ليس سواه ؟

أومأت برأسها.

- ماذا فعل ؟

مات الوجيه الأمثل بعد أن اكتشف خطأه الكبير، بثقته في ذلك

الفاجر.

قالت من بين بكائها ونشيجها :

- منصور على علاقة بياسمين زوجة مسعود السقا.

- من أدراك ؟

- ضبطته معها في الحجرة البعيدة، التي يقابل فيها أصحابه. ظننته - أول الأمر- في لقاء مع واحد منهم؛ لكنني سمعت صوت ياسمين. عندما واجهته بذلك، أعطاها بيته القديم؛ لتعيش فيه مع أطفالها وزوجها مسعود.

ستذهب سندس عنه؛ تتركه لشروده الدائم، الذي قد يؤدي به يومًا إلى الجنون...

ماذا لو عاش عارف معه. لقد اشتد المرض على منصور عشرة يوم زفافها.. فكانت ذريعة لكي يبقيها في بيته إلى أن ينتهوا من ذلك الذي يموت.

أليس هذا إيذانًا من الله بأن تبقى في بيته العمر كله ؟

عارف ابن أخته، وأقرب إلى قلبه من الجميع. وسوف يستجيب لطلبه.

كيف سيأمن على ابنته الوحيدة في بيت لوثه منصور عشرة بدماء شوق الغازية، التي شدتها الشياطين إلى قاع الرَّيَّاح، فلم يجدوا جثتها إلى الآن ؟ ولوثته ياسمين بعرقها فوق فراش أخته هنا.

فتح الخادم الباب له

- سيدتك سندس نائمة ؟

- أجل.

دخل حجرته. خلع ملابسه في عناية؛ طواها، ونام.

سندس هي الباقية له من رحلته الطويلة.

طاف البلدان. ترك البيت حين دخله منصور عشرة. استقر في القاهرة.

شاب نحيل، ليس وسيمًا. لكن والده يمتلك أراضٍ كثيرة، يعطي منها لمن يشاء، ولأقل سبب. فهو لا يهتم بالمال.

المرأة القاهرية الممتلئة، كانت تتابعه كما يتابعها (علم بعد ذلك أنها أرملة).

علّمه والده بعض ما في كتبه الصفراء. ونشأ مقيمًا للصلاة منذ صغره. لهذا، عندما أحس برغبة المرأة فاتحها في أمر الزواج. ورحبت المرأة التي كانت تكبره بسنوات قليلة. جعلته يترك الأزهر، ويظل نائمًا فوق فراشه، يتابعها وهي تتحرك.

إلى أن جاء والده برجاله. وحملوه حملاً إلى بسونة. كان والده مثله نحيفًا. لكنه كان كالجبل، إذا ما صمم على شيء فعله. وهارون يحبه ويخشاه.

أقسم الرجال الذين رافقوا والده ألا يفشوا ذلك السر. فكيف لابن الوجيه الأمثل أن يتزوج من امرأة كهذه، متبرجة وأكبر منه سنًا، وسبق لها الزواج من غيره.

لكن هارون هرب بعد أيام. وعاد إلى القاهرة. فلم يجد المرأة. عندما سأل عنها قالوا :

– تركت البيت بعد الفضيحة التي حدثت أمام أهل البيت كله.

بحث عنها. فلم يجدها.

تزوج فتاة يابسة كعود حطب. أنجب منها سندس. ثم توقفت عن

الإنجاب. فتزوج غيرها وغيرها. بحثًا عن الابن الـذي سيرث أراضـي وأمـوال الوجيه الأمثل الطائلة. لكن لم يأت الابن. ولا حتى ابنة أخـرى. هكـذا أراد الله. بأن تنتقل كل الأشياء إلى سندس، ثم إلى ابن منصـور عشـرة. كمـا أراد قبل أن يموت.

* * *

يجلس عارف في البيت وحده... منذ أن مات أبوه وهـو يفكـر في أن يعيد لبيت منصور عشره استقراره. في الغـد سيصر على حضور سندس - زوجته- إلى بيته.

لقد كان جادًا في وعده لضيف الله بـأن يذهـب لمقابلة الباشـا خـير الدين، لكي يرجوه لأن يعفو عن شقيقه. ويحميه أيضًا من الذين يريدون الثـأر منه. وخير الدين معروف دينه: كيس نقود وكل شيء ينتهي؛ لكن ضيف الله كان عنيدًا؛ لم يعد يستطيع أن يعيش في النور.

يحوم الظلام حول عـارف مـن كـل جـانب. لم يطلـب مـن خادمـه مسعود السقا أن يشعل الحجرات؛ بل لم يحس به عندما دخل.

إنـه يرتـاح الآن للظـلام. سـيظل -هكـذا- إلى أن ينـير الله الدنيـا بضيائه.

منصور عشرة أمامـه. يطـوف الحجـرات بوجهـه المستدير، الشـديد البياض، والعينين الواسعتين كعيني بقرة، والقوة الكبيرة التي تحمل ثـورًا دون أن تئن.

ورث عارف عنه وسامته وقوة جسده. لكنه لم يرث أفعاله الأخـرى التي أشقتهم جميعًا.

ورث ضيف الله جبهة جده عبد المولى أحمد البارزة، وضيق عينيه. لكنه لم يرث تقواه وهدوءه، وحبه للعلم. أراد أن يرسله إلى الأزهر ليتعلم؛ لكن ضيف الله لم يوافق. كان مشدودًا إلى عشة طلبة العجوز.

ثم جاء فهمي العجل إلى قصر الوجيه الأمثل، قال :

- أنتم أهل حسب ونسب. وأهل تقوى وورع. وابن منصور عشرة سيحدث في الأسرة ما لم يحدث فيها من قبل. إنه يصادق غازية اسمها شوق (اتضح بعد ذلك أن دافع فهمي -وقتها- هو حقده على ضيف لتفضيل شوق عليه).

لم ينم عارف من ليله دقيقة واحدة. وها هو الصباح قد جاء. ولابد من السفر إلى سوهاج لمقابلة الباشا خير الدين.

منذ وقت طويل وهو لا يسير دون خاله هارون. تمنى لو رافقه في رحلته هذه. لكن الباشا خير الدين لا يحب أن يكشف غريبًا على أفعاله.

عندما قال عارف لخاله عن رغبته في مقابلة الباشا. قال له :

- انتظر عدة أيام حتى أتمكن من مرافقتك.

لكنه أحس بأنه لابد من أن يسرع، وإلا نال الحاج رشوان - العمدة- ما يريد، من تعيين أحد التصاصيين -أقاربه- شيخًا للبلد خلفًا لوالده منصور عشرة.

لولا الملامة لكان ترك العزاء، وذهب لمقابلة الباشا.

* * *

يتحرك عارف مع تحركات القطار الرتيبة. يقولون عنه إنه متجهم، لا يضحك.

قالوا عنه هذا حتى قبل أن يموت والده منصور عشرة. أجل، إنه تعس منذ أن حرم من كوكب ابنة رضوان.

يحب عارف كل من له صلة بكوكب. كان يحب رضوان. و لم يكرهه حتى بعد أن دفعه وتجاهله كلما رآه في الطريق. وما زال يحب حسنية أمها، كأمه.

لم ير عارف الباشا خير الدين. كان يرى موكبه من بعيد، حيث يضرب رجاله السائرين والراكبين ليفسحوا له الطريق. لكنه سمع أباه منصور وجده عبد المولى أحمد يحكيان الكثير عنه. قالا : إنه شديد احمرار الوجه، طويل القامة عريضها، يلبس الحذاء الأسود الطويل الذي يصل إلى ركبتيه دائمًا. ولا يترك السوط من يده أبدًا. كما أن مرور الزمن لا يؤثر فيه.

ويحكي أهل البلدة عنه أشياء غريبة. يقولون إن أحد رجال البلدة قد مسه شيطان. وعندما جاءوا برجل عارف بأسرار الشياطين، وسأل الشيطان عن سبب دخوله جسد هذا الفلاح المسكين، أجاب :

– لقد خفت من رؤية الباشا خير الدين، عندما كان مارًا بموكبه، فلم أجد شيئًا أختبيء فيه، سوى جسد هذا الفلاح؛ إذ كان يمر –بالصدفة– حينذاك.

طوال الطريق وعارف يتذكر حكايات كثيرة مماثلة لهذه. لكنه لم يخف. فلابد أن ينهي مأموريته بنجاح. وأن يركب الوظيفة التي كان يشغلها والده.

عندما اقترب من القصر الكبير، شعر بقشعريرة. تذكر ما يقولونه، بأن أي مار –يمر أمام القصر دون سبب يأخذونه في الداخل، ويجلدونه بالسياط

حتى لا يجرؤ ثانية على المرور أمام قصر الباشا.

اعترضه الحارس، قال :

- أريد مقابلة الباشا.

قبل أن يتصرف الحارس تصرفًا شائنًا معه، أخرج كيس نقود، ووضعه في يديه قائلاً :

- أعطه للباشا.

تردد الرجل، ثم أسرع به. بينما وقف باقي الحراس حول عارف. ثم عاد الرجل دون الكيس قائلاً :

- اتبعني.

كان الباشا جالسًا أمام مكتبه بقامته الطويلة النحيلة التي أحناها الزمن الطويل. شارباه الأبيضان يتهدلان فوق فمه. وصوته لم يكن قويًا -كما ادعوا- قال وهو ينظر إلى كيس النقود أمامه على المكتب :

- اجلس.

جلس عارف.

- من أنت ؟

- عارف منصور عشرة.

ضحك الباشا، ورجع بجسده إلى الخلف. ظهرت التجاعيد الكثيرة في رقبته.

- تريد أن تكون شيخًا للبلد بهذا المبلغ ؟

- لا. هذا للتعارف.

وأخرج كيسًا أكبر، ووضعه بجانب الأول. وضحك الباشا بصوت

مرتفع :

- لقد أرسل لي الحاج رشوان مبلغًا أكبر من هذا؛ كي أعين له رجلاً من أقاربه لكني لم أقبل.

قام من مكتبه، وقال وهو ينحني فوقه :

- كنت أنتظرك. أتدري لماذا ؟

لم يجبه عارف. أحس بالخوف، خاصة من رجاله الكثيرين الذين يتحركون ببنادقهم.

- لأنني أعلم أنك ستأتي إليّ، ولأنني أريدك أنت لهذا المنصب.

دخل أحد الرجال بالقهوة، وضعها أمام عارف وخرج.

- أتدري لماذا ؟

لم يجبه. صاح فجأة بلغة آمرة :

- إشرب القهوة.

قبل أن تصل يد عارف لفنجان القهوة، صاح :

- لأن منصور عشرة كان رجلي، ينفذ ما آمره به.

أراد عارف أن يسرع بالعودة إلى بسونة. جو القصر رهيب. وحديث الباشا يزيده خوفًا. أي أوامر تلك التي ينفذها منصور عشرة له؟

كل ما يريده عارف أن يعيد لأسرة منصور عشرة مركزها وهيبتها وسط الناس في بسونة؛ وفي مركز المراغة، بعدما فعله منصور بهم. لكن أين هي تلك الأسرة ؟

أبوه قد مات. وأخوه قاطع طريق مُطارَد من الحكومة ومن الناس.

صاح الباشا فجأة :

– إنني أعرف أنك قادر على ما أريد. أعرف هذا أكثر منك أنت.

أراد عارف أن ينصرف. لكن الباشا أصر أن يتناول الغداء معه.

* * *

لم يصدق عارف نفسه وهو عائد إلى بسونة. أحقيقة أنه كان يجالس الباشا خير الدين الذي يخشاه الكل في سوهاج ؟!

أحس بالضيق لمرافقة رجل من رجال الباشا له حتى محطة القطار.

أحقيقة هو يصلح لما يريده الباشا. لقد كان يحسد هارون – خاله– لجلوسه في حديقة قصره شاردًا، متأملاً بالساعات. وكان منصور يشد عارف من ملابسه غاضبًا :

– ستكون مثل أهل أمك. يعيشون في الأوهام والأحلام. ويضيعون بذلك مالهم وأرضهم.

كان عارف يخافه. يرتعد عندما يصرخ فيه. وعندما أصر أن يتزوج سندس. لم يقاومه، كما قاوم ضيف وتزوج شوق.

منذ أن مات منصور عشرة، وصورة كوكب لا تفارقه. قال لنفسه :

– لقد انشغلت عنها بزواجي من سندس، ثم بمرض منصور عشرة وموته.

تحدثه سندس –زوجته– بوجهها الشديد الشبه بأبيها هارون: جبهته البارزة، ولونه الأسود، وشفتاه الكبيرتان.

يأتيه وجه كوكب المبتسم، مريحًا من كل ما يعانيه.

- ٧ -

بعد أيام قلائل، أرسل الحاج رشوان في طلب عارف. الخفراء الذين جاءوا بسونة في طلبه، قالوا للناس هناك : إن العمدة غاضب وثائر، وإنك لو رميته بالفولة "يفرقع"، وإن سبب ذلك هو عارف ابن منصور عشرة. ولما سألهم الناس عما فعل عارف للعمدة، قالوا :

- العمدة رأسه وألف سيف ألا يقول هذا لأحد.

رغم أن منصور عشرة كان ملعونًا من بسونة كلها، إلا أن ابنه عارف كان محبوبًا منهم؛ فهم لم يروا فيه ما يسيئهم أو يغضبهم ، يقولون إنه هادئ، ويعرف ربنا مثل جده -لأمه- عبد المولى أحمد.

لهذا خافوا عليه عندما أبلغهم الخفراء بما حدث. قال هارون لابن أخته :

- لا تذهب وحدك لمقابلته. سأذهب معك.

وقال فهمي العجل :

- بل سنذهب جميعًا معه.

أكد عبد الوهاب البقال على قوله. فابنه صابر يقف في الدكان بدلاً منه.

لكن عارف أصر ألا يذهب معه سوى خاله هارون.

سارا معًا ناحية المرغة، وأعداد هائلة من بسونة تتبعهما من بعيد؛ خشية أن يصيب عارف سوء من ذلك القصاصي الغريب.

دهش الخفراء عندما رأوا العمدة يسرع إلى عارف ويضمه لصدره، قائلاً :

- أهلاً بشيخ البلد الجديد.

عدد كبير من القصاصيين يجلسون في الردهة الكبيرة. أحس عارف بالحقد في عيونهم، وكذلك عيني العمدة، رغم تظاهره بالفرح من أجله.

أسرع رزق من جنب العمدة، وعانق الشيخ هارون مرحبًا :

- أهلاً بابن الوجيه الأمثل.

أدرك العمدة أنه في غمرة تأثره بما حدث، نسى أن يعطي هارون واجبه وحقه من الاحترام.

- لا تؤاخذني يا شيخ هارون. لقد أنستنا الفرحة أن نعاملك بما يليق بمركزك.

- أهلاً بك يا عمدة.

نسى عارف انتصاره على القصاصيين، عندما رأى رزق، فها هو الذي أخذ حبيبته وحرمه منها.

- اتصل بي الباشا خير الدين وأبلغني بالخبر السعيد.

شد العمدة يد عارف إليه وهو يتابع رزق الممتلئ، ذا الوجه الأسود والكرش الممتد أمامه :

- لابد أن تحتفل المراغة كلها بذلك الحدث السعيد، فأنت ابن أقوى شيخ بلد في مديرية سوهاج بأكملها باعتراف الباشا نفسه، كما أن جدك

الوجيه الأمثل غني عن التعريف.

لم يسمع عارف معظم ما قاله العمدة. كان لاهيًا في وجه كوكب المضيء، ووجه ذلك البدين الأسود. كيف تسمح له بالاقتراب منها.

أراد العمدة أن يقيم الولائم لهما؛ لكن عارف أصر على العودة إلى بسونة، على أن يأتي مع بعض الرجال لحضور تلك المأدبة في يوم آخر.

صاح العمدة في خفير من خفرائه :

- اذهب يا ولد مع الشيخ عارف، لا تفارقه.

قال عارف :

- لا أريد خفراء.

سار ومعه هارون عائدين إلى بسونة

* * *

كوكب تنتظر عودة زوجها من لدى العمدة؛ ليخبرها فيما سيسعدها. لقد أرسل العمدة في طلبه. قالت وهي تساعده في لبس حذائه :

- أبشر سيبلغك بموافقة الباشا على تعيينك.

ظلت تدعو الله طوال الوقت أن يحقق لزوجها ما يتمنى، أن يصير شيخًا للبلد، مكان منصور عشرة، ذلك الذي يتهمونه مع أمها. أجل. فهي تعرف أن والدها عارض في زواجها من عارف لهذا السبب.

لم تكن تحب رزق. عندما رأته بعد موافقة والدها على الزواج منه، أحست بالرغبة في القيء. بكت، إنها لن تستطيع احتمال مواجهته للحظات، فكيف لها أن تتزوجه، وتشاركه فراش واحد؟!

قارنت بينه وبين عارف حبيبها. رزق قصير. رغم اتساع ردائه،

تحس أن الكرش يكاد ينفذ منه. رقبة قصيرة، كأنه بلا رقبة. لونه أسود؛ بينما عارف طويل، وجسده متماسك كنخلة مشدودة. لكنها عاندت نفسها، ورفضت الزواج من عارف. حتى لو وافق والدها لعارضت هي. كيف تقترن بابن منصور عشرة الرهيب. لقد كانت تسمع همس النسوة وهي تقترب منهن. تعلم أنهن يذكرون أمها بالسوء. يقرنونها بمنصور عشرة. ويذكرون أنها كانت نتاج ذلك.

رزق أمواله كثيرة. يتعامل معها بحذر. يتمنى رضاها. أنجبت منه ابنتها "رضا"، فتغير فيه كل شيء بالنسبة لها. لم تعد تراه دميمًا، كما رأته أول مرة.

يحكي لها عن أمانيه، العمدة رشوان يحبه. يقربه إليه. يعده -منذ أن مرض منصور عشرة مرض الموت- بأن يجعله شيخًا للبلد بدلاً منه.

طلب منه مبلغًا من المال، ليدفعه للباشا خير الدين. وسافر العمدة لمقابلة الباشا، واعدًا إياه بأنه سوف يعود ومعه الأمر بتعيينه شيخًا للبلد.

* * *

كلما دق الباب تسرع كوكب، متلهفة. فسوف تجد رزق أمامها، مبتسمًا سعيدًا، يزف إليها الخبر السعيد.

فتحت الباب هذه المرة. وجدت رزق أمامها منهارًا. تعرفه هي عندما يغضب أو يحزن.

- ماذا حدث ؟

- أخذها عارف بن منصور عشرة.

- كيف ؟

- لقد جاء مع خاله إلى العمدة. والبلدة كلها هنأته بذلك.

جلس حزينًا. قرفصت تحت ساقيه. ربتت على فخذيه :

- لا تهتم. نصيبك يصيبك.

* * *

رؤية عارف لرزق جعلته يفكر في كوكب؛ فاشتعل الوجد في صدره...

ملعونة مشيخة البلد. بل ملعونة كل النجوع، والبلاد التي سيكون شيخًا عليها. كلها لا تساوي نظرة من عيني كوكب، أو ابتسامة من ثغرها الجميل.

زغردت النسوة في بسونة. وخرجت الأواني من البيوت بالشربات الأحمر، مساهمة في الاحتفال بشيخ البلد، ابن بسونة.

وقفت فرقة مزمار أمام قصر هارون. فقد أقسم الرجل بأن يكون الاحتفال في بيته. وجلس أهل المراغة وقصاص وبعض البلاد البعيدة في حديقة القصر وخارجه. وهارون يقف بعباءته المطعمة بالقصب، ونظارته ذات الإطار الذهبي، سعيدًا بابن أخته.

وجاء فهمي العجل ببندقيته. أطلق الأعيرة النارية. ثم رقص بها على نغمات المزمار.

سار مسعود السقا بين الصفوف. همس في أذن عارف قائلاً :

- بعض المساليب يريدونك.

لولا الناس لكان صفعه. أيأتي إليه في مناسبة كهذه ليخبره بأن المساليب يريدونه ؟!

– أعطهم ما يريدون. مالاً، خبزًا، سمنًا، أي شيء.

– رفضوا كل الأشياء. قالوا إنهم يريدونك أنت.

قال في ضيق :

– قدم لهم الطعام في الحديقة حتى أعود إليهم.

ثم جاء الحاج رشوان بعربته وحوله أتباعه بالخيول، ومن بينهم رزق. والخفراء يسيرون حول الموكب ببنادقهم. ضم عارف لصدره، وجلس بجواره وبجوار الشيخ هارون. قال العمدة لعارف هامسًا :

– ليتك تترك بسونة وتعيش بجانبي في المراغة. لقد وجدت لك سكنًا مناسبًا.

قال عارف مقاطعًا :

– لن أترك بسونة أبدًا.

– إنها لم تعد تناسبك.

لم يجبه. انشغل بمهنئين جدد، دخلوا باب الحديقة.

لا يدري رشوان ما الذي يجعلهم يتمسكون ببسونة رغم فقرها. عبد المولى أحمد الذي كانت أراضيه تقع في معظم القرى المجاورة، ترك كل البلاد وعاش في بسونة. وكذلك فعل ابنه هارون. ومنصور عشرة رغم أنه كان مقربًا من العمدة، إلا أنه رفض لعيش في المراغة بجانبه، وبقى في بسونة.

وها هو عارف يفعل الآن.

- ٨ -

دخلت سندس البيت، وبعض خدم أبيها يحملون أمتعتها. فقد أصرت ألا تبارح قصر أبيها إلا بعد حضور حفل تتويج زوجها شيخاً للبلد.

رأت سندس المساليب يجلسون في الحديقة. قال مسعود السقا لها:

- إنهم ينتظرون الشيخ عارف.

عندما دخل عارف الحديقة. وقف المساليب مسرعين. أسرعت امرأة طويلة ترتدي ثوبًا طويلاً، لتقبل يد الشيخ، لكن الأخرى ظلت كما هي.

اقترب الرجلان، والأطفال من عارف. حاول الأطفال أن يقبلوا يده مثل أمهم، مما جعل عارف يضيق بهم. صافحه الرجل في انحناء.

- أنا آدم عثمان.

الآخر يمسك ربابة في يده. وجهه محفور، به آثار الجدري الذي أصيب به في صغره، فأفسد عينًا من عينيه. كاد الشيخ يدفعهم جميعًا. البيت مملوء بالخير: سمن، قمح، تمر... إلخ، والخدم معهم نقود يدفعونها في مثل هذه الحالات، فماذا يريدون منه ؟!

قال آدم :

- وهذه سارة زوجتي.

وأشار إلى المرأة الطويلة التي قبلت يده.

- وذلك سويفي، وزوجته آسيا.

صاح عارف غاضبًا :

- ما شأني أنا بهـذا كلـه ؟ مـاذا تريـدون ؟ لقـد قـال الخـادم أنكـم تريدونني.

- أجل. لقد جئنا لوالدك مرات.

- لماذا ؟

- لأننا أسرته.

نظر عارف حوله. تأكد أن لا أحد من الخدم يتابع ما يحدث :

- أنت تكذب. وإن لم تأخذ أسرتك وتمشي، سأجعلهم..

قاطعه آدم باستكانة :

- لماذا يا شيخ البلد ؟ لقد انتظرنا هذا اليوم طويلاً. لم نأتِ إليك إلا بعد أن أصبحت شيخًا للبلد.

- وماذا تريدون ؟

- ما كان يدفعه منصور عشرة لنا أول كل شهر.

- أكان يدفع لكم ؟

- أجل مع خادمه مسعود السقا.

نظر عارف حوله في عصبية. ثم أسرع إلى الداخل.

أمسك مسعود الذي كان يجلس في المطبخ مع زوجته ياسمين :

- قل لي، هل كان المساليب يأتون إلى هنا ؟

- أجل. وكان أبوك يدخلهم من الباب الخلفي.

أحكم قبضته على قفاه في عنف.

- وهل كنت تذهب إليهم بمبلغ شهري ؟

- أجل.

دفعه بعيدًا وعاد، اقترب آدم عثمان منه. كان عنيدًا رغم تظاهره بالضعف.

- نريد أن تأوينا في بيتك.

- أجننت ؟

- إننا أهلك. لن نمكث طويلاً. أيام قليلة حتى تجد لنا مأوى هنا في بسونة.

دفعه في عنف.

- مأوى ! أطرد الناس من بيوتهم لأسكنكم ؟

- لم أقل هذا. كل ما أريده، أرض النخل التي لا يسكنها أحد.

أمسكه من ملابسه الرثة في عصبية، وصاح :

- إن لم تخرج من هنا سأرميك أنت وهؤلاء.

- نحن تحت أمرك. فأنت ابننا. لقد كان منصور عشرة أخونا.

أحس عارف بالمطارق تدق رأسه في عنف. رمى آدم بعيدًا، وصاح:

- اذهب إلى الحجرة البعيدة، ونم أنت وهؤلاء.

ثم تركهم وسار ثانية إلى مسعود السقا، صاح فيه :

- جهز لهم الحجرة البعيدة.

* * *

أدخلهم مسعود الحجرة التي كان منصور يقابل فيها رجاله بعيدًا عن أسرته وخدمه.

جلست المرأة الطويلة -سارة- مع أطفالها. وانشغل آدم بفرش الأقمشة التي سينامون عليها. بينما ظلت آسيا واقفة كما هي، تتابع الأشياء حولها في دهشة ... وزوجها سويفي ترك ربابته بجانب الحائط، وأخذ يعد الأشياء ليناما

كانت سندس تنتظر عارف بثوب النوم الهفهاف العاري. لاشك أن هذه المناسبة تستحق أن تحتفل بها معه.

في ليلة زفافها اشتد المرض على منصور عشرة، فحال دون إتمام الزفاف. قضى عارف الليلة بجوار أبيه في انتظار الطبيب الذي سيأتي من سوهاج، بينما هي في حجرة من حجرات قصر أبيها تنتظره.

عاد عارف إليها، جسده يرتعش من الغضب. أمالت جسدها فوق الفراش وكشفت عن صدرها الأسمر وفخذيها. لكن الرجل خلع غطاء رأسه ورماه في عصبية. قالت وهي مازالت تتدلل :

– ما الذي يغضبك هكذا ؟

– لا شيء.

خلع قفطانه ووضعه بجانبه. حاول أن يبدو عاديًا حتى لا تثيره سندس بأسئلتها.

– هل صرفت المسنيب ؟

– لا. مازالوا في الحجرة البعيدة.

هبت فزعة :

– ماذا تقول ؟ مساليب في بيتنا ؟!

– أجل. أمسى عليهم الليل هنا. لم يجدوا مكانًا سوى بيتي.

- المساليب دائمًا يمسي عليهم الليل في بسونة وغيرها، فينامون في الخلاء. لم أرهم يدخلون دارًا وينامون فيها.

أحس أن سندس ستفسد كل شيء. ومن الممكن أن تقوم وتطردهم من الحجرة، لهذا حاول أن يصرفها عن هذا.

- دعك منهم الآن، حتى لا تفسدي الليلة.

هدأت عندما لامست يده جسدها. فالرجل منذ أن تزوجها وهو لا يهتم بها، يتعامل معها بآلية وملل. مازالت عروسًا في بداية زواجها، والرجل شارد، وطوال الوقت يفكر في كوكب.

لعنة تلعن المساليب وسنينهم. ما شأنها بهم. لقد أحست ليلة زفافها أنها فلتة من فلتات الزمن، وأن طاقة في ليلة القدر كانت مفتوحة لها. فاستجابت لدعائها، ونالت -هي- برغم جمالها المحدود، عارف أجمل شاب في بسونة.

لكن عارف هذه المرة كان أكثر فتورًا ومللاً من كل المرات التي تعامل معها فيها. فقد حاول أن ينسل بنفسه من تلك الورطة الجديدة لكي يعطيها بعض ما لديه. لكن ذلك كان صعبًا.

ماذا يريد المساليب منه ؟ لاشك أن الحاج رشوان قد أرسلهم ليفسدوا عليه فرحته بالمشيخة. أجل، لا يفعل هذا سواه.

لكن مسعود السقا -ذلك الملعون- يؤكد بأنهم جاءوا إلى البيت مرات. وكان يرسل إليهم مبلغًا شهريًا. ربما أبوه كان يعطف عليهم. لكن ذلك الخاطر لم يعجبه. فأبوه لم يكن كذلك أبدًا. لو أخبره قبل أن يموت عن أصله وفصله، والمكان الذي جاء منه، أو دله على أسرته، ما كان عاش هذه

الحيرة.

كل ذلك أبعده عن جسد سندس. فكادت المرأة تبكي من إهماله لها. ثم نامت بجواره كما هي. وهو يزفر في أسى. لقد أراد أن ينسى ضعفه وشروده الذي ورثه عن عائلة أمه "هنا"، ويكون شديدًا كأبيه. لكن هؤلاء المساليب جاءوا قبل أن يبدأ.

* * *

تململ آدم عثمان فوق فراشه الخشن. تنهد في أسى. زوجته سارة تغط في نومها. تتقلب من وقت لآخر. تصطدم يده بعجيزتها المرتفعة أمامه.

وسويفي وزوجته -آسيا- ينامان في ركن بعيد. لم تتعود يا آدم نوم الحجرات. اعتدت النوم في العراء، وتحت النخيل، وفي الطرقات.

يطاردك رجال الباشا خير الدين في سوهاج؛ لأنك وأهلك تملأون الشوارع النظيفة قذارة.

تهرب إلى القرى البعيدة والنجوع. سارة زوجتك ولدت كل أبناءك في العراء. قالوا هناك :

"مسلوب. سيفضحنا ويضع رأسنا في الطين".

طردوك من البلدة. تبرأوا منك. وفي كل بلدة تذهب إليها يحدث هذا أيضًا.

المسلوب ليس له أرض، ولا وطن.

سرت. قلت، وأنت تحني رأسك : "شيء لله يا سيدي"

أزاحوا رؤوسهم عنك. تباعدوا. طاردوا زوجتك. أرادوا أن يبيعوا لها إحسانهم.

تعودت مضاجعتها في العراء. جسدها العاري مـا عـاد يهـم أن يـراه الناس أو لا يرونه، فالفضاء الواسـع دارك. عيون الناس لا تهمك في شيء.

- سارة. سارة.

أجابته بغطيطها. جسدها ارتاح لملمس الأرض الصلبة تحتها...

البيوت تشترى بالمال. تحتاج لبناء وطوب. لكن العراء بلا ثمن. بلا إيجار.

حول وجهه إلى الناحية الأخرى. شد الغطاء حول جسده.

لقد اجتمع بهم شحاته والده. قال :

- لابد أن تنتهي تلك الرحلة الطويلة للمساليب. لابد أن يكون لهـم مقر يرتاحون فيه.

مات شحاتة قبل أن يتحقق هذا.

المساليب أغنياء. يخفون نقودهم الكثيرة بعيدًا عن أعين الناس.

سارة أجمل نساء المساليب. أرادوا خطفها منك. قالوا :

- حرام أن تذل العينان السوداوان، وأن تمتد الأيـدي الناعمة تسأل الناس إحسانًا.

داعبوا شعرها الأسود، قالوا لها :

- لم تخلقي لمسلوب مثله.

* * *

أنشد سويفي في ركن الحجرة البعيدة على ربابته. تصاعد الصـوت. امتـزج مع صوت نقيق الضفادع في المستنقع المجاور. فاحت رائحة الماء الآسن

هناك.

آسيا زوجته نامت. لم تهتم بغنائه. سارة زوجة أخيه آدم، تحتضن طفلاً من أطفالها وتغط في نومها، وآسيا لم تنجب لك طفلاً.

يقول المساليب: "إن المرأة التي لا تنجب لا تحب زوجها".

نقيق الضفادع يتوارى. عواء الذئاب خلف المقابر يتعالى.

نقر الغراب وجهه. حفره بمنقاره الأسود. عيناه كساهما الجدري بلون بشع مخيف.

آسيا زوجته تعشق أجساد الأغراب. وروائحهم تختارهم كما تشاء. فكيف يكون نصيبها ذلك الأعور المشوه ؟

نامت آسيا في أحضان الأغراب. ليس مهمًا مادامت زوجته، وستنام -آخر الليل- بجواره.

نم يا سويفي. فقد اقترب الصباح. والكل نائم. الضفادع في المستنقعات غادرت نقيقها. والذئاب ملت العواء. شاجروه. وأنت مازلت تنوح بربابتك.

كنت تنام في الخلاء. في الرطوبة. وجسد امرأتك يلمع في عيون الناس. تقول آسيا لك :

- إنهم يدفعون لك من أجل قبح وجهك.

بكيت لها :

- أنا فنان.

لا تهتم كثيرًا. مادامت تسمح لك -أحيانًا- بمضاجعتها. ووجهك المحفور بمنقار الغراب الأسود يلامس وجهها الأملس.

لا تطالبها بالمزيد. دعها للأغراب

أبو زيد قال : يا ابن الخال، معاييش

دي بلد أغـراب، وفلوس ما فـيــش

خد، آدي العباية، وآدي القميــص

إن جـابــوا حــق الغدا نبيعــوه

كفاك يا سويفي هراء. فقـد مـات أبـو زيـد. والزنـاتي مـات قبلـه. والصمت خير لك الآن.

أخوك آدم لا يعرف العزف على الربابة، لا يعرف الغناء، لكنـه خـير منك. زوجته سارة تحبه، لا تلعنه، تعمل مـن أجلـه ومـن أجـل أولاده. لكـن أنت، رغم عزف الربابة بمهارة، ورغم الغناء، لا شيء... كانوا يقولون عن آدم إنه أجمل مسلوب رأوه. تعشقه نساء المساليب. تسير معـه.. يتسـولان معًـا. قالوا عنك يومًا :

– جاء الأعور.

لم تبتئس لهـذا. ولم تبتسم لهم. شـد أحدهـم لـك مقعـدًا. حملـت ربابتك وغنيت :

يونس قام من النوم، قال

اللي يلبس قميص الخـال

أقطعـــه أربـع كــوام

ده أنا فرع من عقد شمه

يجيب مال الغراب وأبوه

أطلت يا سويفي. تأوهوا معك. قال أحدهم ساخرًا :

- آه لو كان وجهك مثل صوتك.

بلعت المرارة، اختزنت الألم، رشفت معهم الشاي الأسود المر.

قفزوا من المقاعد إعجابًا. لكن رغم هذا، طردوك. بعد أن ملوا غناءك. قالوا :

- أغرب عنا. أنت عريت البلد بربابتك، وزوجتك العاهرة.

وأرسل أخوك آدم أحد المساليب لأن تلتاه في بسوتة، قال:

- آن الأوان لتستقر من الطواف.

- ٩ -

لم ينم عارف ليلته هذه ...

عندما سمع مسعود السقا يستعد للخروج لصلاة الفجر، رمى الغطاء من فوقه وخرج.

رآه مسعود يفتح الحجرة البعيدة.

دفع آدم بساقه :

- أنت أيها المسلوب.

استيقظ آدم. هب فزعًا :

- لماذا لم تطلب من منصور عشرة أرض النخل، مادام هو مسلوب مثلكم، كما تدعي ؟

كان آدم يداعب عينيه. استيقظ سويفي؛ تابع ما يحدث وهو مستلق في مكانه. - إننا نشكل لك مشكلة. أليس كذلك ؟

- دعك من المشاكل الآن، وأجب على سؤالي.

- لأنه لم يستطع أن يمتنع عن الخطيئة.

- وما صلة هذا بموضوعنا ؟

استيقظت سارة أيضًا. خشيت أن يصيب زوجها مكروه، فجلست فوق الأرض خلفه.

– عندما أرسلنا منصور عشرة إلى بسونة، كنا نعلم أنه ضعيف أمام النساء، لكنه أكد لنا أن واجبه أقوى من رغباته.

شده عارف من ملابسه :

– كفاك لفًا ودورانًا، وقل لي لماذا لم تطلب منه هو هذا ؟

– لأننا نعلم أن فعلته مع زوجة ابنه حالت بينه وبين العمودية.. وما نريده لا يقدر عليه سوى عمدة على الأقل.

– لكنني شيخ بلد مازلت.

– ستكون عمدة في القريب.

– ألا يمكن أن يحدث لي ما حدث لمنصور عشرة ؟

– لا. إننا نعرفك جيدًا. ولن نخطئ خطأنا مع منصور.

دفعه عارف وخرج من الحجرة غاضبًا، فحديث المسلوب زاده يقينًا من أن منصور عشرة فعلاً كان مسلوبًا.

* * *

تصاعد في الحديقة صوت ملتوت، مصحوب بأصوات خارقة تؤازره. كفت سندس عما تفعله. نظرت إلى ياسمين في دهشة. قالت ياسمين:

– المساليب.

– ابق كما أنت. فالمساليب يعودون مساء.

سارتا إلى الحديقة. شاهدتا رجلاً وامرأة وفتاة. لم يتضح لهما –من بعيد– سوى أسمالهم البالية.

قالت ياسمين :

- إنهم مساليب آخرون.

يمسك الرجل بقردة وينظر بعيدًا. وبهانة زوجته قصيرة ممتلئة قليلاً، في وجهها ملاحة، كثيرة الضحك، منذ أن دخلت الحديقة وهي تضحك، حتى عندما رأت ياسمين تضحك من زوجها قناوي الطويل،والذي يرتدي ثوبًا قصيرًا يكشف عن شعر ساقيه.ضحكت معها، فقد كانت وقفته تثير الضحك حقًا.

روايح شديدة الشبه بأمها. ليس بها شيء من أبيها.

رددت بهانة، لكي تنهي الوقفة الصامتة من صاحبة البيت، ولكي تكف المرأة الأخرى عن الضحك :

- عمار يا بيت الوسية.

صاحت سندس غاضبة :

- لا عمار ولا خراب، ماذا تريدون ؟

- نريد آدم عثمان.

- لا نعرفه. هذا بيت عارف شيخ البلد.

- أجل، قالوا إننا سنجده هنا.

أرسل آدم إلى كل المساليب لأن يأتوا إليه في بسونة، فهي جنة عذراء، بكر، بها أنهار المسلى والعسل، وغيطان الحنطة، والتين والزيتون. أرض بلا ناس، وأشياء ثمينة ملقاة في الطريق بلا ثمن.

تحركت ياسمين التي تتصرف بطريقة لا تناسب سنها. أرادت أن تلمس القردة، ولكنها زامت، أرادت أن تقفز قريبًا منها، فضربها قناوي بعصاه الطويلة.

لم تغضب بهانة من حديث سندس. بل ضحكت وقالت :

– لماذا يا صبية. إننا على باب الله.

كانت بهانة تضحك إذا ما رأت قناوي يدخل إليها في الخيش المشدود في أي أرض. فيثور ويجري خلفها. يشد شعرها وتضحك هي.

دار القرد حول قناوي. فشد السلسلة المعقودة به.

ياسمين مازالت تضحك، وبهانة كذلك. سندس تكاد تبكي من الغيظ. ما الذي حدث لزوجها. هل جن ؟

أربعة مساليب غير الأطفال، يدخلون ويخرجون من بيت منصور عشرة، الذي كان الفلاحون يخافون دخوله. ثم يأتي بثلاثة آخرين، ومعهم قرد أيضًا.

بكت. لو أصر عارف على بقائهم، ستترك له البيت، وتذهب إلى أبيها هارون كما كانت. ويعيش هو معهم كما يشاء.

قالت بهانة :

– لا تغضبي. اسمحي لنا بانتظار آدم عثمان في الحديقة.

صرخت بهم :

– اذهبوا إلى هناك.

ساروا ثلاثتهم. والقردة تسبق قناوي.

قال قناوي لبهانة :

– أين ذلك الذي وعدنا به آدم عثمان ؟

لم تجبه. و لم تضحك هذه المرة. قالت روايح :

– أريد أن أعود إلى أمي. إنني غير مرتاحة في هذا البيت.

– الرسول الذي أرسله آدم لنا قال إنه يعيش في بيت شيخ البلد.

لم يفردوا قماشهم كالعادة. جلسوا متوارين خلف أشجار الحديقة.

شردت بهانة. هي التي ألحت في الحضور. تحس بأنها لم تخلق للسير في البلاد، والنوم في الطرقات. لذلك فرحت عندما قالوا إن آدم قد نجح أخيرًا في إيجاد بيت يعيشون فيه.

لكن، في سيرها إلى بسونة، لم تجد سوى التمر العفن، الملقى في أرض النخل الممتدة.

جلس قناوي رافعًا ركبتيه الطويلتين لأعلى. قردته مازالت في يده. قال لنفسه :

"ربما يخفي آدم أنهار المسلى والعسل في مكان لا نعرفه الآن".

كان قناوي شديد الشبه بقردته. أول من اكتشف هذا، بهانة زوجته، قالت له ذلك منذ سنوات طوال. وأكد بعض المساليب قولها.

لقد ضحكت ياسمين منه طويلاً. تذكر بهانة زوجته، فهي تضحك كثيرًا، حتى في أشد المواقف إيلامًا.

جاد ابنه قال :

– لن أذهب معكم. لا أعرف بسونة، ولن أكف عن الترحال مع بقية المساليب.

هو الآن شاب يجيد الانتقال. لم تهاجمه الشيخوخة بأمراضها. لكن – أنت يا قناوي– تريد أن تجد لك مقرًا مستقرًا ترتاح فيه.

خذلك آدم بوعوده. يريد أن يجد لكم وطنًا. كل المساليب سخروا منه. قالوا : "المساليب منذ أن ولدوا وهم يدورون. ولا يكفون عن الدوران. ليس لهم وطن. ليس لهم سوى القبور".

وأكدت هذه المرأة -صاحبة البيت- ذلك، بثورتها عليهم وسخريتها منهم.

ياسمين تنظر مع بقية الخدم من النوافذ. مازالت تضحك. تحس أن عارف لو جاء لن يسكت على وجود قردة في بيته. المساليب، وقلنا فقراء وفي حاجة إلى إحسان. فماذا سيفعل بالقردة؟!

جاء مسعود مسرعًا :

- لقد عاد آدم عثمان. ومعه مساليب آخرون.

صرخت المرأة :

- مساليب غير أسرته. وغير الذين ينتظرونه في الحديقة ؟

- أجل مسلوب ومسلوبة آخران.

أسرعت سندس. أمسكتها ياسمين.

- انتظري حتى يعود الشيخ عارف.

- عارف لن يفعل شيئًا. كأن المساليب قد سحروا له.

وقف قناوي وقردته معه. وبهانة أسرعت إلى المسلوبين الجدد. تعرفهما -هي- جيدًا. صاحت :

- آمنة. هل جئتما بعد أن مناكما آدم عثمان ؟

- أجل. لقد أصر أن نأتي معه إلى البيت.

- لقد طردتنا صاحبة البيت.

أسرع آدم إليها :

- طردتكم ؟ حسنًا.

صاحت بهانة فزعة :

- سعدت لطردنا ؟

- أجل. لن نعيش في بيتهم ثانية. سنذهب إلى أرض النخل، لنعيش هناك إلى الأبد. لن يطردنا أحد.

وقفت سندس :

- أيها المسلوب.

صاح آدم مبتسمًا. إنه فرح -الآن- ولن يستطيع أي شيء أن يغضبه :

- أعلم ما تريدين. سآخذ المساليب كلهم وأرحل من بيتك. لا تغضبي.

لم تجبه. فقد كان يجمع أشياءه للرحيل.

* * *

لأرض النخل موقع مقدس لدى أهالي بسونة. فهي لا تصلح للزراعة، ولا للإقامة. ليس بها سوى النخل. فأصحابها الأولون (أجداد أهالي بسونة) لم يستطيعوا بيعها. فمن سيشتري أرضًا لا تأتي تمرًا، ولا تصلح سكنًا؟!

ثم توارثتها الأجيال بعد ذلك. وامتنعت عن بيعها. لا لأنها لا تصلح للزراعة والإقامة فقط، بل لأنهم توارثوها -أيضًا- عن أجدادهم الأقدمين.

* * *

يمر الحشد في الشارع الطويل الذي يضم معظم بيوت بسونة. والناس تقف على الجانبين. تنظر إلى المساليب وهم يسيرون في طريقهم إلى

أرض النخل (سكنهم الجديد).

أولاد بسونة يشدون الأشياء من أيدي أولاد المساليب. والأولاد يجرون في فزع. ويلتصقون بأجساد ذويهم. وآدم عثمان ينادي سعيدًا :

– أسرعوا. أسرعوا.

ينظر خلفه من وقت لآخر ليطمئن عليهم. يتأكد من أن أحدهم لم يهرب منه. والفرحة التي لا يستطيع أن يخفيها في صدره.

خيش المساليب سيملأ الرحب. كم خيشة ؟ أخذ يعد على أصابعه، وهو سائر: خيشة له، ولأخيه سويفي، وقناوي، وأخرى لمهدي. أربعة حتى الآن، والبقية تأتي. لن يكف عن الإلحاح في طلبهم. سيدفع عمره ثمنًا لتلك الرحلات، حتى يطمئن والده عثمان في قبره. فلولا نزق منصور عشرة وطيشه، لتحقق لهم هذا في حياة عثمان.

نساء بسونة يتابعن نساء المساليب في دهشة. كلهن يخفين وجوههن، إلا آسيا؛ فهي تسير بلا خمار، مشدودة القامة، تنظر إلى الرجال والنسوة في عناد وإصرار.

زوجها سويفي يدور في البلاد. يسهر في الأفراح والموالد للصباح. هي لا تريد أن تتبعه أبدًا. المسلوبة الوحيدة التي لا تعمل شيئًا؛ سوى الاهتمام بجسدها ومتابعة الأغراب.

تضحك نسوة بسونة. يتغامزن. يأتين من بيوتهن مسرعات. يتعالى ضحكهن.

وقف المساليب في أرض النخل. وضعوا أشياءهم. نظروا جميعًا ناحية آدم، رئيسهم. ليس جديدًا عليهم إقامة الخيش في العراء، وفي الأماكن

التي يرتاحون فيها، ليستأنفوا الرحلة من جديد، أو بعد نهاية الموالد. لكن هذه المرة سيعيشون هنا إلى الأبد.

قالت آسيا لبهانة التي تراها لأول مرة :

– ما الجديد فيما يفعله آدم عثمان. إننا نعيش في الخيش منذ أن ولدنا.

مطت بهانة شفتيها وسكتت، فهي متعبة. الطريق طويل من البلدة التي أتت منها. ولم ترتح للآن.

ستدخل خيشتها بعد أن تشد الخيمة وتنام. وفي الغد يفعل الله ما يريد.

يدور آدم وسط الخيش فرحًا :

– بارك الله خطاكم. شدوا الخيش وأقيموا الأكواخ. ستكون هذه الأرض نهاية المطاف لنا. ستودعون السفر والترحال. تركنا لهم بيوتهم. لا نريد بيوتًا من أحد. لكن تلك أرض الله. ملك الله. ملكنا نحن.

اقتربت سارة من آدم، وأمسكت طرف الخيش، وأولادها أمسكوا الطرف الآخر. ودق آدم الأوتاد.

وبهانة تصرخ في زوجها قناوي :

– يا رجل. اترك القردة الآن وتعال لتشد الخيش معي.

تشاجرا معًا. وضحكت بهانة بعد ذلك، فازداد هو غيظًا.

وجلست روايح –ابنتهما– لتفرز الأشياء التي أتوا بها..

أما آمنة، فهي طراز متكامل للمساليب. ملابسها بالية ووجهها متجهم. لا تتحدث إلا لمامًا. وزوجها مهدي كأنه مخلوق من نوع آخر من

البشر؛ لا يتحدث إلا إذا حدثه أحد، حتى مع زوجته.

ينظر كل منهما إلى الآخر، فيعرف الآخر ما يريد صاحبه.

شدت آمنة ابنتها الصغيرة في جانبها. وبيدها الأخرى أمسكت طرف الخيش، ودق مهدي الأوتاد.

وآسيا وقفت وحيدة.

وحيدة هي دائمًا. فسويفي -ذلك الدميم- لا يستطيع أن يترك ربابته يومًا، يخاف أن تنسى أصابعه العزف عليها. وحيدة حتى لو نام سويفي بجوارها.

ملعونة بسونة هذه. فهي فارغة من كل شيء. قبل أن تأتي إلى هنا، كانت تنام في كل يوم ببلدة جديدة، وفي كل بلدة تنام في أحضان شاب جديد، ليس مسلوبًا، فهي لا تحب المساليب.

الانحناء والتذلل من أجل قروش زهيدة، لا يناسبها.

لعبة سقيمة لا تجيدها. هؤلاء النسوة -سارة وآمنة وبهانة- اعتدن عليها، قنعن بأزواجهن المساليب.

همست سارة في أذن آدم. نظر ناحية آسيا. قال مناديًا من خيشته التي كادت تشد :

- سآتي إليك بعد أن أفرغ من هذه.

ملت آسيا الحياة معهم. هي ذات الوجه الأبيض والعينان اللامعتان والجسد النحيل المشوق الذي يترنح في خيلاء. مالها بهم؟ أحلامها بعيدة. أبعد من جريد النخل العالي في بسونة.

زوجها سويفي القبيح ذو العينين البيضاوتين اللتين لا يرى بهما

لخطوات قليلة أمامه. صفقة جد خاسرة. لامس وجهها وجهه. شعرت بخشونة الوجه المشوه. تلذذ الرجال بها قبل الزواج. تأوهوا عندما رأوا جسدها العاري.

لم تكن تفعل هذا رغبة في المال، مثل العديد من المسلوبات. لا. فهي تعشق من تريد. وتعطيه دون مقابل. لو كانت تملك مالاً لأعطته لمن تريد.

ضربها أهلها. شدت جسدها كالثعبان عندما يخرج من جلده (هكذا هي منذ الصغر) تتلوى كالثعبان. حملوها فوق حمار أجرب. دهنو وجهها بالدقيق. وطافوا بها البلدة. لم تهب شيئًا. هربت منهم. دارت في الموالد. لم تكن تجيد الرقص ولا الغناء. لكنها تعرف كيف تتصيد الأغراب.. لا تريد سوى أن يطعموها إذا جاعت.

رآها آدم عثمان ذات يوم في قهوة. تتحرك لتغوي شابًا هوته. سار خلفها. عرض عليها عرضه هذا.. وضاعت أحلامها بعد ذلك معه ومع أخيه سويفي. ماذا تفعل، وفي أيامها الأخيرة لم تكن تجد الطعام. اشترطت عليهما ألا تفعل شيئًا. لا تتسول ولا ترقص في الموالد.

غنى سويفي له يوم عرسها :

يا أبو القلـيب ريحتك ترد الروح

صوته حسن، لكنها لا تعشق الأصوات.

داعبت أصابعه ربابته السوداء، التي تكرهها. قال :

– سأعطيك ما تشائين. لن أدعك تدورين للتسول مع باقي المساليب.

رغم هذا نامت. ولم تسمع غناءه.

- ١٠ -

تساءل الناس في المراغة -والقرى المجاورة- عن المساليب الذين كثروا هذه الأيام. يدخلون الأسواق جماعات، فوجودهم الدائم في بسونة. جعلهم لا يذهبون إلا إلى الأسواق القريبة.

وبدأت جماعات من أهالي بسونة، خاصة الأطفال، يذهبون إلى النخل، ليشاهدوا حيواناتهم التي يسرحون بها في القرى المجاورة.

آثار ذلك هارون. فقال لابن أخته عارف :

- ألم تلحظ تزايد المساليب في بسونة هذه الأيام ؟

- أجل لاحظت. ربما يجتمعون في أرض النخل للسفر إلى مولد قريب.

قال هارون في دهشة :

- ربما.

فالموالد القريبة معروف مواعيدها. ولم يحن بعد موعد واحد منها. كما أنهم لا يجتمعون بهذه الكثرة حتى في أيام الموالد.

أحس عارف بالقلق من قول خاله. فقد يصل الخبر إلى الحاج رشوان الذي لا يحب عارف، ويود لو أزاحه عن طريقه بأسرع وقت. فيشكو للباشا خير الدين، والباشا لا يرحم.

ذهب عارف إلى أرض النخل. وجد بين كل نخلتين خيشة مشدودة. والمساليب يجلسون في الشمس... وآسيا وحدها فوق قطعة حجر بيضاء بجانب الترعة، تكشف عن ساقيها، وتداعب الأرض بعصا رفيعة.

قال عارف لنفسه :

– ليتني لم أسعَ إلى المشيخة. ظننت أنني سأمحو عار منصور عشرة، فإذا العار يطاردني في كل وقت.

أراد أن يثور ويهد الخيش على من فيه. لكنه تذكر آدم عثمان، وحكايته الغريبة عن منصور عشرة. فعاد إلى داره غضبًا.

* * *

شاعت في المراغة حكاية المساليب الذين يملأون أرض النخيل في بسونة. البعض قال إن عارف يعرف الله وليس ظالمًا كأبيه. والبعض أحس بالضيق من وجودهم، فهم يلحون في الطلب، خاصة أيام جني المحصول. يأخذون حفنات القمح والذرة، هم وزوجاتهم وأولادهم.

وجاء رزق يومًا، همس في أذن العمدة، حيث إن بعض الرجال كانوا في حضرته :

– شيخ البلد يسمح للمساليب بالعيش في بسونة.

لم يهتم العمدة بالناس. فقد آثاره ما سمع. صاح غاضبًا :

– كيف هذا ؟

مادام العمدة سمح بإعلان الخبر أمام الموجودين، فلا بأس من أن يقول ما يريد بصوت مرتفع :

– مساليب كثيرون ينامون في أرض النخل. ويهجمون من هناك

كالجراد على كل النجوع التابعة لعموديتك، في قصاص والمراغة على السواء.

- أجل لاحظت هذا.

قال أحد الحاضرين :

- اسأل الشيخ عارف، ربما لديه ما يقوله.

صاح العمدة غاضبًا في هذا الذي أقحم نفسه وتكلم.

- ما الذي سيقوله، وكل شيء واضح. عارف يريد أن يفسد عموديتي. ويلوث اسمي لدى الباشا خير الدين.

أكد رزق على قوله :

- أجل يا عمدة. إنه يقصد هذا.

- والعمل ؟!

صاح رجل آخر :

- استدعه يا عمدة، وعنفه.

لم يجبه. فهو لا يفهم شيئًا. فالعمدة لا يستطيع أن يغضبه. فعارف معين من قبل الباشا، الذي رفض رشوته الكبيرة لتعيين رزق قريبه.

معنى هذا أن الباشا يريده هو بالذات لهذا المنصب. كما أن جد عارف -الوجيه الأمثل- قبل أن يموت، جعل لأسرته اسمًا وهيبة. يكفي أنه جعل الباشا نفسه يزوره في بيته. لم يفعل الباشا ما فعله مع أي من الناس. لا في المراغة ولا في قصاص. كان يأتي إلى المراغة لزيارة قسم الشرطة، ثم يرحل بموكبه في اليوم نفسه.

قال رزق -الذي كان يفهم العمدة جيدًا- :

-أرى أن ترسل إلى هارون خاله، فهو صديقه وله تأثير شديد عليه.

– أجل. أجل. هذا هو الرأي الصواب.

* * *

جاء هارون إلى المراغة. أحسن العمدة استقباله. وسأله عن المساليب. قال هارون :

– قوم فقراء. أرادوا العيش في أمان، فسمح لهم عارف بذلك.

– كان لابد أن يأخذ الإذن مني.

– إرضاء الله ليس في حاجة لإذن من أحد.

ضاق العمدة به. وأحس رزق أن الأمور ستتعقد بينهما. وهارون مهابًا لدى بسونة، ولدى سكان النجوع الأخرى. صاح العمدة غاضبًا :

– ابن أختك يريد أن يفسد عموديتي بمساليبه. يريد أن يجعلني مسخة بين العمد الآخرين. فإذا ما قابلوني صاحوا بي مستهزئين : "ها هو عمدة المساليب".

وقف هارون في ضيق. قال رزق مهدئًا :

– تفضل بالجلوس يا شيخ هارون.

أسرع العمدة بعد أن أحس بأنه سيفسد كل شيء :

– لا تؤاخذني يا شيخ هارون. فمشكلة المساليب جعلتني في حالة لا يدري بها إلا الله. وكل ما أريده أن تحدث ابن أختك. فقد يسيء هذا إليه أيضًا. فهو شيخ البلد.

– سأحدثه يا عمدة.

* * *

سارت آسيا ناحية الترعة. ترتدي ثوبًا نظيفًا. فهي تهتم بردائها.

حتى تبدو في صورة تغري الأغراب. شمس بسونة دافئة. سارت في محاذاة الترعة. رفعت ثوبها. مرت فوق "الجزجة" التي تفصل بسونة عن المراغة في منطقة تضيق فيها الترعة.

رفعت ثوبها وجلست. ثوبها التصق بالجزجة المبتلة.

قميصها الداخلي المتدلي وصل إلى الماء، فابتل...

شعرت بلذة وهي تداعب الماء بساقيها. الماء دافئ كشمسهم.

وقفت ثانية. ثم سارت فوق الجزجة. عادت إلى الجسر الممتد بجوار الترعة. ليس هناك أحد. أهل بسونة يخافون الشمس. فيتوارون بعيدًا خلف الأشجار الضخمة، ليتظللوا بها. أو داخل بيوتهم.

خلعت ثوبها مسرعة، وتركته فوق الجسر. ونزلت الترعة بقميصها الهفهاف، والممزق من أعلى الكتف.. والذي يظهر جسدها الشديد البياض.

سبحت في الترعة (كانت تفعل هذا في ترعة بلدتها. وتتلذذ لرؤية الرجال وهم يتابعونها في إعجاب). بلدتها بعيدة. لا تعرف لها الآن طريقًا. لو كانت تعرف لغادرت المساليب وعادت.

لو سبحت في الترعة طويلاً، ستصل يومًا إليها. أجل. ففي بلدتها ترعة مشابهة لهذه.

ليتها تفعل وتصل. تريد أن ترى البلدة من بعيد. تنظر إلى الرجال الذين عاشرتهم. وإلى الشباب الذي كان يلتف حولها. لعلهم -الآن- قد تزوجوا. ويحكون حكايتها لزوجاتهم في الليل.

جاء صابر بن عبد الوهاب البقال من ناحية بسونة. وقف فوق الجسر كالمأخوذ. فهو لم يتعود رؤية امرأة تسبح في الترعة هكذا.

أخذ يدور حولها في حيرة. أسرع وهو يدور. لعلها عروس البحر. أجل. لاشك إنها هي. فقد خطفت في العام الماضي ولد بدراوي وهو يستحم. يقولون إنها تزوجته في القاع.

رفعت آسيا ذراعيها العاريتين وضحكت.

لكن عروس البحر عندما خطفته، كان الوقت مساء.

جرى صابر. عاد ومعه حنفي بن فهمي العجل.

بعض الرجال من ناحية المراغة اكتشفوا وجودها، فجاءوا مسرعين، ليشاهدوها.

امتلأ الجسر بالرجال. قال حنفي :

- إنها مسلوبة من مساليب الشيخ عارف.

قال صابر :

المساليب حسان. ملابسهم المتسخة الرثة تخفي حسنهم عنا.

رماها رجل من ناحية المراغة بحجر. جاء بجانبها، فأثار المياه حولها.

نظرت إليه ثم غطست في الماء في تحد.

وقف صابر وحنفي أمام ثوبها الملقى.

خرجت من الماء. التصق الثوب بجسدها المبتل. فبدت أكثر إثارة. انحنت لتحمل الثوب. أحاطا بها. نظرت إليهما في تحد. قال صابر:

- لو ارتديت ثوبك مبتلاً ستبردين.

قال حنفي :

- بل هو يريدك أن تبقى هكذا. أطول مدة ممكنة.

قبل أن تمسك الثوب، أخذه حنفي وسار بعيدًا. لكن صابر أخذه، وأعاده إليها.

نظرت إليه هو الآخر في استخفاف. رغم أنها وجدت فيه شبهًا بالأغراب الذين كانت تقابلهم في بلدتها.

سارت أمامهما بلا خوف. وكأنهما يحلمان.

ارتدت الثوب وهي تركع على ركبتيها، لتخفي ساقيها عنهما. ثم سارت بعد ذلك.

* * *

لم يعد في البلد واحد لا يعرف حكاية المسلوبة التي نزلت الترعة عارية. حتى النساء في البيوت رددن هذا في دهشة وتقزز.

عاد صابر وحنفي يحكيان ما رأياه. والآخرون يسمعون في دهشة. قال أحدهم :

– تريانها عارية وتتركانها تخرج. لو كانت معي لأخذتها عنوة، وفعلت بها ما شئت.

وصاح البعض في غضب :

– ولماذا لم تذهبا إلى الشيخ عارف، لتقولا له عما حدث؟ أليس هو الذي أواهم في بيته ؟

– أجل. لقد دنسوا البلد. الترعة الطاهرة التي تعطينا الخير. دنستها بفعلتها هذه.

والباقي لعب به الخيال ما شاء. أخذ يحلم بأنه قد رآها تستحم، فنزل إليها في الماء، وجردها من ملابسها وضمها إليه.

* * *

اجتمع الرجال في قهوة زايد. فهمي العجل وولديه عقل وحنفي. وعبد الوهاب البقال، الذي أرسل إلى زوجته لتبقى في الدكان إلى أن يعود. فقد أصر ابنه أن يحضر الاجتماع معه. وبعض الرجال الآخرين، كانوا جميعًا غاضبين.

قال عقل، وهو يصلي الوقت في وقته، على عكس أخيه الأصغر حنفي :

– إن الجزيرة التي تربطنا بالمراغة، فوق الترعة، من الممكن أن تكسر فجأة. من تأثير استحمام هذه الزانية.

قال عبد الوهاب :

– من رأيي أن نذهب جميعًا إلى أرض النخل. ونطردهم، نرمي لهم الأشياء في الطريق.

قال فهمي العجل :

– نذهب في الأول إلى عارف، ونعرف رأيه.

صاح ابنه عقل :

– عارف مكّنهم من البلد. ولن يفرط فيهم.

صاح زايد –صاحب القهوة– الذي كان يقف بجوار الباب:

– بل تذهبونَ إلى خاله هارون، وتشكونه له.

صاحوا جميعًا :

– أجل. هذا هو الرأي السليم.

ساروا جميعًا في طريقهم إلى قصر الوجيه الأمثل، لمقابلة هارون. كان عبد الوهاب البقال أكثرهم تشددًا. ويليه عقل بن فهمي العجل. بينما شقيقه

حنفي شارد. يريدهم ألا يذهبوا. فقد يحدث ما قاله عبد الوهاب. وتهجم البلدة على أرض النخل، وتطرد المساليب، فيحرم هو من رؤية النساء الجميلات. ليته لم يقل لأحد عما حدث، فحتمًا كانت المسلوبة ستفعلها ثانية وثالثة، ستنزل الترعة، فيراها ويرى جسدها العاري.

وصابر، يتابع ما يحدث في صمت. هو يصلي، ويرفض أن يعصى الله؛ لكن جسد المرأة المسلوبة عالق بذهنه لم يزل، فهو يرى الجسد العاري لأول مرة في حياته.

كان يرتعد عندما تلمس أجساد نساء البلدة جسده. وهن يشترين منه السكر والشاي والجاز في دكان أبيه. فما باله وهو يرى جسد امرأة جميلة عاريًا.

دخلوا جميعًا بهو القصر الكبير المجاور للحديقة. دخل هارون عليهم في كامل زينته، العباءة والنظارة. هكذا هو منذ أن عرفوه، لا يقابل رجال البلدة إلا بعد أن تكتمل زينته، ويتعطر.

قال عبد الوهاب البقال في حدة :

– سمعت عما فعلته المسلوبة في الترعة ؟

– سمعت.

– وماذا ترى ؟

يعلم هارون أنهم يعاتبونه بهذه الكلمات لتصرفات ابن أخته، وتخاذله في طرد المساليب.

– الذي من الله يكون.

– والشيخ عارف، ماذا يقول ؟

- وماذا سيقول ؟

- أليس هو الذي جاء بهم إلى البلدة.

قال هارون :

- اهدؤا يا سادة. فعارف ذهب وقابل آدم عثمان -رئيسهم- وقال له : "نحن صعايدة ولا نسمح بما حدث".

قال فهمي العجل في تلعثم :

- لقد قلت لهم هذا يا شيخ هارون.

صاح هارون :

- اطمئنوا يا رجال. فعارف حريص على البلد أكثر منكم.

عادوا ثانية، ومازالوا يتحدثون.

كان عقل يعاتب والده؛ لأنه لم يكن قويًا في حديثه مع الشيخ هارون.

قال عبد الوهاب البقال :

- لابد أن نبعد المساليب عن بلدنا. فهم يملأون الأرض بحشراتهم. وستفسد نساؤهم نساءنا وبناتنا بأفعالهن.

- ١١ -

شتاء الصعيد في الصباح قارس... عواصف تهب، تترنح لها الأجساد. والأطراف حمراء، ترتعش.

مسعود السقا قصير، لا تصل قامته (حتى لو اشرأب) إلى طول طفل في العاشرة.

حمل مقعده الخشبي الصغير، الذي يقضي عليه معظم ساعات فراغه، وصعد فوقه. جمع بعض ربطات حطب من فوق السطح، ليشعل بها النار، ليتدفأ.

ساعات الصباح أقسى ساعات يمر بها مسعود. أطرافه لم تعد تحتمل.

عليه أن يسرع هو وزوجته ياسمين إلى بيت عارف، يساعد سندس في العمل.

لقد سمح له منصور أن يبني هذا البيت في أرضه، بل دفع ثمن الطوب، وثمن الجريد الذي يتخذ سقفًا للبيت. وباشر بنفسه العمل فيه. كان يقول لمسعود :

- هذا من أجل ياسمين وليس من أجلك.

فيغمغم بكلمات غير مفهومة.

بعد أن غرقت شوق الغازية في الريَّاح، انتقلت ياسمين للعيش في بيت منصور، وكان ينام هو مع أطفاله الصغار في بيته هذا.

عندما رآها تجمع ملابسها، قال :

- إلى أين يا ياسمين ؟

صاحت فيه :

- سأنام في حجرة شوق الغازية. الرجل في حاجة إليَّ، بعد أن أصبح وحده في البيت.

وصمت مسعود، فهو لا يقدر عليها، جسدها كبير وقوي. وهو، الله أعلم بحاله.

كان يحمل القربة منذ سنوات طوال، ويملأ أزيرة الناس في بسونة. فبدأت الطلمبات تدخل بيوت الأغنياء... والفقراء ليس لديهم نقود يدفعونها له. زوجاتهم وأطفالهم ينقلون الماء من البحر الكبير، والترعة.

قَل دخله، وياسمين لا تهتم سوى بزينتها. تضحك مع الرجال في صوت مرتفع. يسألونها :

- كيف تتزوجين هذا القصير، وأنت في هذا الجمال ؟

فتسب أهلها جميعًا؛ لأنهم زوجوها من هذا القرد.

عرض عليه منصور عشرة أن يترك "القربة"، ويعمل عنده، يحمل "القصبة" التي يقيس بها أرض الناس، ويكون خادمه الخاص. أراد مسعود أن يرفض هذا؛ لكنه خاف من منصور الذي كان يُرهب البلدة كلها. كما أن ياسمين تحمست للفكرة، وأصرت بأن يعمل لدى منصور عشرة.

اكتشف مسعود -بعد ذلك- أن المرأة تجلس كثيرًا مع منصور

عشرة، وأن زوجته -هَنا- تغار منها. وتتمنى طردها وطرده. ثم تأكد من أنها على علاقة به. أراد أن يشعل البيت كله على من فيه. لكنه عجز عن الحركة. بكى. ثم أسرع إلى الشيخ هارون. حكى له عما حدث. طمأنه الرجل. وأخذه معه إلى المسجد. من يومها ومسعود يصلي الوقت في وقته. يصحو قبل الفجر، يوقظ الناس، مناديًا للصلاة، يفتح المسجد ويظل فيه حتى الصباح.

* * *

مد مسعود يديه المعروقتين أمام النار الموقدة. أتته زوجته ياسمين بقامتها المديدة العملاقة :

- ستحرق البيت يومًا، بسبب النار التي تتدفأ بها دومًا.

يغمغم مسعود ولا يجيبها. تأتي بماء وترش النار، فتطفئها.

إنه يكرهها ويخافها. كما كان يكره منصور عشرة ويخافه.

عندما وقع الرجل يوم زفاف ابنه عارف، وأخذ يشخر، جرت ياسمين لتأتي بالرجال لحمله. وظل جسد منصور ملقى تحت رجليه. أراد أن يدق رأسه حتى يقتله، أو على الأقل يخلع حذاءه ويضربه فوق رأسه الكبير؛ لكنه خاف أيضًا.

قالت ياسمين :

- أسرع بالذهاب إلى بيت الشيخ عارف؛ وسأتبعك بعد قليل.

غمغم مسعود، وهو يستعد للذهاب. فعارف يدفعه لأقل شيء، ويصيح فيه دائمًا.

إنه يرتاح في المسجد. لو يستطيع لبقي داخله إلى أن يموت. ليرتاح

من ياسمين. ومن عائلة منصور عشرة التي لا تريد أن تتركه لحاله.

* * *

أيام "الزرابي" أيام خير في بسونة. فتخرج الأسر بمواشيها إلى الأرض الزراعية، يحشون البرسيم من قطعة أرض تكفي لإقامتهم كلهم، ثم ترعى باقي المواشي في الأرض الأخرى. ومعها مواشي الذين حشوا أرضهم: واتخذت مقامًا للجميع.

تلد إناث المواشي، فيصنعون السمن والزبد.

يجلس الرجال في ليالي الزرابي، يسهرون مع الشاي الأسود، وقوالح الذرة الجافة المشتعلة فوق الجوزة. يدخنون، ويحكون عن المساليب الذين كثروا هذه الأيام. وعن المسلوبة التي سبحت في الترعة عارية كالترموط. فهمي العجل -ملك هذه الجلسات- يشد شاربه الأسود كوجهه، يحكي لهم عن أيام المطاريد، كيف سرق مائة بقرة في مرة واحدة من زريبة مواشي الباشا خير الدين، وقتل بعض الرجال الذين كانوا يحرسونها.

والرجال الطيبون -الذين يخافون المرور أمام مركز الشرطة- يعجبون لما يقول. فهم يرتعدون إذا ما مر جنود المركز في السوق.

يبتسم البعض وفهمي يحكي. فهو مشهور في المراغة كلها بحبه للحديث. يذكرون يوم أن ركبوا البحر، هارون وعارف وعبد الوهاب وفهمي العجل، وبعض الرجال الآخرين، كانوا في سفر لشرق البلاد، يعزون في رجل كبير مات هناك.

وتحدث فهمي طوال الوقت. وهارون لا يحب كثرة الحديث. اعتاد الجلسة الصامتة في حديقته مع كتبه الصفراء، وأطباق الفاكهة، ورائحة البخور

والورود. صاح :

- كفى يا فهمي. والله لو صمت حتى نصل إلى البر، سأعطيك كيلة بلح كاملة.

وصمتوا جميعًا. تأملوا مياه البحر الكبير. وفجأة صاح فهمي، بعد أن ضاق بالصمت :

- لكنك لم تذكر لي، من أي نخلة ستعطيني كيلة البلح.

وضحكوا، بينما اكتفى هارون بابتسامة صغيرة.

من يومها، يحكون تلك القصة، تندرًا على حب فهمي العجل الشديد للحديث.

* * *

وتغير وضع المساليب الآن. الزرابي كفتهم شر الانتقال للبلدان البعيدة، فالخير وفير في المراغة، والنجوع الأخرى حولها، أقصى مكان يذهبون إليه الآن هو قصاص.

سار آدم إلى المراغة يجر أسماله وراءه. اليوم الثلاثاء -موعد سوق المراغة.

مر فوق "الجزجة"، أعطى لبسونة ظهره. اقترب من شارع السوق، نظر ناحية الباعة الجاثلين الجالسين فوق الأرض بأشيائهم. السمن في السوق كثر. والخير وفير.

- عمار يا بيت الوسية. شيء لله يا سيدى.

قال الباعة في ضجر :

- مسلوب من مساليب الشيخ عارف.

المشترون نظروا ناحيته، وتركوا ما كانوا ينوون شراءه. صاح بائع :

المساليب كالذباب. يطنون في إلحاح.

ثقب في ثوب آدم تعلق في قفص من الأقفاص الموضوعة في الطريق، تحرك القفص قليلاً. ازداد الثقب اتساعًا. لكن البائع شد آدم في عنف، ورماه بعيدًا.

– هي البلد ناقصاك ؟!

طرده الباعة من السوق. ردد كلمات لم يفهمها أحد.

البلاد الأخرى بعيدة، لكن خير من هذه البلدة.

لكزه أحدهم في صدره. أفلت منهم وسار "خراب بيوتكم. فلتفسد كل سمنتكم. ويصيب تمركم العفن".

عاد ثانية من حيث جاء. اقترب من الأرض المزروعة. حشوا البرسيم -هنا- أيضًا، استعدادًا للزرابي مثل بسونة.

يجلس رزق بجوار إحدى السواقي، وبعض رجاله حوله، يشربون الشاي، ويتحدثون، وثور قوي يدور بالساقية القريبة منهم.

اقترب آدم منهم، لا يريد أن يعود إلى النخل دون شيء. هذه أرض العمدة. اشتراها بعد أن تولى العمودية على المراغة وقصاص معًا. سيعطونه المزيد الآن.

همس أحد الحاضرين في أذن رزق مبتسمًا :

– مسلوب من مساليب الشيخ عارف.

اقترب آدم مبتسمًا :

– عمار يا بيت الوسية.

قال رزق :

- تعال. تعال.

اقترب آدم. لقد كان مصيبًا عندما اقترب منهم. فسوف يعطونه من الخير الكثير. ذلك البدين -متوسط الجلسة- لا أظنه سوى كريمًا.

- تعال، أنت من مسانيب بسونة ؟

- خادمك آدم عثمان.

قال آخر لرزق ضاحكًا :

- جسده قوي. يقدر على حرث فدان.

وقف رزق. الرجال الآخرون وقفوا حوله. اقتربوا من آدم. أمسك رزق بكتفيه. يدا رزق قويتان، استطاعتا أن تحوي كتفيه بينهما. ضغط عليهما بشدة، تأوه آدم. ضحكوا.

أعاد آدم الابتسامة ثانية فوق شفتيه. ما الذي يريده هذا البدين منه. متى سيعطونه ما يريد ويمشي.

- ها. يا مسلوب. تريد إحسانًا ؟

- عمار بيتك يا سيدي.

- سأعطيك ما تريد. لكن ليس قبل أن تفعل ما آمرك به.

قال آدم وهو يتراجع :

- خادمك المطيع.

صرخ رزق وهو يمسك بسوط يضرب به الثور :

- اخلعوا الثور عن الساقية :

ما شأنك يا آدم بالثور والبهائم؟ ربما سمعوا أن المساليب يجيدون صنع

الدواء للمواشي. لعل ثورهم به داء، وسيسألونه عن علاجه.

- اربطوه في الساقية، مكان الثورة؛ لِنَرَ إن كان يقدر علـى جرهـا أم لا.

غارت قدماه داخل الأرض الطينية. الأرض هناك متحجرة صلبة. الساقية ثقيلة. يجرها ثور قوي فيلهث. فكيف له هذا، وهو لم يتعود على شيء سوى التسول..

لم يعمل في حياته شيئًا، ولا حتى حمل الأشياء.

أراد أن يهرب. لكن كيف ؟

قال صارخًا :

- لا أريد إحسانًا.

- لابد أن تجر الساقية.

ضحكوا. لكن رزق لم يضحك، فهو يكره بسونة، والشيخ عـارف، وكل من يأتي من ناحيته.

شد آدم جسده. جر الساقية. الأرض تزداد اتساعًا. الـدورة -رغـم الجهد والعرق- لا تكتمل أبدًا. ساعداه تقلصا. لن يقـوى -بعـد الآن- على ضم القروش الممتدة له. أنينه يزداد.

دارت الساقية أخيرًا. تحركت. اكتملت الدورة.

أمسك رزق السـوط، وهـوى بـه فـوق ظهـره. تـأوه. السـوط ألهب القفطان القديم الذي يرتديه. أزال القشرة التي تكسو الجلد.

الساقية هي الأخرى تعانده. تتآمر عليه. ازدادت ثقلاً حتى كسرت عظامه.

بدأ ضحكهم يقل. وأنينه يزداد. ورزق يلهث من فرط الاندفاع في ضربه. قال أحدهم وهو يشد رزق بعيدًا :

كفى، الرجل سيموت.

أحنى آدم رقبته. أخرج خوارًا من فمه كالثور. تحول الأنين إلى خوار.

حملوه بعيدًا. رموه فوق الجسر.

* * *

قالوا في المراغة :

– رجل ملقى بجوار أرض العمدة رشوان.

قال آخر :

– لعله قتيل.

– قتيل في عز الضحى ؟!

– إنه غريب.

– بل مسلوب من مساليب بسونة.

سرى الخبر وانتشر. وصل إلى بسونة بعد ساعات قليلة. نقله الذين كانوا يتسوقون في السوق.

– مسلوب ملقى بجوار أرض العمدة. قبل الترعة بقليل.

خرجت سارة تولول :

– إنه آدم. لقد قال إنه ذاهب إلى المراغة.

المساليب الآخرون مازالوا يدورون في البلدان الأخرى. لم تكن هناك سوى آسيا وروايح ابنة قناوي التي لا تجيد التسول مثل آسيا.

نظرت كل منهما إلى الأخرى، وسارة تجري جزعة ناحية المراغة..
قالت آسيا :

- يستاهل، كنا مرتاحين هناك. أخذ يلح: بسونة. بسونة حتى جاء بنا على ملأ وجوهنا.

شردت روايح طويلاً، وذهبت إلى خيشتهم دون قول.

أهل بسونة أحسوا بالمهانة. أتستخف بهم المراغة إلى هذا الحد. فتقتل رجلاً في حماهم ؟!

كان هارون وعارف قد فرغا من صلاة الضحى. فما أن خرجا من المسجد، حتى وجدا الخبر في انتظارهما بعد أن تمدد وطال. فالمسلوب لم يضرب بالسوط، إنما الضربة كانت بآلة حادة قاتلة.

- مسلوب قتل بجانب أرض العمدة رشوان.

تغير وجه هارون. ليس هكذا تحل المشاكل. كيف يفكر رشوان في قتل رجل من أجل أن يحل مشكلة المساليب ويطردهم من بسونة ؟!

الأمور متضحة الآن أمام هارون.

(العمدة أوحى بقتل مسلوب حتى يخاف باقي المساليب. فيرحلون عن البلدة)

إن لم يكن هذا حقًا، فلماذا آدم بالذات دون باقي المساليب ؟ ولماذا يكون بجوار أرض العمدة ؟

ارتعشت يده وهي تلمس يد عارف مرددًا :

- ربنا لا نسألك رد القضاء، لكن نسألك اللطف فيه.

كان عقل بن فهمي العجل، وأخوه حنفي، وصابر بن عبد الوهاب،

وبعض الشباب، قد اجتمعوا في قهوة زايد. قال عقل :

– نذهب الأول ناحية المسجد. الشيخ عارف هناك. نستشيره فيما سنفعل.

لقد نسي الشباب استحمام المسلوبة في الترعة عارية. لا شيء يهم الآن سوى كيف يضرب رجل في حماهم ؟

قال هارون لعارف :

– هدئ من روع الشباب. لا نريد مجزرة بيننا وبين المراغة وقصاص.

قال عارف وهو ينادي من بعيد :

– اهدءوا يا أولاد. سنتحرى الأمر في الأول.

قال عقل :

– سنذهب لإحضار الجثة.

قال هارون :

– هيا، سنذهب كلنا معكم. حتى لا يحدث صدام.

تحملت الجزجة الممتدة فوق الترعة كثيرًا يومذاك. انتقلت بسونة كلها إلى المراغة، مارة فوقها.

* * *

عندما وصل أهل بسونة إلى مكان آدم، وجدوا رجلاً من المراغة يجلس القرفصاء، ويضع رأس آدم فوق ركبتيه. وآخر يحمل رأسه بيديه ويضع قطرات الماء في فمه، ثم رش وجهه بالماء المتبقي.

سارة سبقتهم. صرخت وولولت. وأولادها يبكون حولها.

بكت نسوة المراغة. وكذلك نسوة بسونة اللاتي جئن مع رجالهن.

قال رجل من المراغة :

- ساعدوني لحمله إلى بيتي، فهو قريب من هنا.

اقترب هارون. انحنى ولمس وجه آدم. كـان متسـخًا بـالطين. التراب امتزج بالعرق والدموع، فوق خديه وجبهته. ابتسم آدم في عناء عندما رآهما. ظهره مازال يؤلمه. وحرارة الأرض الملقى فوقها تزيده ألمًا.

رجل من المراغة اقترب من الشيخ هارون. قال :

- لا تؤاخذنا يا عم الشيخ. فلم ندرِ به سوى الآن. كنـا مشغولين بالسوق.

صاح عارف :

- الثأر بيننا وبين قصاص وعمدتها. ليس للمراغة شأن بما حدث.

أمسك هارون يد عارف ليسكته. وأمر بحمل آدم فوق جمـل حنفـي بن فهمي العجل.

أسرع عقل وحنفي والآخرون. حملوه باحتراس شديد. رفعوه فـوق الأرض. أبعدوا أيديهم عن ظهره المجروح. تدلى جسده فـوق الجمـل. ظهـره محفور بالسياط. ودم لزج يلتصق بملابسه. لمع الدم في ضوء الشمس.

شعر أهالي المراغـة، الموجـودون حينـذاك، بـأنهم لابـد أن يذهبـوا إلى بسونة للاعتذار. ولكي يخففوا من تأثير الصدمة عليهم، رغـم أنهـم لا يعرفـون الذي فعل هذا.

سـار الجمـل وخلفـه رجـال بسـونة والمراغـة. الحـوار لا ينتهـي بـين الشباب. قال حنفي لأخيه عقل، وهما يسيران خلف الجمل :

- هذه قلة استعناء بنا. لو كنا نهمهم ما كانوا اقتربـوا من مسلوب

في حمانا.

ما أن دخل الجمل بسونة، حتى كثر الجدل والحديث :

- المسلوب لم يقتل. واحد ابن حرام ضربه بالسوط.

أراد عارف أن يبقى آدم في داره حتى يداويه.

وكذلك عرض هارون. لكن سارة أصرت أن تأخذه إلى خيشته في النخل. كانت غاضبة لأن أهالي بسونة لم يهاجموا المراغة، وينتقموا من ذلك الذي ضربه هناك.

سار حنفي بجمله ناحية أرض النخل. ومعه باقي شباب بسونة وبعض الرجال.

أطفال المساليب تنتظر جسد المقتول في شوق. وآسيا تضحك. بمقتل آدم عثمان ستعود هي إلى ما كانت عليه. إنه يقيدها برباط لا تراه. كلما حاولت الهرب لا تستطيع.

ما الذي يربطها بهم. فهي تكره زوجها سويفي. وتكره آدم وباقي المساليب. لكنها تعجز عن الحركة وحدها. منذ أن تركت بلدتها وهي تسير معهم من مكان لآخر.

* * *

ترك الرجال آدم بعد أن قدموا له ما يقدرون عليه : سمنًا ولبنًا وقمحًا. وأحضر عبد الوهاب البقال -رغم بخله الشديد- الحلاوة الطحينية، والأرز والسكر...

ليس هناك بيت في البلدة إلا وأعطاه شيئًا.

بعد أن فارقوه، ابتسم وردد :

- الألم ليس مهمًا الآن. فلعل الله أراد لي هذا حتى يجعل بسونة تتمسك بي أكثر. بقائي الآن صار أكثر أمنًا من أي وقت آخر.

- ١٢ -

تحركت آسيا بين النخل.

اقترب المساء. وسويفي -للآن- لم يعد. مازال يطوف البلدان، يداعب أوتار ربابته، يسأل الناس إحسانًا.

رجال المراغة ضربوا آدم عثمان اليوم بالسياط. ألهبوا ظهره. قد يفعلون هذا في الغد مع باقي المساليب. تحركي يا آسيا. إنه هذه المأساة. البقاء هنا لن ينفعك. الرجال في بسونة لا يعشقون الغريبات... يقنعن بزوجاتهم اليابسات كنخلهم. وسويفي يعشق الغناء والترحال.

سارت بين النخل في سرعة وعصبية. إلى الآن لم يعد باقي المساليب من طوافهم. لم تعد بهانة ولا قناوي ولا آمنة ولا مهدي.

روايح ابنة قناوي في الجانب الآخر من النخل. سارت آسيا إليها، اقتربت منها، قالت روايح وهي تبكي :

- ماذا فعل آدم ؟

- ليته يموت.

دهشت روايح. قالت :

- حرام. لديه أطفال.

قالت آسيا وهي تحرك حاجبيها مرات عديدة :

– لو كان مات كنا ارتحنا. كنا سنعود ثانية للدوران في البلاد. اليوم ضربوه. في الغد سيضربون غيره إلى أن يقضو علينا جميعًا. ونحن ضعاف كما ترين.

لم تكن روايح سعيدة بالترحال والسير من بلد لآخر. والنوم في طرقات سوهاج.

كانت تخجل من رؤية أمها بهانة تنحني في ضعف. وسعدت ببقائها -هنا- في الخيش. فيأتيها أبوها وأمها في المساء، يفرغان أمامها ما جمعاه.

تنام روايح تحلم ببيت له نوافذ من خشب، وجدران من طوب. لكن ضرب آدم ذهب بأحلامها. قد تعود ثانية إلى الترحال والنوم في الحدائق العامة الرطبة وفي الخلاء.

ارتعدت. وضعت ظهر يدها فوق فمها. قالت آسيا في صوت خافت وهي تقترب منها :

– سأنتظر أباك وأمك، وأقول لهما إني لن أبقى مع المساليب ثانية. وإن رفضا الذهاب معي، فسأذهب وحدي.

– وسويفي زوجك ؟

– ملعون هو وأهله جميعًا.

لم يكن يخفى على روايح كره آسيا الشديد لسويفي. كما لم يكن يخفى عليها كرهها الشديد لبقائها معهم في بسونة. رغم هذا كانت روايح قلقة، تريد أن تطمئن بأن سياط أهالي المراغة لن تلهب ظهرها، وظهري أمها وأبيها.

قالت آسيا فجأة :

– ماذا تنتظرين يا روايح من بقائك هنا ؟ أن يتزوجك مسلوب مثل سويفي، يجرك خلفه، تدوران في البلدان، تسألان الناس إحسانًا ؟!

لم تعد روايح تذكر شيئًا عن نفسها الآن. تلاشت سيرة آدم. ونسيت رغبتها في ملاقاة أمها وأبيها، لتحكي لهما عن آدم، وما حدث له. لم تعد تتذكر سوى قطعة المرآة الصغيرة التي تحملها في الكوخ، والتي تنظر فيها من وقت لآخر، لترى وجهها.

قالت آسيا، وهي مازالت تغريها بهجر بسونة :

– آه لو تطاوعيني. سأريك بلدانًا عمرك ما رأيتيها. ورجالاً غير رجال المساليب الحفاة. ستتزوجين رجلاً ليس مسلوبًا، وتسكنين بيتًا له باب ونوافذ.

دارت رأس روايح. أتهرب معها ؟ أتترك بهانة أمها التي لا تستطيع أن تتركها يومًا بأكمله، وأباها الذي يبكي إذا ما مرضت؟

عادت بهانة. ما أن رأتها روايح حتى صاحت مسرعة :

– أماي. آدم عثمان ضربوه.

عندما صارت بهانة على بعد خطوات منها. ارتمت فوق صدرها. واقتربت آسيا منهما :

– إنني أنتظرك منذ وقت طويل. لم يعد لنا بقاء بعد الآن. أهل المراغة قتالين قتلة، ونحن ضعاف، وبسونة لن تستطيع حمايتنا. لقد ضربوا آدم. فماذا فعلت بسونة ؟

سارت بهانة في أناة خلفهما. الخوف يقيد خطواتها. السياط تطاردها، من الآن ليس لنا عيش هنا.

ليس لنا وطن. اعتدنا السير والترحال. أجدادنا الأقدمون قالوا: "لا تنخدعوا إن قالوا إنه سيكون للمساليب وطن يومًا".

تحققت النبوءة. سنموت. ستكون بسونة مقرّنا. وسيقول المساليب الآخرون في أزمان قادمة : "منذ زمن بعيد، فكر مساليب أن يكون لهم وطن، فماتوا هناك جميعًا".

لذلك سيروا ولا تقفوا أبدًا. لا تفكروا في الاستقرار.

رفعت بهانة ملابسها الداخلية، خلعتها. فبدا صدرها العريض وذراعاها الممتلئان. مسحت العرق تحت إبطيها، وبين فخذيها بقطعة قماش مبللة، وهي تردد :

– مسكين آدم.

ثارت آسيا فيها :

– بل نحن المساكين. إنه يستحق ما جرى له، وأكثر. لن أبقى يا بهانة في خيشتي ليلة واحدة. سأرحل.

– انتظري حتى يأتي قناوي ومهدي وآمنة. ونرحل جميعًا، ونتركه هو وزوجته.

– أجل وأخوه سويفي أيضًا.

قالت روايح :

– أماي. ألن تذهبي لترى آدم ؟

صاحت آسيا فزعة :

– إذا ذهبت إليه لن يتركك ترحلين. سيسحرك بحديثه. فهو ساحر، وأنا أعرف هذا جيدًا.

- لديك حق. كلامه المعسول خدعنا جميعًا. حتى جئنا إلى هنا هلاكنا بأقدامنا.

عاد قناوي. ربط قردته خارج الكوخ. انحنى بقامته المديدة ودخل. ضحكت بهانة رغم الأسى، اعتاد هو هذا منها. فما عاد يهتم بشيء. قالت آسيا :

- ما الذي يضحكك من زوجك ؟

- من طوله، لا يستطيع أن يدخل الخيشة إلا إذا انحنى. طوله كالنخل اليابس الذي لا يثمر.

قالت روايح :

- سنترك بسونة يا أبي.

- لماذا ؟ هل حدث مكروه للولد جاد ؟

صاحت بهانة فيه غاضبة :

- فال الله ولا فالك. مالك تنعق كالغراب.

أجابت آسيا :

- سنترك بسونة خشية أن يقتلنا أهالي المراغة.

قالت بهانة ضاحكة :

- لو كنت أعلم بما سيحدث، لأرسلتك في الصباح إلى هناك.

قال قناوي غاضبًا :

- يا امرأة لا تضحكي إلا على الخيبة.

خلع حذاءه البالي الملتصق بقدميه، وقال :

- أريد أن آكل. من الصباح لم أتناول شيئًا.

صرخت بهانة :

– يا رجل الدنيا مقلوبة، وتريد أن تأكل ؟!

أسرعت آسيا في القيام. أحست بالأمان، بعد أن وافقت روايح وبهانة وقناوي على الذهاب معها.

شكرًا للذين ضربوا آدم؛ فقد أراحوها من عذاب أليم، كانت تكابده. آن الأوان لأن ترحل كما كانت تود. وأن يلمس نعليها أسفلت الشوارع، وتحس بحفيف الأشجار، وتلمس أيادي الأغراب الأكثر نعومة من يد سويقي، وتشم رائحة عطرهم.

لكن قناوي اعترض :

– لماذا العجلة. سأبقى حتى يأتي مهدي، ونطمئن على آدم.

صرخت آسيا :

– لن أنتظر أحدًا. فالذي يريد أن يحصلنا، يأتي بعدنا.

نظر قناوي حائرًا، وآسيا تنظر ناحية بهانة، التي تملك القرار، وتستطيع أن تؤثر على زوجها وابنتها.

قالت روايح :

– سأذهب لخيشة مهدي، لعله جاء وزوجته.

أرادت آسيا أن تمنعها؛ خشية أن يفسدا خطتها للرحيل. لكن روايح أسرعت قبل أن تنطق آسيا بحرف. بدأت بهانة في جمع الأشياء. وقناوي جمع أشياءه هو الآخر. ثم عادت روايح فرحة :

– إنهما يستعدان للرحيل أيضًا.

* * *

قبل أن يتخطوا النخل، وجدوا سويفي آتيًا بربابته. امتعضت آسيا. جاءها الموت سائرًا على قدمين.

ملعون أبوك وأبو آدم. ما الذي جاء بك الآن؟ كانت تريد أن يعود بعد أن تترك له كل شيء. تعلم أنه سيبكي. لكن هذا لا يهمها الآن. هي تريد الرحيل بأي ثمن.

ارتعد سويفي عندما رآهم حاملين أشياءهم. قال في هوان :

- ماذا حدث ؟

اقترب من آسيا. أسرعت بهانة قائلة :

- سنرحل عن هذه البلاد. سنتركها لك ولأخيك.

- لماذا ؟

قالت آسيا صارخة :

- الذي حدث حدث. لا نريد أن نبقى معك أو مع أخيك.

- لماذا لا تريدين البقاء معي ؟

"رحلتي القصيرة إلى بلاد الأغراب غيرت كل شيء. جئت، فلم أجد خيشتي، والمساليب يستعدون للرحيل".

- أين آدم ؟

قالت بهانة :

- ملقى في خيشته.

قال مهدي :

- أخوك ضربوه في المراغة.

صرخ سويفي :

- من الذي ضربه ؟

صاحت آسيا :

- اذهب واسأله بنفسك.

أسرع سويفي ناحية خيشة آدم. لكنه كان ينظر خلفه من وقت لآخر؛ خشية أن ترحل آسيا عنه، فيعود فلا يجدها.

ماذا جرى ؟ أهي القيامة ؟

أحس آدم بالأوتاد وهي تخلع من الأرض. قال لسارة :

- اذهبي لتري الخبر.

أسرعت سارة. رأتهم يلمون أشياءهم. عادت فزعة :

- إنهم يستعدون للرحيل.

قام آدم من فراشه فزعًا. وقف على ساقيه، كاد يقع، أمسكته سارة، ووقف ولداه، سانداه، تمتم في ضعف :

- يريدون أن يذهبوا بكل ما كنت أنوي فعله.

أسرع سويفي إليه كالمجنون. ضمه لصدره، قبّله. سالت دموع سويفي فوق وجهه. لا يدري لِمَ البكاء، أمن أجل أخيه، أم لرحيل آسيا عنه. قال آدم :

- إنني بخير. المهم أن يبقى المساليب.

سار آدم بين امرأته وأخيه. تحسس بقدميه الأرض. لم يكن يشعر حينذاك بأدنى ألم. لكنه كان يسير ببطء شديد. وقف.

في الناحية الأخرى يقف قناوي ومهدي وبقية النساء.

"ضربت يا آدم بالسياط. ألقيت على الأرض الساخنة. ولم يأتِ

مسلوب واحد للسؤال عنك. الأغراب حزنوا من أجلك أكثر منهم. كل هذا لا يعنيك. المهم أن يبقوا. كنت تظن أن ضربهم لك -في المراغة- سوف يؤدي إلى الخير لك. سيحول قلوب بسونة ناحيتك. لكن ها هو يبعد المساليب عنك".

قال آدم وهو يرفع رأسه بصعوبة :

- عودوا يا رفاقي. دقوا أوتادكم ثانية. عودوا إلى الخيش.

قال مهدي :

- سنرحل. لم يعد لنا عيش هنا.

شعر آدم بالألم ثانية. طرحه رزق القصاصي فوق الأرض، وضربه من جديد بالسياط. هذه المرة العذاب أكثر إيلامًا. والضرب فوق جدران القلب.

قال متألمًا، وهو ينزع يده من ذراع سويفي :

- جدران قلبي توجعني. تريدون أن تهربوا لأن الأغراب ضربوني؟! لقد ضربتم في كل بلد ذهبتم إليه، سخروا منكم في كل مكان.

قالت بهانة :

- نقعد هنا إلى أن نموت ؟!

- حتى إن متم هنا، فخير لكم من أن تموتوا في بلاد متفرقة. إن متم هنا، سيكون أول تجمع للمساليب.

قالت آسيا :

- لكنني لا أريد أن أموت.

دموع سويفي مازالت فوق وجهه، ويده فوق الربابة، والأخرى تسند

ظهر أخيه.

رفع يده التي تمسك الربابة، مسح وجهه بكمه. أراد أن يتكلم؛ لكنه آثر الصمت. تكلم أخوه آدم بدلاً منه. لا يذكر ماذا قال بعد ذلك. أحبت آسيا الأغراب. وراءهم سارت. طرحوها في كل مكان، وفي كل طريق. لم تحفظ قدميها من الحفاء، ولا حلقها من الظمأ.

زنت فوق العشب، وفي الهضاب، ومع الأغراب.

بكى آدم هو الآخر :

- إذا بقيتم هنا، ستتكاثرون، سيزيد عددكم عن النخل الكثير أمامكم. لن يستطيع أحد ضربكم، كما ضربني ذلك الغريب اليوم. إذا رحلتم ستجدون ألف غريب سواه يستطيع أن يضرب من يشاء فيكم.

قال مهدي في أسى :

- عودوا الآن.

عادوا ونفوسهم غير راضية.

شعرت آسيا بحرارة في حلقها. همست بهانة لها، وهما سائرتان:

- في الصباح نذهب إلى العمل، ولا نعود إلى هنا.

- ١٣ -

لم تنم آسيا ليلتها تلك. كادت القيود تتحطم، وتتحقق المعجزة.

قال سويفي :

- لماذا تريدين ترك الخيش ؟

تمسكن سويفي. قال هذا بضعف شديد. أيام وهو يسير، ينام وهو واقف على قدميه. لا يتذكر إن كان قد نام أم لا. تهتز أمام عينيه الراقصات في الموالد. تظهر أجسادهن البضة. يتذكر آسيا.

الأنوار شديدة. ورائحة البخور شديدة. وجسد آسيا يتجسد أمامه مع الدخان المتصاعد من "المباخر". بعد أن انفض المولد، قفل سويفي عائدًا. يده تمسك الربابة والأخرى تمسك القروش داخل سترته. سيلتقي بآسيا، ليعطيها النقود كلها. فهي تحب النقود.

- لماذا يا آسيا تريدين الرحيل ؟

وجهك كان يصطدم بعيون الغوازي. كن ينفرن، يهربن. أنوار الموالد شديدة، تكشف عن قبح وجهك. حمدًا لله لأن آسيا أخفضت شريط المصباح، فخفضت الضوء. وجهك الآن أقل قبحًا.

- لماذا يا آسيا وأنا زوجك، وكل ما يهمني رضاؤك.

سيأتي الصباح حتمًا. وستذهب آسيا. ترتاح من وجهه. فلتتحمل

العناء الآن.

مر وجهه فوق وجهها الأملس. أحست بخشونته. لا طعم للحياة لامرأة مع رجل لا تحبه، وتشعر معه بالتقزز.

سمعت آسيا أصواتًا غريبة بجوار خيام الخيش. دفعت سويفي عنها "كفاك أيها الأعور. الذين ضربوا آدم عثمان في الصباح آتون الآن لضربك. لو ذهب المساليب معها -كما أرادت- لارتاحوا من هذا العذاب الذي ينتظرهم".

ارتبك سويفي، ردد في حيرة :

- ماذا. ماذا ؟

- مهلاً. ستذوق ما ذاقه أخوك في الصباح.

ازدادت الجلبة في الخارج. أصوات رجال ونساء تأتي من كل مكان حول الخيشة، لعلهم يستعدون الآن للهجوم، يحاصرون خيام الخيش، ثم يشعلون النار بها.

أجل. ذلك دأبها مع هذا الأعور. ما أن تستسلم له حتى يحدث لها مكروه.

قال سويفي :

- سأفتح الخيشة. وأرى ما يحدث.

تعرف هي الأغراب جيدًا. لولا المساليب الذين معها لاستطاعت أن تتفاهم معهم. حتمًا ستجعلهم يرضخون لها، ستمنعهم عما ينوون فعله.

الأصوات تقترب الآن. جاء الموت يا آسيا. هذا الأعور لن يستطيع الدفاع عنك. ستموتين لا محالة.

- افتحي يا بنت يا آسيا. جاء جاد ولدي.

أصخت السمع ثانية. أجل، هي بهانة، ولدها جاد الذي حكت لك عنه كثيرًا.

هدأت آسيا. اهدأ أنت أيضًا، فليسوا بأغراب، إنهم مساليب مثلنا.

خرجت متباطئة، لفحها الهواء البارد. وتبعها سويفي، وجدت شابين يقفان، والمساليب حولهما :

- جاد ابني، وصالح صديقه.

ملعون أبو تلك الليلة التي تستسلم فيها لهذا الأعور. لقد ضاعت فرصتك في الهروب من الخيش. بهانة سعيدة بعودة ابنها. ولن تفكر في تركه الآن.

قال جاد :

-مللنا من اللف والدوران. قلنا نأتي لنرى ما حكى آدم عثمان عليه.

جاد قريب الشبه من أبيه. وجهه الطويل وأنفه. لكنه لم يرث طوله السابق؛ وإن بدا أكثر طولاً من أمه بهانة. ورفيقه صالح في ند عمره تقريبًا.

قال جاد، وقد التف حوله سويفي ومهدي وآسيا وبهانة وروايح :

- صديقي صالح.

جاء قناوي. شد ولده إليه. قبله. دفعته بهانة بيديها غاضبة :

- كفى. دعه، الولد متعب من السفر.

تذكر سويفي آدم. قال في فرحة الأطفال :

- أخي آدم سيفرح بكما.

لم يلتفت إليه أحد. أسرع -هو- ناحية خيشة آدم. وجده واقفًا

يستعد للخروج. وسارة تسانده ولا تقوى.

قال سويفي :

- جاء جاد ومعه صديقه صالح.

فرحة آدم لا تقاس. ارتمى على كتف سويفي. ويده الأخرى على كتف سارة. نظروا كلهم ناحيته. قال جاد لرفيقه :

- آدم عثمان.

أسرع صالح إليه :

- ماذا بك ؟

قال آدم وهو ينظر ناحية سويفي :

- وقعت من فوق الحمارة.

أومأ سويفي برأسه مؤيدًا قوله. ورددت سارة :

- كانت وقعة شديدة.

كل المساليب يعرفون آدم. فهو يدور ويلف، يلح لأن يأتوا إليه في بسونة.

- مهلاً يا ولدي. فقلبي لا يتسع لكل هذه الفرحة.

سار آدم معهم. لم يتحرك الحشد الآخر نحوه. نظرت آسيا إليهم في استخفاف. وبهانة لا يهمها الآن سوى ولدها الذي عاد.

دار آدم بصعوبة.

* * *

تقف سندس -في بيت منصور عشرة- على قدم وساق (كما يقولون) ومعها ياسمين زوجة مسعود السقا وبعض النسوة جئن للخدمة.

معاونة لسندس، أكواب الشاي تملأ وتفرغ. يحمل مسعود الصينية. تصرخ زوجته فيه أمام النسوة. يغمغم، فلا يعرف أحد بأي شيء يرد على زوجته.

طالت الجلسة داخل المضيفة... عارف وهارون وفهمي العجل وعبد الوهاب، وبعض الرجال من بسونة والمراغة الذين يكرهون وجود الحاج رشوان القصاصي بينهم....

عارف يشيح بيديه غاضبًا، ثم يشرد طويلاً. ويردد من وقت لآخر، يلوم خاله هارن :

- قلت لك يا خالي إن عائلة رشوان ناس أشرار.

زاد كره عارف للقصاصين بعد زواج رزق من كوكب حبيبته.

صمت هارون. فهو مثل الجميع، كان يود أن يكون العمدة من المراغة، أو من نجع تابع لها. لكن بعد أن أصبح رشوان عمدة للبلدين معًا، كان هارون ينصح بالتعاون معه، حتى لا تقع البلدان في خلافات قد تؤدي إلى حرب بينهما.

تأفف هارون من كل شيء.. الجلسة مغلقة والدخان يتصاعد من كل مكان. وهو يحب الأماكن الجيدة التهوية. قال عبد الوهاب البقال :

- كفى لومًا وعتابًا. وقولوا لنا المفيد.

قال رجل من المراغة :

- إننا نعاني من أفعال الحاج رشوان والقصاصيين أكثر منكم. فيكفي أنهم يعيشون بيننا. هذا غير تصرفاتهم الرعناء.

أكمل رجل آخر :

- أظن لا يخفى عليكم ما يفعلونه في الأسواق. يأخذون المواشي من

أصحابها بسعر التراب، مدعين أن الحاج رشوان العمدة في حاجة إليها.

قال هارون :

- يا ناس، إننا لا نريد مشاكل. كل الأمور يمكن حلها بالحسنى.

صاح فيه عبد الوهاب :

- أية حسنى يا شيخ هارون ؟

ارتعد جسد هارون. فهو لا يحب مثل هذه الطريقة في الحديث. رفع عباءته في عصبية، ورماها فوق ظهره.

قال فهمي العجل :

- الحاج رشوان والقصاصيون لا يصلح معهم سوى العنف.

صمت عارف. ظل يلاحظ الحديث أمامه. يردد في نفسه : "لعنة تلعن المساليب واليوم الذي جاءوا فيه بسونة ولعن عائلة العمدة كلها. لو بيده لفعل ما فعله رزق. لا في آدم وحده؛ إنما في كل المساليب. لكنه لا يقدر أن يمسهم بسوء. عليه أن يتظاهر بالغضب من أجلهم".

كلهم غاضبون لأن قصاصيًا ضرب مسلوبًا يعيش في بسونة. فماذا يفعلون لو علموا أنهم يعيشون في بسونة بتهديدهم له بإفشاء سر أبيه.

قال عبد الوهاب :

- الموضوع يحتاج إلى الحكمة. عائلة رشوان كبيرة. ولها يد لدى الباشا خير الدين. بل وصلت يدها إلى القاهرة أيضًا.

ثار فهمي العجل :

- الله أقوى من الجميع.

يشعر هارون بالضيق من حديثهم هذا. فالقصاصيون يعيشون معهم

منذ زمن. وصادقوهم، وتزوجوا منهم. فلماذا يريدون إذكاء النار بينهم ؟ ماذا لو تشاجروا معًا. وانطلقت كل النجوع تتقاتل، بعضها يؤيد عارف، والآخر يؤيد العمدة ؟!

قال المراغي الذي كان يتحدث من قبل :

- ليس القصد من حديثي أن نصمت، ونتركهم لغيهم؛ إنما أن نتقابل معهم، بالمكر والخديعة. لابد أن نبحث عن طريقة لخلع العمدة، وترتاح كل النجوع بعد ذلك.

دارت الكلمات أمام عارف. لو يستطيع أن يخلع العمدة، كما يقولون، فيصبح هو العمدة مكانه. أجل، فهو شيخ البلد ونائب العمدة. لو حدث هذا، ستفتح له طاقة في السماء. ولن تتحدث عن أفعال منصور عشرة محسورًا. بل لن تخاف ما يدعيه ذلك المسلوب. وكوكب لا تفارقه صورتها هذه الأيام. يراها في كل طريق، حتى في نومه. لو كان العمدة لكـ....

قال فهمي العجل فجأة :

- ما رأيك يا شيخ عارف ؟

- الرأي رأيكم. وأنا معكم فيما اتفقتم عليه.

صمت ثانية. تابع وجه فهمي المنتفخ. لو لم تكن حكاية المساليب، ما وجدت بسونة موضوعًا تتحدث فيه، بعد موت منصور عشرة الذي كان يثيرهم من وقت لآخر بأفعاله، فحياتهم رتيبة. عمل طوال النهار، ثم النوم في الليل بجوار نسائهم.

قال رجل من المراغة :

- تعالوا لنزور ذلك المسلوب، الذي ضربه القصاصيون، ونرى بعد

ذلك ما سنفعله ردًا على الحاج رشوان.

* * *

تمدد آدم عثمان فوق فراشه، وحوله سارة وولداه، وبهانة تجلس بجوار ولدها جاد، تبتسم في سعادة. وصالح بجوار صديقه.

قال آدم وهو يحرك نصفه الأعلى بصعوبة، موجهًا حديثه لجاد :

– ماذا وجدتما في بسونة ؟

– خير وأمان.

– ارتاحا اليوم. وفي الغد تبدآن العمل. تدوران في البلدان حول بسونة.

قالت بهانة في خوف :

– ولدي لن يذهب إلى المراغة.

نظروا إليها في دهشة. غاص قلب آدم داخله. هذه المرأة تريد أن تحول سعادته إلى جحيم. تريدهما أن يطيرا من أوكارهما. لقد أتيا بسونة، ولا يمكن أن يطيرا هاربين.

كنت تحلم بأن يأتي الشباب إليك. إنك حقًا في حاجة إلى الشباب. وجاد وصالح بداية. سيأتي وراءهما الباقي.

إنني أعود شابًا بكما. أنتما حديقة في حر يومي القائظ. وأنتما لرأسي وسادة في ليالي الشتاء البارد .... لن أدع هذه المرأة أو غيرها بأن تفسد عليَّ يومي هذا.. ولن تستطيع أي قوة، ولا حتى قوة المراغة وقصاص مجتمعة، أن تذهب عني طيوري.

قال صالح، وهو قوي، كان يقوم باستعراض قوته أمام الناس في

الموالد، ليجمع النقود منهم، ويعمل الآن طبالاً مع الراقصات :

- وماذا يحدث لو ذهبت إلى المراغة ؟

قال آدم :

- لا شيء.

أسرعت بهانة قائلة :

- إنهم يضربون المساليب هناك.

- ومن يقدر على ضربنا ؟

- الكثرة تغلب الشجاعة.

وقف آدم رغم آلامه :

- اقعدوا يا شباب. ما في المراغة غدر ولا ضرب. نحن الآن في أمان.

صفق فهمي العجل بيديه وصاح :

- يا ساتر.

قال آدم في فزع :

- أهل بسونة آتون.

جلست سارة خلف الفراش. والتصقت بهانة بجدار الخيش.

دخل عارف وهارون، وفهمي العجل وعبد الوهاب البقال، وبعض رجال المراغة. قال عارف وهو ينظر بدهشة إلى المسلوبين الجديدين :

- الرجال آتون لزيارتك يا آدم.

- خدامكم يا سيدنا الشيخ.

خرجت سارة من وراء الفراش منحنية في حياء. صافحت الشيخ

وانحنت لتقبل يده. ثم صافحت باقي الرجال، وتبعتها بهانة. ونظر جاد ورفيقه حولهما، ثم خرجا دون قول. وبقى آدم مع الرجال وحده. قال هارون :

- نم فوق فراشك.

قال آدم وهو ينحني :

- لا لقد ارتحت لرؤيتكم. ذهب عني الألم الآن.

جلس هارون وعارف فوق الفراش. بينما جلس الباقي فوق الأرض. قال هارون :

- البلاد كلها حزينة من أجلك.

عارف شارد في أمر المسلوبين الجديدين، وربما هناك غيرهما كثير. هذا المسلوب -آدم- مصر على جمع مساليب الصعيد كله في بسونة.

حركت كلمات الشيخ هارون في نفس آدم أشياء كثيرة، حنان بسونة، ومؤازرتها له، حتى يأوي لديه كل المساليب. ضحك آدم :

المساليب في حماكم يا سيدنا الشيخ.

قال عبد الوهاب البقال :

- حزننا شديد من أجلك. حتى شبابنا الصغار عاملون في البلدة كالرحاية. يدورون دون راحة.

أومأ آدم برأسه. شد طرف ثوبه. آدم معه شباب الآن. مثلما لدى بسونة شباب. إنهم قلائل الآن. لكن القليل -عادة- نواة للكثير.

قال فهمي العجل :

- لولا أن الباشا خير الدين يحمي العمدة لقتلناه.

قال هارون :

– لا أريد عنفًا يا فهمي.

قال آدم مسرعًا :

– أنتم أسيادنا. وأصحاب الرأي فينا. ويكفينا مشاعركم نحونا.

قال رجل من المراغة :

– إنني أرى أن نسافر إلى الباشا خير الديـن. تشـكو لـه ظلـم عائلـة رشوان.

أكمل فهمي العجل :

– ونقول له إن اختيار رجل من قصاص عمدة علينا، هو عار ما بعده عار.

أجمع الكل على رأيـه. وأذعـن هـارون لـرأي الجماعـة. أحس آدم بالفرح. فضربه في المراغة، قرَّب الأمل الذي يراوده، بـأن يكـون ابـن منصـور عشرة عمدة على المراغة كلها.

صاح عبد الوهاب :

– ليس أمامنا للعمودية سوى ابن الوجيه الأمثل.

قال هارون :

– حد الله بيني وبينها.

صاح فهمي العجل :

– عارف ابن بنت الوجيه الأمثل. ومثل ابنه. كمـا أنـه شـيخ البلـد الآن.

أومأ عارف برأسه موافقًا.

قال فهمي العجل :
لم يتبقَّ سوى الاتفاق على موعد السفر.
- بل هناك ما هو أهم. ألا وهو المبلغ الذي سيأخذه الباشا لكي يسمع لنا.
أكد الجميع على رأي عبد الوهاب. فالرجل يسافر إلى سوهاج كثيرًا ليتسوق لدكانه، ويسمع هناك حكايات غريبة عن الباشا. هذا غير تاريخه الطويل الذي يعرفونه جميعًا، منذ عهد بعيد.
صاح رجل من المراغة :
- سنساهم معكم في هذا. قولوا ما شئتم.
وقال مراغي آخر :
- عمدة من بسونة خير من رجل غريب.
قال عارف :
- أجل لابد من تجهيز المبلغ قبل السفر.
قال آدم في استكانة شديدة :
- لا أريدكم أن تختلفوا من أجلي.
قال فهمي العجل :
- ما بيننا وبين الحاج رشوان قديم. من قبل حضوركم إلى بسونة. إنما ضربهم لك قد أخرج المخبوء.

- ١٤ -

ارتدى عبد الوهاب البقال أفخر ثيابه، وأوصى ابنه صابر بألا يترك الدكان إلى حين يعود من سوهاج.

سار بجوار عارف، وخلفهما فهمي العجل، وبعض رجال بسونة والمراغة؛ ليودعوهما على محطة القطار... وآدم عثمان الذي تماثل للشفاء يسير من بعيد.

عندما ركب عارف وعبد الوهاب القطار، ركب هو أيضًا، لكن في عربة أخرى.

النقود في سرّة عارف. دفع هارون مبلغًا كبيرًا، وأراد أن يدفع المبلغ كله. لكن رجال المراغة وبسونة، أصروا على المساهمة في ذلك؛ ليكون لهم دخل في خلع العمدة، وتعيين العمدة الجديد.

يذهب عبد الوهاب إلى سوهاج كثيرًا، يشتري هناك الأشياء لدكانه. لكنه لا يعرف طريق الباشا. آدم يتبعهما دون أن يحسا. هو يتردد على سوهاج أكثر من الجميع. فيطارده رجال الباشا. يمسكونه أحيانًا مع مساليب آخرين. يطلبون منهم تنظيف المكان. ورش حديقة القصر بالماء. ثم يضربونهم على أقفيتهم. ويتركونهم يعودون لشوارع سوهاج.

* * *

قدم عارف كيس النقود الصغير لحارس القصر. ابتسم الحارس لعارف. وسار دون قول. لعله يذكره من المرة السابقة.

جلس عارف وعبد الوهاب مع باقي الحراس. أعطاهم عارف سجائر. ثم عاد الحارس. قال :

- الباشا في انتظاركما. .

دخلا دون أن يردا بكلمة.

كان الباشا خير الدين قد أعياه الكبر. ما عاد يستطيع التحرك في ردائه العسكري كما كان.

رجاله يأتون إليه في حجرته. يحدثهم من فوق مقعده. وخادم خاص يقدم له الأشياء. ومساعده يقف بجانبه. قال :

- أهلاً بكما.

خبا الضوء في عينيه، وشاربيه لم يعد يهتم بهما، فالتحما بلحيته المهمَلة.

- عارف، كيف حالك ؟

- سعيد بلقائك يا باشا.

قدم عارف كيس النقود الأكبر. تلقفه مساعده، ووضعه في درج المكتب.

- تحدث يا عارف.

لاحظ عارف أن الباشا ينظر إلى عبد الوهاب في دهشة.

- إنه عبد الوهاب البقال.

قاطعه الباشا قائلاً :

- تريد عزل الحاج رشوان العمدة ؟

- أجل.

- رشوان عمدة من قبل أن يأتي أبوك إلى بسونة.

- لكنه يظلم البلاد والعباد.

قال عبد الوهاب :

- ضرب منذ أيام مسلويًا من المساليب.

- المساليب كثروا هذه الأيام في بسونة. أخبارهم ترد إليَّ أولاً بأول.

أراد عارف أن يطلب مساعدته لطردهم. لكن الباشا قال :

- وجود المساليب في بسونة خيرًا من انتشارهم في باقي البلاد، فيدنسوها بقذارتهم.

قال مساعده :

- أجل. لو بقوا في بسونة، ستنظف شوارع سوهاج.

أحس عارف بالإحباط. فها هو الباشا يبارك وجودهم في بسونة.

قال عبد الوهاب :

- ذلك يغضب الحاج رشوان.

سعل الباشا بضعف شديد. أحس عارف أن الرجل سيموت في الحال، ولن يكمل قوله. قال مساعده :

- اعرضا مشكلتكما بسرعة. لا تتعبا الباشا أكثر من هذا.

- نريد خلع العمدة رشوان.

أغمض الباشا عينيه، كأنه نائم لا يسمع. قال مساعده :

- قد يؤدي هذا إلى غضب البعض في البلدة.

- كلا فهو قصاصي غريب. ويعيش في المراغة.

قال المساعد هامسًا للباشا :

- اخلعه يا باشا مادام لن يسبب لك مشكلة.

- لا أستطيع دون سبب.

- الأسباب كثيرة يا باشا. فهو يأخذ مواشي الناس برخص التراب.

قال الباشا لعارف :

- هل لديك قرينة لذلك ؟

- لا.

- ابحثوا عن قرينة تستدعي خلعه.

قال عبد الوهاب :

- ماذا يا باشا ؟

صاح المساعد وهو يدفعهما للخارج :

- هيا. الباشا متعب، وقال لكما المفيد.

خرجا من الحجرة مسرعين، والمساعد خلفهما. بدا في الخارج أكثر ودًا معهما :

- مادام يسرق، أثبتوا عليه هذا. ثم أرسلوا إلى الباشا، ليرسل رجاله.

عادا ثانية إلى الشارع. وآدم عثمان في انتظارهما. اقترب منهما متسائلاً :

- ماذا قال الباشا لكما ؟

قال عارف في ضيق :

- ما الذي جاء بك إلى هنا ؟

- إنني أعمل في سوهاج.

لم يقل عبد الوهاب شيئًا. سار معًا. وآدم خلفهما. لابد أن يستريحا في قهوة، أو مطعم. فالباشا لم يقدم لهما حتى كوب ماء.

* * *

عاد الشيخ عارف إلى بسونة يحمل نصف انتصار. الأمر يتوقف على مكيدة يقع فيها العمدة. كان عبد الوهاب البقال متحمسًا لهذا. طوال الوقت وهو يقترح على عارف بعض الخطط.

- ماذا ترى لو ......

وعارف شارد فيما سيفعله.

اجتمع الرجال في بيته. جلسوا في المضيفة. هارون بكامل هيئته، وعارف ابن أخته بجواره، متجهمًا كعادته. وعبد الوهاب البقال فرح لأنه قابل الباشا خير الدين مع عارف. وفهمي العجل يتعجل الخبر.

- ماذا قال الباشا ؟

ورجال المراغة ينظرون إلى شفتي عارف، يريدون الاطمئنان. فقد ضاقوا من وجود ذلك القصاصي في بلدهم.

حكى عارف ما حدث في لقائه مع الباشا. قال :

- لقد فكرت كثيرًا في هذا. وتوصلت إلى طريقة تريحنا من ذلك القصاصي.

صاح فهمي متعجلاً :

- قلها بربك، وأرحنا.

- من منكم لا يعرف عجل فهمي؟

قال هارون ضاحكًا :

- كلنا نعرفه. فهو يلقح إناث مواشي معظم أهالي بسونة.

قال رجل من المراغة :

- بل أحيانًا نستأجره في المراغة لهذا الغرض.

يقوم فهمي بوضع أجراس صغيرة حول رقبة عجوله، فتدق الأجراس كلما تحركت رقبة العجل، ويضع الأزهار.

صاح عبد الوهاب البقال في ضيق :

- ما شأن عجل فهمي بموضوعنا ؟!

قال عارف مبتسمًا :

- العجل هو الذي سيحل مشكلتنا.

برم فهمي العجل شاربيه سعيدًا، لذكر عجله بهذه الكيفية. وأكمل عارف :

- ينقب اللصوص تحت زريبة مواشي الحاج مساءً، ويدخلون العجل، يربطونه بين مواشيه. ثم يأتي رجال الباشا خير الدين، فيخرجونه من الزريبة.

ارتعد هارون. ما الذي يقال أمامه ؟! لقد شغله ابن أخته بحكاية جديدة هي خلع العمدة، بعد أن ارتاح من منصور عشرة وأفعاله. قال هارون:

- إنني معكم في خلع العمدة. لكن ليس بطريقة التشهير والغش.

صاح فهمي غاضبًا :

- أنترك العمدة يفعل ما يشاء، لأجلك ؟

قال هارون غاضبًا :

– لم أكن أظن أنك ستكون هكذا يا عارف.

– لماذا يا خالي ؟

– كيف تشهر برجل، أنت تعرف أنه لم يسرق ؟

قال فهمي العجل في صوت خافت احترامًا لمركز هارون :

– لكنه يسرق يا شيخ هارون. يشتري رجاله المواشي .....

صاح هارون مقاطعًا، بعد أن وقف :

– أنا لن أشترك في هذه المؤامرة. اسمحوا لي بالانصراف.

سمعت سندس صوت أبيها الغاضب. ضربت على صدرها. أول مرة يختلف هارون وعارف هكذا.

خرج، وعارف لم يجبه. وقف الرجال كلهم. فيما عدا فهمي العجل :

– لقد أراحنا بذهابه. طريقته الضعيفة هذه لن تحل ولا تربط.

قال رجل من المراغة :

– أخشى أن ينبه الحاج رشوان العمدة.

قال عارف غاضبًا :

– خالي لا يفعل هذا.

اكتفى عبد الوهاب بالابتسام. يخلعون العمدة أو لا يخلعونه. لقد مل من الانصراف عن دكانه.

دهش الخدم لدخول آدم عثمان دون استئذان. دق الباب. تأفف البعض من دخوله هكذا. لكن عارف رحب به وقربه من مجلسه. قال عبد

الوهاب :

- من أين لنا باللصوص الذين يجيدون النقب ؟

ضحك فهمي :

- لقد كان النقب عملي مع المطاريد.

أحس عارف بأنه لو لم ينه الحديث في هذا الموضوع، سيظل يتحدثون فيه إلى الصباح. فقال :

- آدم عثمان سيأمر مساليبه بإقامة "سامر" حول بيت العمدة : رقص وغناء؛ حتى لا يسمع أحد نقب فهمي، ولكي تشغل نساء المساليب الخفراء الذين يحرسون الدار.

تغير وجه بسونة. اليوم أكبر عيد. "الجزجة" المسكينة عانت كثيرًا من سير الناس فوقها، ذاهبين إلى المراغة. وأنّت من حمل أهالي المراغة وباقي النجوع، آتين لتهنئة الشيخ عارف، العمدة الجديد.

يقولون إن رجال الباشا عندما داهموا بيت العمدة، ظنهم الحاج رشوان آتين لإبلاغه بأمر من الباشا، أو جاءوا لزيارته زيارة عادية. لكن دخولهم الزريبة مباشرة جعله يقلق.

وعندما أبلغوه بما حدث، صاح :

- هذا العجل لم يكن في زريبتي. ولم أره سوى الآن.

قال الضابط الكبير :

- سيكتفي الباشا هذه المرة بعزلك. لكن لو تكرر ما حدث، ستسجن.

أراد أن يصيح. لكنه شعر بالخوف من الضابط ورجاله المسلحين.

وبعد أن أدرك أن الباشا خير الدين قد استغنى عنه، ولن يحميه، قال للضابط الكبير، بعد أن أكرمه هو ورجاله :

- أرجو أن تبلغ تحياتي للباشا. وكل ما أريده -الآن- أن يسمح لي بالعيش في قصري هذا. لا أريد أن أعود إلى قصاص بعد ما حدث.

خرج الضابط وتبعه رجاله، واعدًا الحاج رشوان بإبلاغ الباشا بطلبه.

* * *

زوقوا عجل فهمي بالورق الملون والمساحيق، ووضعوا الأجراس الصغيرة حول رقبته. وركب حنفي بن فهمي العجل جمله المزوق أيضًا، وأخذ يرقص فوقه على أصوات الزمر والطبل. وزغردت النسوة، ورقص بعض الرجال.

منذ سنوات طوال والمراغة كلها بكل نجوعها تنتظر هذا اليوم. أن يعتلي عرش العمودية رجل من المراغة..

وقف الموكب أمام بيت عارف عشرة.

- سلام يا جدع للعمدة الجديد.

أطلق فهمي طلقات بندقيته، ومدها بين يديه ورقص بها. تمايل حامل الطبلة الكبيرة وهو يدقها بانتظام، وانتفخ وجه الزمار.

- العمدة الجديد. والبلد. بسونة.

خرج عارف من بيته. والرجال الذين جاءوا لتهنئته من كل مكان بجواره، لوح بيده :

- يا أهل بسونة. بل يا أهل المراغة كلها.

مسعود السقا حائر فيما يحدث أمامه، لقد كان يكره منصور عشرة ويتمنى موته. فالرجل كان يصرخ فيه كأنه طفل صغير، وكان يزور ياسمين في البيت الذي سمح له بالعيش فيه.

وعارف يعامله بسوء أيضًا. لا ينسى ما كانت تفعله ياسمين في "هَنا" أمه. لكن ما ذنبه هو ؟ لقد كان يود أن يمنع ذلك؛ لكنه عجز. فلماذا

يعاقبه عارف بفعل زوجته ؟

اشترك مسعود في صف المقاعد، وهو مازال حائرًا، أيفرح لهذا أم لا.

خرج عارف والرجال الآخرون. جلسوا فوق المقاعد. أحضر أصحاب الكلوبات في البلد كلوباتهم، وأشعلوها، وعلقوها أمام بيت منصور عشرة.

وارتدى آدم عثمان قفطانه الجديد، الذي يتناسب مع هذا الحفل، ومعه سويفي بربابته، وباقي المساليب يندسون وسط أهل البلدة.

جلس آدم وسط الرجال الكبار كأنه واحد منهم. وتوقف العجل المزوق. كلما حرك رقبته، تصاعد رنين الأجراس المعلقة فيها. وهبط حنفي عن جمله. صافح عارف مهنئًا. وجلس بجوار أبيه فهمي العجل. قال فهمي:

- كنت أظن أن خالك هارون سيحضر الحفل.

قال عبد الوهاب البقال :

- إنه غاضب الآن. لكن سيروق بعد أيام قلائل.

قال حنفي :

- من يغضب يشرب من البحر.

نظر عارف إليه شزرًا. قال فهمي :

- ولد. ما شأنك بحديث الكبار.

ضحك فهمي حتى يعيد للجلسة بهجتها :

- ألف مبروك يا شيخ عارف. شرفت بسونة.

شرد عارف. لقد كان يجلس في حجرته طوال ليلة أمس قلقًا. فهمي لم يأتِ ليخبره -كما اتفق- بأنه نجح في إدخال عجله زريبة مواشي

الحاج رشوان.

يسمع عارف صوت سندس تصيح غاضبة في مسعود السقا، ويضيق بصوتها المرتفع. فهو يريد أن يسمع ما يحدث خارج البيت. يسمع الخبر الذي سيبل ريقه.

ثم هدأت الحال. ونامت الأصوات. لم يعد يسمع عارف سوى صوت الهواء في الخارج.

طال الوقت، حتى جاء الخبر.

* * *

المقاعد مصطفة حتى بيت عبد الوهاب البقال.. يسمع هارون الأصوات، من حديقة قصره القريب من الحفل. الخدم يتحركون في شرود. لا يصدقون أن هارون يجلس بعيدًا عن ابن أخته الذي أصبح عمدة. وهو يحاول أن ينسى ما حدث... يفكر في زوجته الجميلة القاهرية. التي أخذه والده من فوق سريرها، وجعل الرجال يرمونه في العربة، ويسافرون به إلى البلدة. هرب هارون إليها بعد ذلك؛ لكنه لم يجدها... يقولون إن الوجيه الأمثل قد أرسل إليها مبلغًا لتترك شقتها، فلا يعثر ابنه عليها ثانية.

دخلت سندس فجأة. أمر غريب أن تترك حفل زوجها، وتأتي إلى هنا. قالت :

– أبي. لماذا لم تحضر الحفل ؟

– اجلسي يا سندس. ارتاحي. أنت تلهثين.

– لا أستطيع. لقد جئت وسأعود مسرعة؛ حتى لا يحس أحد بغيابي.

– لكنني لن أذهب إليه.

– إنه عارف. ابن أختك، وصديقك.

– لا يا سندس. منصور عشرة لم يأتِ بخير. هكذا أخبرني رضوان قبل أن يموت.

بكت سندس :

– ذلك سيؤثر على العلاقة بيني وبينه.

– قصر الوجيه الأمثل يسع المئات يا سندس.

أشاحت بوجهها في عصبية وخرجت باكية.

* * *

عاد الزمار للعزف مرة أخرى. ورقص حنفي فوق ظهر الجمل العريض، والرجال والنساء يصفقون. جلس سويفي وسط الحشد. داعب أوتار ربابته :

أبو زيد الهلالي نادى يا ريا

مـــدي وبوســـي إيديـــا

وأنا الهلالـــــي أبوكـــي

ودارت آسيا في الخلاء... الأنوار حولها، الكلوبات كثيرة، وجهها أكثر لمعانًا، ضحكت سارة لها :

– من الآن سنعيش في بسونة في أمان.

– لماذا ؟

– لقد كانت لنا يد في تنصيب عارف عمدة على المراغة.

لم تشعر آسيا بأي تغير (أحمد مثل الحاج أحمد) ما الذي حدث لما

أصبح عارف عمدة ؟! كلهم أغراب.

منذ أن جاءت إلى بسونة وهي تبحث عن غريب، لتقضي معه أوقاتًا سعيدة. تبحث عن خد أملس، غير خد سويفي المحفور، الأسود.

لا يهمها إن كان عارف عشرة، أم سواه.

وقفت بهانة لترقص. عقدت سارة لها وسطها، وترنحت. أحس الرجال بأنها تجيد الرقص كأحسن غازية. ذكرتهم بشوق التي كانت ترقص وسطهم -هكذا.

حتى آمنة -زوجة مهدي- التي قلما تبتسم، صفقت واهتزت مع دقات طبلة صالح، التي ترقص بهانة عليها.

تنظر آسيا إليهم في لامبالاة. تريد أن تصرخ فيهم قائلة :

- ما شأنكم بالعمدة. لا البلد بلدكم، ولا العمدة قريبكم.

لكنها آثرت أن تسير بعيدًا عنهم.

تبعها جاد -ابن بهانة- حتى ضريح "الشيخ صاحي" :

- تتركين الناس وتذهبين للظلام ؟

نظرت إليه في صمت، سارت ثانية. قال :

- عودي، الطريق وعر في الليل.

قالت وهي تبتعد عنه :

- ليس لك شأن بي.

مد يده وأمسك يدها، وهو يضحك بصوت مرتفع :

- الطريق في الليل به ذئاب وثعابين.

ابتسمت. وجه سويفي ليس بأملس، ورائحة عرقه نتنة، تنفرين

منها. لكن هذا شيء آخر. مسلوب مثله حقًا، لكنه مازال في ريعان الشباب، وخده أملس.

سارت آسيا بعيدًا. بعيدًا. وتبعها جاد.

* * *

بعد أن رقصت بهانة، قام آدم عثمان. أمر ولديه بإحضار قالبين طوب. وأخذ "يعزم" وهو ينظر إليهما، حتى قاما ورقصا. وأمر الزمار والطبال بالعزف لهما.

ابتسم عارف في تثاقل. لم يكن غريبًا عليهم ما حدث. فقد عرفوا رجالاً كثيرين يقدرون على فعل هذا. قال فهمي العجل :

– لقد رأيت هذا مرات.

قال آدم :

– سأعمل عملاً لا يستطيعه أحد في المراغة كلها. أحضروا لي ديكًا وورقة وقلم.

دخل مسعود السقا. أحضر من حظيرة الدواجن ديكًا كبيرًا، وأعطاه لآدم.

سار الديك وسط الحلقة، وكلما حاول الإفلات رده الناس إلى الحلقة.

وآدم فرد الورقة. وخط فوقها خطوطًا غير مقروءة. فتوقف الديك في مكانه. لم يقدر على الحركة.

قال آدم وهو ينظر ناحية عارف :

– إذا فصلت الورقة عن بعضها، سيموت الديك في الحال.

صمت الناس جميعًا.

عندما قطع آدم جزء من الورقة ترنح الديك، ثم مال على جانبه. ومزق آدم قطعة أخرى، فهوى الديك إلى الجانب الآخر. والناس مشدوهين. ثم صاح لعارف :

- أقتله يا عمدة ؟

لم يجبه عارف. أراد أن يمنعه عن هذا. لكن الكثيرين صاحوا :

- اقتله.

فصل آدم الورقة عن الأخرى، فمات الديك في الحال. قال فهمي العجل في دهشة :

- ما الذي حدث ؟

ردد عارف :

- المساليب يعرفون الكثير.

حين مات الديك، كان جاد بن قناوي قد قام من فوق آسيا. وانشغلت هي بتنظيف مؤخرتها من التراب الذي يعلق بها.

ابتسمت. داعبت جاد فرحة. أول مرة ترتاح لمسلوب هكذا. كأنه ليس مسلوبًا.

عادا معًا. وسويفي يعود للغناء على ربابته أمام الناس.

بدا الشيخ هارون أكثر نحولاً هذه الأيام. لم يكن يقرب السجائر، إلا إذا ألح أحد المدخنين. لكنه الآن يدخن بشراهة.

قلق على سندس. لديه إحساس بأن مصيرها سيكون كمصير أخته هنا، التي ماتت كمدًا من تصرفات منصور عشرة، الذي كان يداعب ياسمين - زوجة مسعود السقا- أمامها دون حياء.

لقد تحول عارف كأبيه تمامًا في كل شيء.

تأتي إليه سندس من وقت لآخر.

- لقد هزلت يا أبي. لم يعد بك سوى جلد على عظم. الجبة بدت واسعة عليك، كأنها ليست جبتك.

ربت على يدها التي تلامس وجهه. لولاها ما كان اهتم بشيء، حتى نفسه.

- عد يا أبي إلى عارف ابن أختك.

- لا يا سندس. لست أنا الذي يوافق على حل المشاكل بالغش.

يذهب إلى المسجد يوم الجمعة فقط. يجد عارف أمامه، ظهره ملتصق بخشب المنبر، وفي مواجهة الباب. يحول هارون وجهه عنه.

بعد الصلاة يسرع، يحمل نعليه، يرى -بطرف عينيه- عارف وهو

يحاول التحدث معه. لكن هارون يسرع إلى قصره.

* * *

جاء آدم عثمان إلى بيت عارف. الآن يدخله في أي وقت. ودون أن يعترضه أحد. قال لعارف :

- إنني حزين للخلاف بينك وبين خالك هارون.
- دعك من هارون الآن. لقد طلبتك لشيء أهم من ذلك بكثير.
- وأنا تحت أمرك.
- ما فعلته يوم الاحتفال يؤكد مقدرتك على عمل السحر.
- تقصد قتلي للديك.
- أجل. أريدك أن تعيد لي كوكب.
- يهمني أن تكون سعيدًا. سأعيدها لك صاغرة.

* * *

ينام رزق القصاصي معظم الوقت. فقد ضاع الأمل الذي كان يتمناه. أن يكون شيخًا للبلد، وعمدة بعد ذلك، بعد موت قريبه الحاج رشوان. كل ذلك ضيعه عارف بفعلته. جعل الحاج رشوان لا يساوي شيئًا. لا في المراغة ولا في قصاص بلده. خلع خفراؤه معاطفهم الصفراء. ليس من حقهم -الآن- أن يرتدوها، فهم يعلمون أن عارف لن يسمح لهم بالعمل معه. لابد أن يختار خفراء يثق بهم.

عمل بعض الخفراء في أرض رشوان، والبعض مازال يخدم في قصره. مازالوا ينادون رشوان بالعمدة. ربما من قبيل التعود.

يحس رزق بالكسل. رجاله يعملون في أرضه المتاخمة لأرض رشوان،

ليس مهمًا أن يذهب إليها. كما أن جلسات رشوان ما عادت تروق له. لعدة أسباب أهمها :

* أن رشوان لم يعد فيه أمل. خلعوه من العمودية بفضيحة، ولن يعود إليها ثانية بعد أن أثبتوا في محضر رسمي أنه سارق.

* أن جلساته لا يدور فيها سوى حديث واحد لا يتغير: ما فعله عارف به، بالاشتراك مع المساليب.

كوكب تلح عليه بألا يعطي موضوع مشيخة البلد أهمية، حتى لا يؤثر هذا على صحته، فهي وطفلته في حاجة إليه.

جلست على حافة السرير. وجعلت الطفلة تداعبه. رفعتها فوق كرشه المرتفع

– قم يا رزق. أستظل هكذا، ليل نهار ؟

– إلى أين أذهب ؟

– إلى أرضك. اجلس على القهوة. قابل العمدة رشوان.

– مللت كل هذه الأشياء. الأرض تذكرني بالمسلوب الذي ضربته، وكان سبب عزل رشوان وضياع الأمل مني. وفي القهوة يدور الحديث عن عارف وما فعله برشوان. وفي كل مرة أتشاجر مع واحد أو أكثر. ورشوان أيضًا صار مملاً.

تأتي حسنية –أم كوكب– لتطمئن على ابنتها. تجده في فراشه كما هو.

– يا أمي، إنه لا يتحرك من فراشه أبدًا.

– لعله مريض.

تصف لها حسنية طريقة "غلي" بعض الأعشاب التي ستريحه من سقمه وكسله هذا.

وتحار كوكب فيما حل بها. كانت تحب عارف منذ صغرها. ثم تزوجت رزق الذي يختلف عنه في كل شيء. عارف وسيم، وجسده كعود خيزران. لا يكف عن الحركة. لكن رزق يضنيها بكسله. رغم هذا رضت به، وتمنت أن تعيش معه العمر كله.

* * *

بدت أرض النخل الشديدة الاتساع، كحظيرة دواجن، بما فيها من مساليب. وأصبح الخيش الذي يقيمون فيه أكثر من نخلها الكثير المنتشر فيها.

منذ الصباح المبكر، ونساء المساليب يعملن فوق الأرض الخضراء، المرشوشة بالنجيل دون انتظام.

يجلسن في الشمس، بملابسهن ذات الألوان الصارخة المتنوعة. إحداهن نصف عارية، تغسل في طشت صفيحي صدئ بعض ملابسها، وأخرى تحيك بعض الخرق الطويلة لتصنع لنفسها ثوبًا.

ملابسهن غريبة. لم يعتدها أهل بسونة (مجموعة من الأقمشة المختلفة الألوان، يتلاصق بعضها فوق البعض دون انسجام، فيبدو الثوب كخطوط متلاصقة في تنافر).

ويخرج الأطفال من الخيش. أكثرهم عراة. يتبولون كعادتهم كل صباح خارج الخيش، ويبدأ الحديث والثرثرة.

تخرج روايح من كوخها. تنام وحدها في الكوخ. فأبوها قناوي وأمها بهانة قد خرجا منذ وقت قصير للعمل. وجاد -شقيقها- ينام في كوخ

آسيا. الكوخ ضيق عليهم (هي وأمها وأبيها) بينما آسيا تنام وحدها، فزوجها سويفي دائم السفر.

روايح جميلة. وجهها مستدير كوجه أمها. شعرها يميل للاصفرار. جسدها يميل للامتلاء قليلاً. ورجال بسونة يفضلون المرأة الممتلئة.

أحست بأنها لابد أن تعيش من سهر الرجال عندها. فهي -كآسيا- لا تجيد التسول كمعظم المسلوبات.

وجدت صعوبة قبل أن توقع في شباكها صيدًا واحدًا. الجميع هنا يتذرعون بالفضيلة.

عندما انصاع لها أول رجل من بسونة، وكان وجهه أسودًا، قال وهو يتابع جسدها عاريًا :

- لقد زوجونا خفرًا.

عادت روايح ثانية إلى كوخها. في الركن "زلوية" فخار تلمع، بها ماء من الترعة، وصرة ملابس ملقاة، وخرق كثيرة ملقاة، وقفص جريدي يستخدم كسرير.

خرجت من الكوخ. نبحت كلاب المساليب، وهي كثيرة، أكثر من كلاب البلد. صبت بعض الماء لتغسل وجهها. عليها أن تتزين كل يوم من أجل الزبائن. ترسم عينيها بالكحل. وتدهن وجهها.

ألفت روايح بسونة، وألفها الكثير من الرجال هناك. إذا ما قابلت رجلاً يريدها، وكان كوخها مشغولاً، تدخل أي كوخ يسمح بذلك.

* * *

لم يكن أحد يصدق، أن يستطيع آدم جمع كل هذا الحشد من

المساليب في تلك الشهور القليلة.. يسير الناس في بسونة، أو في المراغة، أو في أي مكان هناك، فيجدون المساليب أمامهم. يتسمون لهم في ضعف. أو راكبين دوابهم، ينزلون منها مسرعين. يتلذذ البعض لهذا. يسعدون لأنهم -رغم فقرهم- يجدون من هم أقل منهم درجة. وبعضهم يتمادى، فيمد يده ليضرب مسلوبًا على قفاه، فيبتسم المسلوب في برود، وينحني.

* * *

لم يعتد شباب بسونة هذه الحياة الجديدة في النخل. نساء عاريات بلا خجل، يرفعن ملابسهن عمدًا عن أجسادهن، وهن يغسلن أوانيهن أو ملابسهن.

يذهب الشباب إلى هناك : حنفي بن فهمي العجل، وصابر بن عبد الوهاب البقال، وشعبان بن زايد، صاحب القهوة، وغيرهم.

يجلسون أمام الأكواخ. ينظرون إلى النساء في تلذذ. تبتسم النسوة في خبث. تنظر كل منهن إلى الأخرى، يتغامزن.

استطاع الشباب بعد وقت قصير معرفة أسماء كل المسلوبات. دبت صداقة بينهم. كن يدعونهم لشرب الشاي داخل أكواخهن.

وقف حنفي بن فهمي العجل وباقي الشباب أمام خيمة روايح. جاءت الفتاة. قالت في دلال :

- تأخرتم اليوم.

وجه حنفي الأسود يكاد يزرق من الحياء. يدعي الجرأة، يتحدث عن نفسه، على أنه أقوى شاب في بسونة، وأكثرهم مقدرة على اصطياد النساء والفتيات. لكن أمام روايح يتوه.

يعلن دائمًا أنه المقصود بغزلها. يركب الجمل، لا يدري إلى أي مكان يسير به. يضع يده المعروقة السوداء تحت ذقنه المدبب. ويذهب بعيدًا في حلمه. ثم يعود بجمله فجأة. إنه لا يقوى على العمل اليوم. لابد أن يذهب إلى روايح، فقد قالت البارحة : "سأنتظرك". لا يذكر إن كانت قد قالت "سأنتظركم" أم خصته هو بالانتظار. لكن الذي يذكره جيدًا أنها تهتم به أكثر من اهتمامها بصابر بن عبد الوهاب البقال، ومن شعبان بن زايد.

كان قبل أن يراها يحتقر المساليب. يسخر منهم. ويتقزز من أسمالهم البالية دائمًا. لا يدري لماذا خلقت روايح مسلوبة. لو كانت واحدة من فتيات بسونة لأسرع وتزوجها.

أمامها يشعر بالحياء. يخاف أن يقول كلمة لا تعجبها. يحاول دائمًا إرضاءها. يسرق أقماع السكر من خزانة أمه سليمة، أو يسرق حفنات القمح، ويحملها إليها في "غلق صغير"، ويعطيها لها، وهي ترضى بأي شيء.

دخلت روايح خيشتها مبتسمة. تبعوها. جلسوا حول القفص الجريدي المغطى بفراش من نفس نوع الخيش المشدود منه الأكواخ. وجلست هي فوق قفص جريدي آخر. نظروا ناحية قدميها، أقدام نساء المساليب نظيفة رغم رثاثة أثوابهن.

صعدت عيونهم نحو ساقيها الممتلئتين البيضاويتين. تنهدت في فجور. وشفتاها مفتوحتان في نهم، كوعاء فارغ يستعد لاستقبال ما سيلقى فيه.

إنهم لا يعرفون في بلدتهم سوى النظر في خبث إلى زوجات الآخرين، وهن يسرن في أناة، في طريقهن لبيوتهن. لكن تلك البنت العاهرة شيء آخر.

نظر حنفي ناحية صابر، وناحية شعبان. أحس بأنه لابد أن يفعل شيئًا آخر سوى النظر إليها هكذا، فهو المقصود بكل ما تفعل.

تردد قبل أن يحرك شفتيه. قال :

- نريد. نريدك أن ترقصي لنا، كما رقصتِ بالأمس.

قالت في دلال :

- متعبة اليوم.

حار حنفي بماذا سيجيبها. لم يكن يظن أنها ستجيبه هكذا. عندما يخرجون، سيقول له رفاقه إنها خذلته. وإنه ليس المعنى بكل أفعالها كما يبدي.

- وحياتي عندك أرقصي.

أجل. هكذا يكون الكلام. حتى يثبت لهم أنه قادر على أن يفرض عليها ما يشاء. وأن حياته غالية عندها.

قالت في تثاقل :

- لأجل خاطرك، سأرقص.

وهي ترقص، سمعوا جلبة في الخارج. وصياح، وضحكات وسباب. توقفت عن الرقص. نظروا جميعًا ناحية مدخل الكوخ. ثم أسرعوا إلى الخارج. وجدوا حشدًا من المساليب يلتفون حول كلبين ملتصقين.

ضحكت روايح في فرح طفولي. ثم قالت :

- تعالوا لنشاهد هذا.

النسوة يضحكن في تمايل، وامرأة ترمي الكلبين بالحجارة. فيتراجع الكلب الضخم ويئن. فيجر معه كلبة صغيرة سوداء. فيتحشرج الصوت

داخلها.

تصفق روايح سعيدة :

- كلبة مهدي ستموت. كل يوم يحدث لها هذا.

وترمي امرأة أخرى بحجر، فيصيب الكلبة السوداء. فتصدر نباحًا ضعيفًا متقطعًا. تحاول أن تبتعد. فتزداد ألمًا، ويعود صوتها بالنباح.

- ١٧ -

أمر عارف بأن تجهز الحجرة البعيدة - لكي يقضي بها آدم عثمان أي وقت يشاء.

قام مسعود السقا بتجهيز الحجرة، ودهشت سندس. أرادت أن تعترض. فخافت ثورة عارف. التي تحدث لأقل شيء.

لقد انكشف لها مدى خطؤها عندما ظنت أن حبه لها سيأتي مع الأيام. كان لابد أن تدرك أنه من المستحيل أن يعطيها ما كان يعطيه لكوكب.

لقد كان يعاملها قبل أن يصبح عمدة -في لا مبالاة- وكان ذلك يسؤها. فما بالها الآن. وهو يكشف لها عن كرهه في كل وقت. خاصة بعد خلافه مع والدها هارون.

قالت ياسمين معترضة:

- الحجرة التي كان منصور عشرة يقضي بها معظم وقته، تشغل لمسلوب؟!

- اصمتي يا امرأة. ولاتتدخلين فيما لا يعنيك.

تعرف سندس ما كان بين المرأة ومنصور عشرة. وتعرف أنها ما زالت تنعى أيامه السعيدة معها.

طلب آدم عثمان من عارف أن يقضي وقته في حجرة بعيدة عن الحركة. وعن الدخول والخروج. حتى يتمكن من صنع ذلك السحر العجيب.

أغلق آدم الباب خلفه. وصاح عارف في مسعود السقا وباقي الخدم بأن يلبوا أوامر آدم.. ردد مسعود في نفسه:

- على آخر الزمان أخدم مسلوبًا.

لم يكتف عارف بهذا بل صاح في امرأته قائلاً:

- سيقضي آدم عدة أيام في الحجرة البعيدة. اهتمي به فهو في ضيافتنا هذه المدة.

- المسلوب في ضيافتنا؟!

- أجل. ما شأنك أنت؟!

رقصت كلمات كثيرة فوق شفتيها ، لكنها لم تخرج فقد أخفتها سندس كلها، توارت بعيدًا عنه..

***

ضحك هارون.. وهو جالس في حديقة قصره عندما أبلغه أحد خدمه أن الباشا خير الدين قد وافق على تعيين فهمي العجل شيخًا للبلد.

فهارون يعرف فهمي منذ أن كان لصًا، يسرق الدواجن ويبيعها في الأسواق البعيدة، ثم انضم إلى مطاريد الجبل الشرقي، وتزوج من سليمة التي تكبره بسنوات قليلة، فأعانته بمالها وأرضها التي ورثتها عن زوجها السابق، وأعادته إلى بسونة وجعلته يبتعد عن طريق الليل والمطاريد.

بعد هذا كله يصبح شيخًا للبلد، أي مأساة تلك التي تعيشها بسونة؟

مسألة أخرى تؤرقه ويخشى على ابن أخته منها، وهي أوراق التنازل عن الأرض، التي وقعها الناس لعارف حتى تصل ملكيته للأرض، للنصاب القانوني الذي حدده القانون للعمدة.

ذلك التنازل صوري، ليمكنوا عارف -ابن قريتهم- من العمودية.

يخشى هارون أن يطمع عارف في الأرض، وينزع ملكيتها منهم، وحينذاك سيكون القانون في صفه، ولن يكون التنازل صوريًا.

وأحس هارون أن سندس ابنته غير مرتاحة، تزوره في قصره، شاردة حزينة، كأنها تود أن تقول له شيئًا ولا تقدر:

- بكِ شيء يا سندس؟

تردد ثم تصيح:

- كلا.. إنني في غاية السعادة مع عارف.

حديثها هذا يجعله يشك أكثر.

لقد رفض أبوه العمودية، عندما عرضها عليه الباشا خير الدين، وهو أيضًا يرفضها.. لو أرادها لكان أخذها منذ زمن بعيد، لقد كان يجد في عارف -ابن أخته- شبابه الحائر، الباحث عن العلم، والكاره لهذه الحياة المملة في بسونة، ولولا الأشياء التي تربطه بها لهجرها منذ زمن بعيد. لم يكن يظن أن عارف سيتغير هكذا.

ردد لنفسه:

- ربما ذلك أمر طارئ وسيعود ثانية إلى هدوئه وصفائه.

***

بعد ثلاثة أيام لا أكثر، خرج آدم عثمان من الحجرة البعيدة في بيت

منصــور عشرة، حاملاً إناء بـــه ماء، لم يره أحد، فقد كان الوقت قبل الفجر بقليل.

مسعود السقا يطوف الشوارع مناديًا للصلاة، حتـى يسـتيقظ النيـام، استعدادًا لصلاة الفجر.

سار آدم في طريقه إلى المراغة، سكب بعضًا من ماء الإناء وهو يعـزم، ثم سكب بعضه قبل أن يصل إلى "الجزجة". طوال الطريق وهـو يسـكب المـاء ويردد بعض الكلمات بفم مزموم، ووجه جامد، حتى وصل إلى بيـت كوكـب في المراغة، فألقى الماء المتبقي فوق عتبة الدار وعاد.

لم يعد إلى بيت منصور عشرة، إنما ذهب إلى النخل، الذي ابتعد عنـه طيلة ثلاثة ليال، الكل داخـل الأكـواخ. نبحـت الكـلاب تمسحت في سـاقيه وملابسه.

دخل كوخه، نام بجوار سارة التي تحتضن ولديها.

***

لا يدري عارف ما الذي حدث لـه، لقـد صـارت كوكـب تشـاطره عمره، بل تأخذ أكثر مما يأخذ هو، الوقت كله لها. لعل آدم أخطـا في تركيبتـه السحرية، فجعله يحبها أكثر مما كان.

يمر الوقت، ولم يبدأ عمله الحقيقي كعمدة للمراغة، لم ينتقـل إلى بيتـه الجديد في مقر العمودية.

البيت في حاجة إلى أرض جديدة، وبناء وأثاث يتناسـب مـع مكانتـه الجديدة، لكن من أين يأتي بالمال. لن يستطيع أن يقـترض مـن خالـه، بعـد مـا حدث بينهما.

يجيؤه فهمي العجل -شيخ البلد الجديد- حزينًا:

- لم تمارس العمل بعد يا عمدة، لابد من ذهابك إلى المراغة.

- أجل.. لكن بعد أن أنهي بعض المتعلقات في بسونة.

فهمي العجل لا يفهم ما يحسه، ولن يفهم، لهذا لا يجب أن يخبره بشيء.

لا شك أن آدم يكذب، فهو غير قادر على صنع شيء من أجله. لكنه قتل الديك أمام الناس جميعًا بجرة قلم. آه. لو يجد له علاجًا للنسيان، حتى يرتاح من هذا تمامًا، ويهتم بالعمودية وسندس....

***

أرسل الحاج رشوان في طلب رزق. منذ أكثر من أسبوع لم يره. رسول الحاج رشوان يلح :

- العمدة قال لي لابد من حضورك.

ليست له رغبة في الخروج:

- أتظن أنك خفير لم تزل، لقد ضاع كل شيء، لا أنت خفير ولا هو عمدة.

- أجل.. لكن العمدة رشوان قلق من أجلك.

صاحت كوكب في غضب:

- اذهب مع الرجل، أم تريد أن تظل في البيت إلى الأبد.

تغيرت كوكب هذه الأيام، لم تعد تهتم به كما كانت، تسخر - الآن- من جسده الممتلئ، ومن نومه الدائم في فراشه. بل تركت له الفراش ونامت مع طفلتها في حجرة أخرى. قالت بلا حياء:

- ما عدت أطيقك.

منذ أن تزوجها وهي مثال المرأة المحبة لزوجها، وبيتها وطفلتها، فما الذي غيرها هكذا؟ ربما -هو- قد أسرف في كسله ونومه، مما سبب لها ضيقًا، أجل.. أرضه تركها لعماله، و لم يعد يحدثها عن أحلامه بأن يكون شيخًا للبلد، ثم عمدة بعد ذلك. دمر عارف كل أحلامه، ولكي يسخر منه أكثر، جعل فهمي العجل -الذي يطارد الغوازي والمسلوبات- شيخًا للبلد.

نظر إلى كوكب في صمت، رسول العمدة رشوان يتابع ما يحدث بينهما في دهشة.

قام رزق، وضع قدميه داخل مداسه، وسار مع الرجل دون قول.

سارا معًا، رزق يطرق برأسه، والرجل يتبعه، يود لو تحدث معه في أمر النساء. فلا شك أن شيئًا قد حدث بينه وبين زوجته كوكب.

قال العمدة رشوان:

- رزق، ظننتك مريضًا.

صافحه في برود، بينما شده رشوان إليه وقبله:

- لماذا لم تأت إليّ؟

- أحس برغبة في أن أبعد عن الناس.

أغلقت كوكب الباب في وجهه عندما أرادها، قالت:

- نجوم السماء أقرب لك.

إنها لم تكن ترفض له طلبًا، كانت تساعده في لبس حذائه (حيث أن كبر بطنه يجعل ذلك عليه صعبًا).

- أجننت؟!

- جن يلخبط مخك. الجنون أن أرضى برجل مثلك.

- أنت تعيشين معي منذ سنوات، أنجبنا طفلتنا.

- ليت هذا لم يحدث!

شكا للحاج رشوان ما فعلته معه. فقال له:

- عد إلى حياتك العادية، أخرج كل يوم في الصباح، باشر أرضـك، بقاء الرجل طوال الليل والنهار في البيت يجلب الفقر، ويجعل المرأة في حالة غـم دائم.

أطرق رزق برأسه و لم يرد.

ضربه رشوان فوق ساقه قائلاً:

- دعك منها الآن، إنني أفكر في الذهاب إلى الباشا خير الدين.

نظر إليه رزق دون أن يجيب.

- أجل، سأقول له أن ما حدث كان خدعة.

وقف رزق:

- أتظن أن الباشا يمكن أن يعيدك ثانية.

- اجلس يا رزق لنتحدث.

- لن أستطيع.

***

فعل رزق ما أشار به العمدة رشوان، رجع إلى أرضه ومـارس حياتـه كما كان، قبل خلع رشوان من العمودية. لكن كوكب تزداد ضيقًـا بـه يومًـا عن يوم، حتى صاحت به اليوم غاضبة:

- طلقني يا رزق.

- لا حول ولا قوة إلا با لله، واستطعت قولها؟!

– أجل. ولن أكف عن طلبها، حتى تطلقني.

– والطفلة يا كوكب؟!

– لست أول مطلقة لديها طفلة.

– اهدئي، وقولي ما الذي يغضبك مني.

– كل شيء، إنني أراك قردًا.

ثار رزق، لطمها فوق وجهها، صرخت، لعنته، ولعنت أهله جميعًا.

- ١٨ -

بينما كان عارف وفهمي العجل مشغولين ببحث بعض الأمور، دخل آدم.

ارتبك عارف وكف عن الحديث الهام الذي كان يبحثه مع فهمي العجل:

- معذرة.

ثم أمسك ذراع آدم، وذهب به بعيدًا.

- ماذا فعلت بي، لقد صنعت السحر بالمقلوب، الوجد والصبابة أصابتا قلبي لا قلبها.

- يا عمدة، لقد فعلت ما أمرتني به.

- لكن......

- سأحاول مرة أخرى.

ضاق فهمي بما حدث، أيخفي عارف عنه سرًا بينه وبين هذا المسلوب، وهو شيخ البلد ونائب العمدة.

- معذرة يا فهمي، ماذا كنا نقول؟

نظر فهمي في ضيق إلى آدم، الذي جلس بينهما:

- كنا نتحدث عن المبلغ المطلوب لبناء قصر لك في المراغة.

- أجل.. قصر كبير يتناسب مع مكانتي الآن كعمدة.

- خالك هارون يمتلك قطعة أرض بناء في المراغة.

صاح عارف مقاطعًا:

- دعك من خالي الآن، فأنا أحاول أن أبتعد عنه أكثر.

- لا أعتقد أن هناك غيره يمكنه أن يقرضك مبلغًا مثل هذا.

قال آدم:

- يمكنك الاقتراض من البنك. برهان أرضك الزراعية.

مط فهمي شفتيه، فهم يعرفون أن البنك يقدم قروضًا بضمان الأملاك، لكن لا يستطيع أحد أن يقدم على ذلك بعد أن شاهدوا بأنفسهم أناسًا اقترضوا من البنك، فحجز على أملاكهم وباعها، وكانوا عبرة في البلد.

قال عارف:

- كلنا في بسونة نخاف التعامل مع البنك.

-وما الذي يخيفك ما دمت ستدفع الأقساط من إيراد أرضك الزراعية.

نظر عارف إلى فهمي متسائلاً:

- ماذا ترى يا فهمي؟

- لا أعرف شيئًا عن البنوك.

قال آدم في ثقة:

- لكنني أعرف هذا جيدًا، ويمكنني أن أدلك على مكان البنك في سوهاج.

خرج فهمي من المجلس غير راضيًا. وبقي آدم مع عارف.

دخلت حسنية وجلة. تخفي وجهها بطرحتها السوداء.

- أهلا بك يا خالة حسنية. تفضلي.

قام آدم مبتسمًا:

- أستأذن يا عمدة.

- ماذا حدث يا خالة حسنية. أراك على غير عادتك.

نظرت إلى آدم. حتى خرج من الباب:

- البنت كوكب.

- ماذا بها؟

- عادت من المراغة غاضبة. ولا تريد أن تعود إلى زوجها. وأنت مثل أخيها؛ والعمدة الآن.

- أجل، أجل.

كان شاردًا فيما حدث. ها هو سحر آدم يأتي بمفعوله، فتعود كوكب إلى بسونة. وهي التي كانوا يحكون عن مدى طاعتها وانصياعها لزوجها.

- ما رأيك يا عمدة؟

- لا تحزني. سوف تعود إلى زوجها بعد قليل.

ود عارف لو صحبها إلى بيتها ليرى وجه كوكب. الذي يشتاق إليه كثيرًا.

ذلك سوف يحدث بعد قليل. فهو العمدة الآن. ومن حقه دخول كل البيوت. والسؤال عن أصحابها، وحل مشاكلهم.

كما أن كوكب ليست غريبة عليه. فهي متربية معه.

***

سار رزق القصاص فوق الجزجة. أول مرة تخرج كوكب دون أن تستأذنه. لقد ضربها قبل أن تخرج. أجل. هي غاضبة منه، زيارتها لبيت أمها. ليست زيارة عادية هذه المرة.

فكر في أن يأخذ الحاج رشوان - قريبه - معه. لكنه أحس أن الموضوع لا يستحق هذا. فربما لا تبدي كوكب غضبها أمام أمها. وتعود معه دون حديث أو عتاب.

قامت كوكب حينما رأت رزق. دخلت حجرة أخرى. قالت حسنية:

- أهلاً بك يا رزق، خطوة عزيزة. ما الذي حدث بينك وبين كوكب؟

- منذ أن تزوجتها وهي خير الزوجة الوفية. لكن الشيطان يا حماتي.

- على أي حال هي ليس لها سوى بيتها. وأنت لن تستغنى عنها.

- أجل يا حماتي، أنا لا أستطيع الاستغناء عنها.

خرجت كوكب من حجرتها، قالت في عناد:

- لكنني أستطيع يا رزق. ولن أعود معك.

صرخت حسنية بها:

- بنت، أجننت؟

دخلت حجرتها باكية. قالت حسنية. لتخفف عنه تأثير كلمات كوكب له:

- لا تهتم بقولها. ضربك لها أغضبها. وسوف أدخل لأحدثها.

جلس رزق وحده، ينظر إلى السقف في أسى ، ما الذي جعلها تعانده هكذا. أهو ضياع المشيخة منه، والعمودية من رشوان.

- يا ابنتي. الرجل لو أساء إليك . فحضوره - هكذا - يغفر له هذا.

- مهما فعل. لن أعود إليه.

عادت حسنية كسيفة، جلست دون قول. أحس رزق بما حدث. ابتسم قائلاً:

- لا بأس. سوف أعود مرة أخرى. لعلها تلين.

***

ألف صالح كوخ بهانة. يقضي به أوقاتًا طويلة. يجلس فوق الفراش الجريدي، وبجواره جاد بن قناوي. يتحدثان. وأمامهما بهانة تصنع الشاي لهما.

عينا صالح تتابعان وجهها الدائري الأسمر. وذقنها القصير المدبب. وخداها الموردان. تحكي عن أشياء كثيرة. فهي أكثر المسلوبات حبًا للحديث، وأقدرهن عليه.

تقول أنها لم تكن مسلوبة. وأن أشياء أخرى اضطرتها للانضمام إليهم.

وصالح لا يهتم. فكل المساليب يقولون هذا. الرجال والنساء. والكل يعلم أن المسلوب ولد مسلوبًا. وأنه ابن عن جد كان مسلوبًا.

أو أن تقول إنها صغيرة جدًا. لا تتعدى الثلاثين. ثم تضحك عندما تتذكر أن لها ولدًا كبيرًا اسمه جاد:

– لا تظن أني كبيرة لأنني أم جاد. فقد ولدته على "طراطيف" أصابعي، كنت ألعب في الشارع وأنا حبلى به. ولم أكن أعرف كيف ألقمه ثدي. الولد جاد صغير السن. لكن منظره كبير. أصله "عفي". يضحك صالح، يؤيد قولها. ويدفع بقدمه ناحية جسدها. فيزداد خداها احمرارًا. وتنسدل رموشها المكحلة حياء.

تغلق عينيها وتنتشي. صالح يعيد إليك شبابك الذي طالما تمسكت به. لا تكفين عن النظر إلى وجهك في المرآة القديمة الملقاة في حاجياتك. ورسم عينيك، والاغتسال كثيرًا. رغم قلة ماء المساليب.

قناوي لم يعد يستطيع شيئًا. ساقاه شاختا، يترنح وهو سائر كأنه مقيد القدمين برباط.

في أول مرة نظر إليكَ صالح نظرته الظمأى. علمت بما يريد. نمت سعيدة تفكرين..

أجل صالح نعم الشباب. جسده قوي. وملامحه لم تعهديها في كثير من المساليب .

لكن أنت تكبرينه بكثير. جاد ولدك في ند عمره تقريبًا. وقناوي الملقى بجوارك كرداء متسخ معلق فوق ظهر الكوخ، لا يتحرك فيه سوى أنفه المدبب، من أثر الشخير. منذ متى لم تضطجعي له. أتظنينه يقدر؟

دمها يفور. جاد في الخارج. ورورايح تنام في زاوية بعيدة. لفت بهانة جسدها الفائر، التصقت بركبة قناوي المرفوعة لأعلى. جافة كالجريد. أمسكته من ركبته، قالت:

– قناوي، قناوي.

ارتفع شخيره، ومدد ساقيه. فابتعدت ركبته عنها. أثنت ساقيها واعتدلت. اصطدم ظهرها بخيش الكوخ المشدود. وضوء المصباح الخافت يداعب عينيها في حنان. وضعت يدها فوق وجه قناوي، لم يتحرك. طول النهار يجر ساقيه. ينحني، يتكلم، لم يعد الآن فيه شئ يجيب.

لامست رأسه ساقيها، شعرت برجفة تسري في جسدها، تهزها.

دمعتان داعبتا عينيها. ثم أسلمت جسدها كله لهزات نشيج بكائها.

في الليل حلمت بصالح يشدها لجسده ويتلاصقان.

في الصباح غنت. قال قناوي:

– يا فتاح يا عليم.

صمتت. لم تداعبه ككل يوم. لم تشعر بكرهها له سوى بالأمس فقط. كانت قبل ذلك تضحك معه. لكنها الآن لا تريد أن تراه. ما زالت تبدي صدها لصالح. وإن كانت تود لو قام وشد شعرها مداعبًا.

في بعض الأحايين، وعندما تتملكها النشوة. تود أن تقوم وتقتل ابنتها روايح حتى يخلو لها المكان معه.

روايح لم تحس بشئ. فصالح يأتي في أي وقت، أحيانًا مع جاد، وأوقاتًا كثيرة في حضور قناوي. لكن آسيا لفتت نظرها، سألتها يومًا:

– لماذا يكثر صالح من الذهاب إليكم؟

– وماذا في ذلك؟

– ربما يريد أن يتزوجك.

أبدت روايح عدم اهتمام. لكنها تغيرت بعد ذلك. عرفت طريق الرماد الذي تصنع منه كحلاً. وأكثرت من الذهاب إلى الترعة. وفي يدها

قطعة طوب حمراء. لتحك بها ساقيها وقدميها.

روايح جميلة فيها الكثير من أمها. لكنها لا تعرف ما يفعلنه المسلوبات. لهذا تابعتهن في جدية. نقلت عنهن نظرتهن عندما يرغبن في رجل. وعندما جاء صالح. ابتسمت له. ونظرت إليه في وله. قال:

– جاد موجود؟

– تعال بالداخل لتنتظره.

تردد ثم دخل. جلس على الفراش الجريدي صامتًا وهي تتابعه بنفس النظرة التي تعلمتها من المسلوبات حديثًا.

***

تابعت آسيا ما يحدث في خيش المساليب بشئ من الدهشة. الزحام يقلقها. عيون جديدة كثيرة تتابعها وهي سائرة. كلمات تلاحقها من أفواه المسلوبات الجديدات.

تحلم –هي– بالأغراب. لكن الأشياء لا تأتي كما تريد. كان من نصيبها مسلوب كسائر المساليب. والأغراب للأخريات.

فتيات جديدات. أكثر منها جمالاً، يرافقن الأغراب. ويضحكن. يجدن الضحك أكثر من أي شئ آخر.

تجاهر آسيا الآن بعلاقتها بجاد، تسير معه بين الخيش. تضع يدها في يده. وتدعه يقبلها أمام الجميع. تعمدت أن تضع يدها فوق ظهره، عندما رأت آدم عثمان آتيًا إليها.

نظر إليها طويلاً في صمت ثم أطرق إلى الأرض وسار دون قول.

المسلوبات الجديدات يرافقن الأغراب من أجل الثمن. آسيا لا تحب

هذا، لا تبيع ذاتها لأحد. كانت قبل ذلك تأخذ الثمن كي لا تموت جوعًا.

جاءها جاد في الخيش، بعد أن قابلها بجوار ضريح الشيخ صاحي. لم يكن هناك سواهما. فسويفي يحمل ربابته ويطوف البلدان.

آسيا تنتظر اللقاء في شوق. وجهها الأصفر يميل للاحمرار الآن مشطت شعرها، رمت ضفيرة فوق ظهرها ثم أخرجت الكحل ورسمت عينيها.

أخذت تدعك خديها بأصابعها ليحمرا. دخل جاد يلهث:

– آدم عثمان رآني وأنا أدخل الكوخ.

عقدت رباط الباب. وازدادت شوقًا. ملعون أبو آدم وسويفي. أرخت جفنيها. وتدلت شفتها السفلى. ثم اقتربت منه. ألقت بيدها العارية على كتفه.

– أقول لكِ أن آدم رآني أدخل الكوخ.

مالت برأسها نحو وجهه. تلاصق خدها بخده.

– ملعون أبو آدم. لا تذكر الآن سواي.

دفعته نحو السرير الجريدي.

كان هو قد تمالك نفسه. شعرت بيد ملساء تداعب ظهرها. ورائحة قريبة من رائحة الأغراب.. لعل سبب هذا. إنها شديدة الاشتياق.

بعد لحظة قصيرة لم تتمالك نفسها. هبت ناحيته مسرعة.

عندما يلقاها آدم. ينظر إليها في غضب. لكن لم يفاتحها في شيء.

***

كانت الجلسة في الحجرة الملاصقة للحديقة في بيت هارون. حيث الزجاج الذي يبدأ من الأرض، ويصل إلى السقف. فيكشف عن الأزهار التي

أحضرها هارون من "مشاتل" سوهاج وأسيوط والقاهرة وارتدى ملابسه الرسمية: عباءته المطعمة بالقصب. ونظارته ذات الإطار الذهبي. ووقف أمام الباب الكبير، مستقبلاً ضيوفه، صافح الجميع حتى عارف.

لقد كان هارون يعيش في عزلة. حتى المسجد لا يذهب إليه إلا في صلاة الجمعة. قرأ كثيرًا في ذلك الوقت. وتأمل كثيرًا. وكان يظن إنه لن يجالس أحدًا. لوقت طويل. لكن الحاج رشوان جاء إليه مع رزق، وطلبا منه أن يعقد اجتماعًا في بيته، وذلك لإعادة كوكب إلى زوجها.

وكان اختيار بيته. لأن الحاج رشوان لا يرغب في دخول بيتًا آخر في بسونة سواه..

فكر عارف في عدم الحضور لكن قلقه على مصير كوكب، جعله يوافق فهو يريد أن يعرف ما سيحدث، يخشى أن ينتهي الوضوع على خير. وتنتقل كوكب إلى بيت زوجها في المراغة.

رزق يتودد إلى هارون، يشعل له سجائره. وعارف يجلس بعيدًا. يتابع ما يحدث في ضيق. فتلك محاولة من رزق لاستمالة هارون إليه.

الحاج رشوان كاره لبسونة. ولعائلة منصور عشرة، فكلهم تآمروا عليه. وأخرجوه من العمودية. لكن ماذا يفعل والولد -رزق- يبكي لفراق كوكب. أبله. النساء كثيرات. تذهب هي في ستين داهية ويزوجه أحسن منها.

بدأ الحاج رشوان حديثه:

– إننا أسرة واحدة من قبل أن أكون عمدة على القصاص والمراغة معًا. منذ زمن بعيد وعائلاتنا متصلة ببعض في المعاملة والمصاهرة. واختياري

للمراغة. لتكون مقرًا للعمودية. كان لحبي الشديد لها. والدليل على ذلك، أنني فضلت أن أظل في بيتي كما أنا.

قال هارون:

- أجل. وهذا ليس في حاجة لتأكيد.

وبدأ فهمي العجل يذكر أسماء العائلات التي اتصل بعضها ببعض عن طريق المصاهرة في القريتين، حتى ضاق هارون فصاح:

- فلنعد إلى موضوعنا يا فهمي.

قال رزق:

- لقد عاملت زوجتي أحسن معاملة. ولم أسئ إليها أبدًا. ولا إلى أهلها.

قال عبد الوهاب البقال:

- وبسونة كلها تعرف هذا.

قال الحاج رشوان:

- ماذا حدث إذن. بين رزق وامرأته؟

قال فهمي العجل:

- الرجل وامرأته مثل القبر وفعايله. لا يعرف ما يحدث بينهما سواهما.

أكد عارف على قوله:

- أجل. أجل.

صاح رزق:

- لكن أنا وزوجتي.......

قال فهمي العجل مقاطعًا:

- يا سادة. الموضوع متعلق بطرف آخر نسيناه. لنحضر كوكب لنسمع رأيها.

قال الحاج رشوان:

- ليس هناك داع لهذا. فلننه الموضوع. وتذهب كوكب إلى بيت زوجها. ويا دار ما دخلك شر.

قال عارف:

- الأمر ليس بهذه السهولة يا حاج رشوان.

ضاق رشوان بعارف وحديثه:

- لا تشعلها نارًا يا عارف.

قام عارف غاضبًا:

- أنا العمدة الآن يا حاج. من حقي......

ابتسم رزق للحاج رشوان. لكي يتحمل غضبة عارف من أجله. وإلا ذهبت كوكب منه إلى الأبد.

- يا حاج رشوان، العمدة عارف لا يقصد أن يسيئك بشيء.

زفر الرجل وصمت. ليتحمله من أجل قريبه، هذا الأبله الذي سيموت لأن امرأته تركته.

قدم خدم هارون القهوة المحوجة التي اشتهر بها بيت الوجيه الأمثل منذ عهد بعيد. ودارت السجائر أخذ هارون يرشف قهوته في صمت. فقد أحس أن هناك محاولة من عارف لكي لا يعيد المرأة إلى زوجها.

جاءت حسنية. أخفضت وجهها وأخفته بوشاحها، وصافحت

الجميع. وظلت واقفة.

قال الحاج رشوان:

- يا حسنية. رزق يريد (بيته).

قالت وهي ما زالت تخفي وجهها بوشاحها:

- كان بودي يا عمدة لكن.

- الموضوع سهل يا حسنية.

- الزواج قسمة ونصيب.

قال هارون:

- الطلاق صعب. خاصة أن ابنتك لديها طفلة صغيرة.

- كان بودي يا سيدنا الشيخ. لكن ابنتي تهدد برمي نفسها في الرياح. لو عادت إليه.

صاح رزق غاضبًا :

- لماذا. ماذا بي؟

قال عبد الوهاب البقال، الذي يهمه أن تكون علاقته حسنة بأهالي النجوع المجاورة. ليشترون منه البقالة.

- نعم الصهر يا رزق.

قال الحاج رشوان غاضبًا:

- أجل. كل شيء قسمة ونصيب.

اعتبر أن هذه طعنة جديدة من بسونة لصدره. وكان لابد أن يخضعوا لإرادته. بعد أن كلّف نفسه وجاء إليهم رغم ما فعلوه به.

- وحق الله سيتم الطلاق الليلة. وسأزوجه فتاة ليس لها مثيل في

جمالها ومالها.

أراد فهمي أن يرد عليه. لكن عارف شده من ملابسه. فقد كان فرحًا لوصول الأمر لهذه الحالة.

قال هارون بعد أن خرجا :

- ما كان يجب أن يخرج الرجل من بيتي هكذا.

قالت حسنية باكية:

- خفت أن أخسر ابنتي.

لم يجبها. لكنه تركهم في حجرة بيته. ودخل حجرة نومه حزينًا.

- ١٩ -

ازداد وجه سندس شحوبًا. لم يعد شيخها يسأل عنها كما كـــان. وكان يجب أن ترتاح هــذه الأيام، فزوجها صار عمــدة. والخدم كثروا في المنزل. بل أن العديد من نساء بسونة يأتين إليها ليخدمن في بيتها دون مقــابل، محبة في العمدة.

لكن قلقها على شيخها هو الذي يهزلها. ويصبغ لونها هكذا. حتى صار جسدها كعود حطب يابس.

عارف كان أكثر أمنًا قبل أن يصبح عمدة. فقـد كـان يخشى أباهـا هارون، ويعمل حسابه. لكنه الآن يختلف معـه. ويضيـع وقتـه بين المساليب وكوكب. الرجل ما زال يحبها. هي امرأة وتنهم هذه الأشياء جيدًا. يريد أن يعيد الـود القديـم. يزورهـم الآن. ويعرض خدماتـه. ويحضـر الاجتماعـات لإعادة كوكب إلى زوجها رزق.

أكانت ناقصة. حتى يغضب رزق من كوكب، فيضربها. فتأتي إلى بسونة. وتعيد إليها الآلام والخوف من المجهول؟!

تسمع صوت آذان العشاء من المسجد المجاور. وهي تستعد للنوم بعد عناء اليوم كله. لكنهـا رغـم التعب لا تنام. تسمع صوت نبـاح كـلاب المساليب آتيًا من أرض النخل. تبقى هكذا حتى الفجر.

يقولون أن عارف أعاق الصلح بين كوكب ورزق. لا شك. فهو يريدها لنفسه.

أجل. فهذه سابقة لم تحدث من قبل. أن يأتي رجل في قدر الحاج رشوان. كان عمدة. وما زالت أرضه في قصاص والمراغة. يجري فيها رهوان فلا يأتي على آخرها. ثم يعيدونه دون أن يلبوا طلبه. حتى لو كانت كوكب رافضة لرزق، لأجبروها على العودة إلى زوجها. من أجل رجل مثل هذا.

لم يعد مهمًا لعارف. أن يعود إلى بيته. أو يقضي لياليه خارج الدار.

***

لقد نجح آدم عثمان في السحر الذي أعده في حجرة منصور عشرة، ورشه طوال الطريق من بيت عارف حتى بيت كوكب في المراغة. وأدى إلى طلاق كوكب.

يقولون أن رزق بكى يوم أن خابت مساعيه في الصلح. وأن الحاج رشوان دفعه غاضبًا:

- تريد أن تفضحنا. لعنة تلعنك وتلعن كل ما يتصل بها من صلة.

حسنية حائرة فيما يحدث. رزق منذ أن صاهرته وهو نعم الزوج. يحترمها، ويعاملها بأدب. فما الذي حدث لابنتها؟!

البلدة تنظر إليها نظرة غريبة. لقد أعادت ابنتها الآلام إليها. أيام أن شك رضوان - زوجها - فيها وجعل الناس ينظرون إليها في شك.

تبكي حسنية من الألم. تود لو ضربت كوكب. وأعادتها إلى زوجها، ووالد ابنتها بالقوة. لكن البنت تهدد برمي نفسها في الرياح، مثل

شوق الغازية.

جاء عارف إليها، قال:

- إنني مستخسر كوكب في هذا القصاص.

قالت حسنية غاضبة:

- لكنه والد ابنتها يا عمدة.

فهمت حسنية مقصده. من أجل هذا كان ضد رجوعها لزوجها في مجلس الرجال.

- ماذا يا خالة حسنية. لقد كانت كوكب لي منذ سنوات.

- ذلك أمر بعيد. وتزوجت كوكب. وأنجبت.

- ولو يا خالة حسنية. حتى لو أنجبت عشرة، أريدها.

- وماذا يقول الناس عندما تتزوجك.........

خرجت كوكب من حجرتها. بعد أن أكملت زينتها:

- لن أهتم بحديث الناس يا أمي.

تابعت حسنية الإثنين وهما ينظران إلى بعضهما في شرود وصمت.

***

بهانة قامة قصيرة. وخصر نحيل. وساقان مصبوبتان صبًا. ورغبة محمومة للذة. قناوي يزداد هرمًا يومًا بعد يوم. ساقاه ترتعشان. وظهره ينحني.

تخرج من وقت لآخر قطعة المرآة الصغيرة. وتنظر إليها.

ازداد العبء على ابنتها روايح. تكثر بهانة الآن من الاستحمام. الماء ينفد. تصرخ في روايح طالبة ماء من الترعة. تغيرت بهانة كثيرًا. لم تعد

تهتم بابنتها، ولا يأي شيء سوى نفسها وصالح. تتغيب كثيرًا عن عملها. تقول في تكاسل:

- متعبة. لن أستطيع.

تعود ثانية إلى النوم. حتى عندما تذهب إلى العمل. لا تعود بما كانت تعود به من قبل.

الناس لا يدفعون إحسانًا لامرأة متزينة. وأصبح شائعًا عنها، قيامها بعمل "الحلاوة" التي تزيل بها الشعر العالق في جسدها. ليزداد وجهها وجسدها بريقًا.

يشمون رائحة السكر وهو يحترق فوق النار. فيأتون مسرعين إلى كوخها. يرددن:

- قناوي لم يعد فيه رمق. فلمن تتزين بهانة؟!

لا تهتم بأقوالهن، تلح وهي تتسول أن يعطيها الناس سكرًا. تسير في النخل. تلوك "اللادن" وتهز ردفيها. ينتظرها صالح خارج البلد، يسيران معًا:

- بنت يا بهانة. ماذا ترى لو تركت قناوي وعشت معي.

تبطئ السير، تتوقف كلية. تصرخ فيه:

- أترك قناوي وروايح وجاد ؟!

يمسك يدها. ينحني ليصل لرأسها.

- افهمي. تذهبين معي. لترقصي في الموالد. جسدك يصلح لهذا. وستلقين أموالاً كثيرة.

ضحكت بهانة. هذا الولد يريد أن يميتها كمدًا. أخرجها من التبوت الذي كان قناوي يضعها فيه. والآن يريد أن يقدمها كعروس مولد.

تباع في الأسواق.

أرادت أن تقول "كيف وقد ضاع العمر مني؟!" لكنها تذكرت أنها تحدث صالحًا. وأنها تحاول أن تبدو أمامه أقل عمرًا. كأنها عجوز متزوجة من شاب صغير، تدلله وتخاف أن تغضبه، وتخفي عنه شعيراتها البيضاء بين الشعر الأسود الباقي.

عادت بهانة تلوك اللادن. أمسك صالح بيدها وهما يعبران الجزجسة بين المراغة وبسونة.

فكرت طويلاً في مشروعه: الذهاب إلى الموالد. وهز الوسط، والانحناء. ذلك الولد يصر على أنك صغيرة لعله انخدع بالصورة التي تبدين فيها أمامه، ويصدق ما تقولينه عن نفسك.

تكادين -أنت- الآن أن تصدقينه. أجل. لماذا لا تعود إلى شبابها الذي ضاع معظمه مع قناوي العجوز. سنوات طويلة قضيتها معه. لا شئ في المساء إلا ملامسة ركبتيه النخرتين. تهزيهما فتسمعين الخشخشة داخلهما. وتنامين على صوت تلك الخشخشة كطفل صغير تهدهده أمه.

***

كان جاد في كوخ آسيا عندما دق أبوه باب الكوخ:

- ولد يا جاد. ولد يا جاد.

رفع جاد جسد آسيا عنه، وهب واقفًا. يبحث عن باقي ملابسه. وآسيا تضحك.

- الرجل يعرف أنك هنا.

فتحت الكوخ. قال الرجل في حيرة:

– بهانـة لم تعـد لـلآن. والنهـار كـاد يطلـع. هـي لا تتـأخر أيــدًا. أخشى أن يكون قد أصابها مكروه.

بكى الرجل. أسرع جاد إليه:

– ماذا حدث لأمي بهانة؟

أعاد الرجل نحيبه. عندما رجع بعد المغـرب بقليـل و لم يجدهـا. قـال لروايح ابنته:

– ألم تعد أمك للآن؟

سألها ذلك السؤال عشـرات المـرات. كلمـا اشـتد عليـه آلام سـاقيه تذكرها. يعلم أنها تغيرت هذه الأيام لم تعد تضحك معه كمـا كـانت. تنفـر من رؤيته. ولا تنام بجواره فوق الفراش. تنام مع روايح ابنتها.

جاد لا يحضر إلى الكوخ. إلا قليلاً. أكثر لياليه يقضيهـا مـع آسيا. وقناوي اعتاد أن يسند ركبتيه الطويلتين عند النوم، على جسد بهانة.

– أين أنت الآن يا بهانة؟

ضحك جاد:

– لعلها تقضي وقتها في مولد من الموالد.

أجابه وقد ازداد غمًا:

– إنها لا تفارقني أبدًا. ولا تسهر في الموالد بدوني.

اجهش في البكاء وسار حزينًا.

وعاد جاد إلى كوخ آسيا.

قناوي وحيد. لا يهتم بقوله أحد. حتى روايح لم يؤثر فيها بكـاؤه. فقد نامت وطمأنت نفسها قائلة " أكثر المسلوبات ينمن خارج أكواخهـن، في

الموالد. أو في البلدان الأخرى".

لكن بهانة هجرت بسونة. سارت مع صالح بعد أن سرقت كل الأموال التي جمعتها هي وقناوي وابنتها روايح. هكذا صالح أراد.

وقفت في الموالد. رقصت. اهتزت. ودق صالح طبلته. آلمها جسدها كله. عندما شكت له ذلك. قال:

– لن تتألمين ثانية. فهذه الآلام تأتي عادة بعد أول مرة ترقصين فيها.

دارت بين الجموع. يلتصق ردفاها بأجساد الناس، يخرجون القروش في ابتسامة خبيثة. وتنام القروش في سترة صالح. وتنام هي فوق صدره آخر الليل سعيدة.

***

دار قناوي بين الأكواخ في أسى:

– بهانة للآن لم تعد.

أخذ يعيد الكلمات. مرات ومرات. والأطفال يدورون حوله ساخرين. قالت المساليب:

– جن قناوي. بهانة سلبت عقله وذهبت به.

ازداد وجهه شحوبًا. وجسده شاخ. أيام قلائل بعدت فيه بهانة عنه. ذهبت بجسده وقوته. لم يعد يخرج كسائر المساليب كل صباح. يصحو من نومه. يرفع رأسه قائلاً لابنته:

– أمك بهانة لم تعد؟

تنظر إليه في أسى ولا تجيبه.

شعرت الفتاة بغياب أمها. مرات كثيرة في النهار. تجد أباها يبكي

كالطفل. تربت على رأسه، يقول:

– أمك حدث لها مكروه. أنا أعرفهـا جيدًا. لا يمكـن أن تـتركني. كانت تضحك وتسخر مني. لكنها تحبني أجل. أنا أعرفها جيدًا.

بكت روايح بحرارة. فأبوهـا لا يخـرج الآن. لا يأتيهـا بـالنقود الـتي كان يجمعها. وجاد مشغول بآسـيا. وأمهـا سرقت كـل النقـود الـتي كـانت بالكوخ. وهي مشغولة بقناوي المريض. لم تعد تقابل حنفي ابن فهمي العجل ورفاقه. ليدفعون لها. قالت:

– اذهب يا جاد وابحث عنها.

ضحكت آسيا ساخرة:

– أهي طفلة لتبحثوا عنها. ستعود حيثما تشاء.

جاء آدم عثمان إلى الكوخ. رفـع قنـاوي نصفـه الأعلـى. ونظـر في الأشياء في شرود. وبعينين حمراوين، وأنف أحمر من شدة الدموع. قال آدم:

– ما هذا يا قناوي. ستقتل نفسك.

أجابه بلغة ممطوطة:

– بهانة لم تعد.

جلس آدم بجواره. ربت على ظهره في حنان:

– ستعود. اطمئن. كل المساليب ستبحث عنها.

– أجل. ابحثوا عنها. جاد ولدي لا يريد. مشغول بآسيا.

شرد قناوي طويلاً. وآدم يلف له سيجارة. ثم صاح فجأة:

– لا تذهب يا آدم للبحث عنها. فقد ماتت بهانة وانقضى الأمر.

ضمه آدم لصدره. دفن الرجل وجهه في صدر آدم وبكى:

- لا تكن صغيرًا يا قناوي

في الصباح قامت روايح لتوقظه من النوم، وجدته قد مات.

***

عندما علم نساء المساليب بما حدث. لم يصدقن أول الأمر. كن يظنن أن المساليب هنا في مأمن، لن يأتيهن ضرر، حتى ولو كان الموت.

وعندما علم الرجال أسرعوا إلى آدم. قناوي أول مسلوب يموت في بسونة، لهذا بكى آدم عليه كثيرًا، شعر أنه قد فقد واحدًا من رعاياه.

أين سيدفن هذا المسلوب. في أرض الأغراب مثل سائر المساليب الذين ماتوا في الغربة. فدفنوهم في مقابر الفقراء. لكن هنا في بسونة، حيث المستقر. لابد أن تكون لهم مقابر خاصة بهم.

قال آدم في خضوع:

- يجب أن يكون لنا مدفن خاص بنا.

لم يهتم أحد بقوله. كانوا مشغولين ببهانة التي يعلمون جيدًا أنها ترقص في الموالد الآن. وتنام فوق صدر صالح. لابد أن يذهبوا ليعودوا بها لتحضر جنازته.

كان وجه قناوي حزينًا. ساقاه الطويلتان تتمددان في استرخاء وأنفه الطويل يطل على سقف الكوخ. في ركن بعيد تمتمت النسوة في همس:

- بهانة قتلت الرجل. مات من الحسرة.

أسبل آدم عينيه. دخل جاد مهرولاً. نظر إلى الحشد. ثم إلى أخته روايح. قال لآدم:

- أين أبي؟

آدم لا يتكلم الآن. ما زال يردد كلماته. أشار إلى قناوي بإصبعه.

ازداد الهمس. تحول إلى طنين. إلى همهمات. انكفأ جاد على جسد قناوي المسجى وبكى.

دخلت آسيا الكوخ بعد جاد. نظر آدم إليها وهو ما زال يردد كلماته. ثم عاد ثانية إلى جسد قناوي

كانت آسيا وجلة. تنظر إلى النساء وهي تكاد تتعثر. لم تبك.

***

ذهب آدم وجاد ومهدي لمقابلة الشيخ عارف. ليسمح لهم بقطعة أرض، يتخذونها مدفنًا للمساليب كان الشيخ عارف في الحجرة البعيدة مع فهمي العجل. رحب بهم بطريقة استثارت فهمي قال لآدم:

- بلغني أن زواجك من كوكب قد قرب.

صاح فهمي غاضبًا:

- وما شأنك أنت.

- معذرة، لعلي تجاوزت حدودي.

قال عارف لفهمي:

- لا تهتم. فآدم صار منا.

ازداد فهمي غمًّا. قال آدم:

- لقد مات قناوي.

- البقية في حياتك.

- ولابد له من مدفن.

- مدافننا واسعة.

- لكن لا تصلح لنا.

اقترب فهمي أراد أن يسرع ويأتي ببندقيته، يحصدهم جميعًا ويرتاح:

– لماذا يا آدم؟

– لأن موتانا لا تدفن مع الأغراب.

صاح فهمي غاضبًا:

– ما شأننا بموتاكم.

قال عارف:

– اهدأ يا فهمي. الحديث أخذ ورد.

قال آدم لفهمي:

– لقد سعدنا كثيرًا بتعيينك شيخًا للبلد.

أمسكه فهمي من ملابسه. حتى تحرك جاد ومهدي نحوه. قال آدم لهما:

– أتركاه. فهو ليس غريبًا.

صاح عارف في ضيق:

– فهمي ليس هكذا يكون الحوار.

قال آدم:

– وددت لو دفنته بين موتاكم. لكن ذلك يخالف تعاليم المساليب.

قال فهمي :

– والذين ماتوا في البلدان الأخرى؟

– أفكر في جمع أشلائهم. وضمها لمقبرتنا الجديدة.

صاح فهمي رغمًا عنه:

– ذلك الرجل يخرف.

قال عارف:

- اذهب يا آدم الآن. وسأحضر إليكم في النخل بعد قليل.

وقف آدم. وجاد ومهدي.

- لكن يا شيخنا الميت لابد من دفنه.

- أجل. أجل. اذهب الآن..

خرج آدم دون قول. بينما ظل مهدي ينظر إلى فهمي حتى خرجا من الباب.

صاح فهمي في ضيق:

- لا أدري لماذا تعامل المساليب بهذا الضعف.

- إنه ليس ضعفًا. بل حكمة.

***

يقف عبد الوهاب البقال أمام دكانه. ابنه صابر يقضي وقته مع حنفي بن فهمي العجل، ويتركه في الدكان وحده. لقد ضاق به وبأمه. المرأة تضايقه في البيت. وابنها في الدكان.

فهي تنفق كما تشاء: السمن الذي يشتريه من الفلاحين ليبيعه في الدكان. تأخذ منه. وتدعو صديقاتها وأقاربها إلى بيته ليأكلون. والولد يأخذ من الدرج ويدفع للمسلوبة التي يزورها هو وابن فهمي العجل.

يشاهد عبد الوهاب آمنه - زوجة مهدي - آتية إليه، تحمل صرتها المملوءة بالأشياء. وتحمل طفلتها باليد الأخرى. ابتسم عبد الوهاب لها. ودخل دكانه.

صعدت العتبة العالية. وضعت طفلتها فوق "البنك" وفردت الأشياء:

سكر، بيض، قطع جبن قريش، شاي.. إلخ. بعد مساومة قصيرة. أخرج الرجل نقودًا من درجه وأعطاها لها.

حملت طفلتها وسارت. تابعها وهي سائرة.

جاءت المسلوبات بعد ذلك. الواحدة تلو الأخرى. وعبد الوهاب يساوم ويدفع.

منذ أن جاء المساليب إلى بسونة. وتكاثروا. ودكانه يمتلئ بالبضائع. يأتون إليه بكل شيء. خففوا عنه عناء السفر إلى سوهاج لشراء ما يلزم من هناك.

حتى الدخان يبيعونه له. يحملون إليه كل يومين أو ثلاثة صندوقًا مملوءًا بالدخان الذي يجمعه أطفالهم من شوارع سوهاج. وباقي المدن المجاورة. ويلف عبد الوهاب الدخان في ورق. ويبيع الورقة..

تبيع المسلوبات ما لديهن له. أو تستبدلها بأشياء من عنده: الجاز. الصابون. الحلاوة الطحينية..

تقف روايح خجلة. تتابع آمنة وهي تشتري وتبيع من بعيد. تخاف روايح الأغراب خارج كوخها. داخله تنسى الخوف والخجل. وتفعل معهم ما تشاء. وآسيا تضحك بصوت ماجن. تتحرك كأنها ترقص.

انشغل عبد الوهاب بالشراء. تابعته آسيا من بعيد. كان يحني رأسه يعد النقود، التي سيعطيها لمسلوبة أمامه. الرجل ليس عجوزًا. شعر رأسه العاري لم يبيض بعد. شاربه كثيف وعيناه سوداوتان..

تعرف آسيا أنه ثري وبخيل، يتاجر في كل شيء، يشتري القمح في أرضه من الفلاحين ويسافر إلى سوهاج لشحنه إلى المدن الأخرى، ويتاجر في

السمن والخراف أحيانًا.

تعرف آسيا أنه تزوج امراته الدميمة من أجل قطعة أرض صغيرة، باعها وفتح دكانه هذا.

قالت روايح لآسيا الشاردة بجانبها:

– الرجل غني. الدرج مملوء بالنقود.

آسيا لا تهتم بالمال، ما دامت تجد ما يكفيها. وقد ملت جاد ابن قناوي الآن. أحست منذ شهور قليلة أنه مسلوب مثل المساليب. رائحته عفنة مثلهم.

لا تملك وأنت تدخل بيت فهمي العجل، إلا أن تسد فتحتي أنفك بأصابعك، فرائحة الروث والأوساخ تفوح من كل مكان. وكثيرًا ما تتراكم المياه داخل البيت وحوله، وتصطدم بأقدام المارة. فالعجول التي تعشر أناث بهائم بسونة، والنجوع المجاورة ما زالت كما هي في الحظيرة، وما زال أهل البلدة يجرون أناث مواشيهم، لتعشرها عجول فهمي.

بعد أيام من تعيينه شيخًا للبلد. فكر فهمي في ذبح كل عجوله، ليوزعها على أهل البلدة، ابتهاجًا بهذه المناسبة، ويمتنع بعد ذلك عن الارتزاق من هذه المهنة. لكن سليمة - زوجته - صرخت فيه وأقسمت بشرف أبيها أن تظل ترتزق من هذه المهنة إلى ما شاء الله. ولن يستطيع أحد - في الدنيا - أن يثنيها عن هذا ما دامت أقسمت بشرف أبيها.

وصمت فهمي ولم يحدثها في هذا أبدًا. لكنه جلس حزينًا يبرم شاربه.

دارت سليمة حوله، ثم جلست بجواره. قالت في تودد:

- ما الذي يغضبك، أصبحت شيخ البلد، فما صلة هذا بتربية العجول. أنا التي تربي وتتعب، وأنا لم أتغير. ما زلت زوجتك.

أشاح بيده ولم يجبها، قالت:

- لو امتنعنا عن الارتزاق من هذه المهنة، نكون قد افترينا على الله، فمنذ سنوات طوال ونحن نرتزق منها. فإذا ما أكرمنا الله، نتبرأ منها؟!

قال فهمي وهو يحاول إظهار الحزن، لتزيد في توددها له:

- لست حزينًا من أجل هذا. إنما أنا أفكر في حالي. أصبحت شيخًا للبلد. وهي وظيفة في حاجة لملابس جديدة وقيمة.

ابتسمت سليمة ساخرة:

- تريد نقودًا؟

- أجل.

قالت بصوت مرتفع:

- ما الذي كسبناه من كونك شيخًا للبلد.؟!

لم يجيبها بشيء. فهو منذ أن عين في هذه الوظيفة و لم يمارسها. إلا إذا كان عمل شيخ البلد الوحيد هو مرافقة العمدة في سيره. وتقديم الخدمات الخاصة له.

أخرجت سليمة منديلها الممتلئ بالنقود من صدرها. فابتسم فهمي.

تزوجها أيام كان شقيًا. يسرق المواشي ويختبئ في الجبل الشرقي. لم يعهد المطاريد إليه بأعمال جسيمة. لكنه مهما - حدث - كان منهم. لكن سليمة جعلته يبتعد عن ذلك الطريق قبل أن يجرفه التيار، فلا يستطيع العودة منه ثانية. مثلما حدث لضيف الله بن منصور عشرة.

ولدت سليمة له ولديه عقل وحنفي. وفتاة تزوجت من سنين، وانتقلت لأهل زوجها في درب بعيد عن بسونة.

عقل يعمل في الغيط الآن. يقولون عنه "الشيخ عقل" لهدوئه،

وتمسكه بالصلاة في المسجد. كما أنه لم يحلق لحيته منذ أن نبتت. هي حقيقة لم تكبر للآن. لكن ذلك ليس ذنبه. إن الله خلقه "اجرودي" بغير شعر.

أما حنفي فهو نقيضه. كثير الحديث كأبيه. ونصف حديثه كذب. يسير مع رجال في ند عمر أبيه. ولا يخجل من أن يقول رأيه فيهم أمامهم. بل يناديهم بأسمائهم دون أي لقب آخر؟

مل حنفي العمل في الغيط مع عقل. فجاء سليمة يومًا وداعبها. قالت:

- ولد. إنني أعرف الاعيبك. قل ما تريد دون لف ودوران.

- أريد أن أشتري جملاً لأعمل عليه.

ضربت صدرها في عنف:

- جمل؟! وتترك أخاك الغلبان يعمل في الغيط وحده؟!

- عقل ليس في حاجة إلى، أنني اعوقه عن العمل.

- لا. لا.

أحس أن مقاومتها بدأت تضعف، فقال مسرعًا:

- سأحضر لك ثمن الجمل في شهور قليلة. فالجمال تكسب أكثر.

أعجبتها الفكرة. فهي دائمة التفكير في زيادة دخل البيت، لتشتري عجولاً جديدة.

- قل لأبيك.

فرح حنفي، فهو يعلم أن أباه ليس بيده ولا برجله، وكل شي بأمه سليمة.

واشترى فهمي الجمل، ليعمل حنفي عليه.

بعد دخول الجمل البيت تغير الحال. صار الجمل أهم مخلوق في البيت كله.

تذهب الأسرة لتطمئن عليه في الحظيرة، بعد أن خصصوا له أهم مكان فيها. ويقوم حنفي بنفسه بتنظيف الحظيرة له.

وتغير وضع حنفي أيضًا. صار أكثر حظوة من الجميع لدى سليمة.

يسير بالجمل في الصباح، يحمل القصب أو البوص. أو أي شئ كان. ويتهادى به في الطريق.. يعود مساءً إلى سليمة ومعه نقودًا كثيرة. لم تعد تناديه كما كانت، بـ "ولد يا حنفي" و لم تعد تسبه. بل صار هو رجل البيت الحقيقي. حتى أبيه يحترمه ويحسب له ألف حساب. فهو يحتاج إليه كثيرًا. ليعطيه ثمن الدخان. فسليمة – أحيانًا – تبخل عليه. ويعطيه حنفي ما يريد دون قول.

***

لم يرث أحد من أبناء سليمة جمالها، كلهم سود مثل أبيهم. عيونهم ضيقة. وانوفهم ملتصقة بالوجه كانهم بلا أنوف. أياديهم معروقة كالاسياخ التي تخرج بها سليمة الخبز من "الفرن"

قالت النساء لها:

– أنت جميلة وعايقة. وأولادك سود، كأنك لست بامهم.

ضحكت ضحكتها الطويلة، الماجنة. وقالت:

– ماذا أفعل، وقد تزوجت عبدًا أسود.

تهتم سليمة بنفسها كثيرًا، رغم أنها تعدت الخمسين بكثير. لا تلبس إلا الملابس المزركشة والمطرزة بالترتر؛ وخرج النجف؛ والخرز. وتعقد رأسها

بمنديل لونه صارخ، يصل حتى حاجبيها. وتطل من تحته خصلة شعر محنية. والكحل لا يفارق عينيها. وتلوك اللادن في الشارع.

فيردد الرجال في صوت خافت:

– عندها حق، لا رجل حاكم. ولا ولد يملأ العين.

***

يجلس حنفي الآن على الكنبة شاردًا. فمنذ أن رأى روايح وكأنه ولد من جديد.

كان يرى نساء بسونة فيثيرونه بوجوههن البيضاء وبالأجزاء القليلة الظاهرة من أجسادهن. لكن روايح غيرهن جميعًا. أردافها ثقيلة، وفمها عندما تتأوه؛ ينسى – هو – كل شئ أمامه سواها.

عندما ذهب أول مرة مع صابر بن عبد الوهاب وبعض شباب بسونة. كان يظن أنها نزوة وتزول. فقد كان يكره المساليب ويسخر منهم. لم يكن يخطر بباله أبدًا، أن يعجب بواحدة منهم. لكنه الآن يسير فلا يرى الطريق أمامه. يظل يفكر بها كالمأخوذ. وفجأة يترك جمله ويذهب إليها. لم يعد يأتي لسليمة بالنقود الكثيرة كما كان. إيراد الجمل في نقصان.

وبلغها ما يرددونه عن نساء المساليب اللآتي يصطدن شباب بسونة في النخل.

ضربت على صدرها. وشدت فهمي من شاربه:

– مكنت أنت وعمدتك المساليب من البلد.

قال فهمي في ضعف:

– عيب يا سليمة. أنا شيخ البلد.

لكن سليمة لم تكف عن سبه، أصرت أن يترك حنفي الجمل، وأن يعمل عقل عليه. لم يقبل عقل أول الأمر. لكنه أذعن لها، بعد أن صرخت فيه قائلة:

- ألست برجل مثله؟

ضحك حنفي. فهو يعلم أن عقل لا يقدر على الجمل.

برك الجمل على الأرض. وصعد عقل فوقه. سار به في شوارع بسونة. وحنفي يسير خلفه من بعيد. رفع الجمل رقبته وأمسك عقل من كمه الطويل الواسع. ورماه على الأرض.

اصطدمت عظامه الواهنة بالأرض الصلبة. تألم. أسرع حنفي مبتسمًا. وساعد شقيقه على الوقوف. ثم أمسك الجمل وضربه. سب عقل الجمال كلها، واليوم الذي عرفهم فيه. قال حنفي:

- اصعد. لن يفعل ذلك ثانية.

سار الجمل به خطوات، ثم أمسك ملابسه ورماه ثانية.

حينئذ صرخ عقل وأقسم ألا يركبه ثانية. ولو علقت سليمة رقبته على باب البيت.

ضحك حنفي وعاد بالجمل إلى سليمة.

لأول مرة تعجز عن تنفيذ ما تريد. لولا أن فهمي شيخ بلد. لجعلته يعمل عليه. بل، لولا الملامة لعملت -هي- عليه.

تكرر خلافاتها مع حنفي، وشجارها معه كل ليلة. صار عصبيًا لا يتحمل كلمة من أحد.

قالت سليمة له:

- المسلوبة التي يحكون عنها سحرت لك.

أشارت صديقة لها بأن خير علاج لابنها هو الزواج. قالت سليمة له ذات مساءً:

- ماذا لو زوجتك؟

قال في ضجر:

- لا أريد.

- الزواج سيعصمك.

فكر حنفي طويلاً. ثم ردد لنفسه "ما دام الأمر كذلك. فلماذا لا يتزوج روايح، لو تزوجها سيرتاح. ويعود ثانية إلى جمله وعمله. وترتاح سليمة من شجارها الدائم معه."

قال لأمه فرحًا:

- أجل، سأتزوج.

- خير ما قلت. من التي ستتزوجها؟

- روايح المسلوبة.

ضربت على صدرها:

- لقد جننت. وشرف أبي جننت.

- قولي ما تشائين. لن أتزوج سواها.

خرج حنفي مسرعًا. بكت سليمة وقتذاك:

- هذا الولد يريد أن يقتلني. لو كان أبوه رجلاً ما كان حدث هذا.

***

- روايح، أريد أن أتزوجك.

لم يكن في الكوخ سواهما. تأوهت. اقترب منها، خده الأسود لامس خدها. عيناه كثقبي أبرة. بلا رموش. وبيده المعروقة لمس ظهرها :

- سأتزوجك. ولدي جمل. ولدينا أرض وعجول. سأجعلك أميرة، سأغسل قدميك كل مساء.

قالت في دلال وهي تشده إليها:

- لا أستطيع العيش بدونك. ولا أستطيع أن أتزوجك.

كاد حنفي يبكي. رفع جسده. قال في توسل:

- لماذا؟

- المساليب يقتلونني.

احتار حنفي. ظنها سترقص فرحة. عندما تعلم بهذا. أنه لا يريد لها القتل. يريدها كما هي بجسدها الممتلئ. ووجهها المستدير الجميل.

قال في حيرة:

- وماذا أفعل؟

- نظل معًا بلا زواج. كأننا متزوجين.

- لا أستطيع. أريدك لي وحدي.

قالت بصوت منغم:

- أنا لك وحدك.

تركها وأسرع. خرجت وراءه. قالت:

- إلى أين؟

قال وهو يجري:

- سأقابل آدم عثمان. سأقول له إنني أريدك.

صرخت، نادته. لكنه لم يسمع.

كان آدم في كوخه حينما فتحه حنفي عليه وهو يلهث:

- آدم. أريدك في شيء هام.

وقف آدم مندهشًا:

- اجلس.

حنفي ما زال يلهث:

- لا أريد أن أجلس. فقط أريد أن تزوجني روايح.

- روايح؟!

- أجل. المسلوبة التي تعيش في النخل.

أزدادت حيرة آدم. كيف له أن يسمح بزواج مسلوبة من غريب.

- اجلس.

أجابه حنفي غاضبًا:

- لا أريد شيئًا سوى روايح.

- اجلس لنتفاهم.

- لا أريد أن أتفاهم. أجبني مسرعًا.

- لا أستطيع.

جرى حنفي، أمسكه من كتفيه، هزهما في غضب:

- لماذا، قل لي؟

- لأنك لست مسلوبًا.

جلس حنفي، تراخت أعصابه تمامًا. قال في يأس:

- أريد أن أتزوج روايح.

جلس آدم على الأرض، تحت قدميه:

- المسلوبـات لا يتزوجن الاغراب. لو فعلت مسلوبـة هذا. يقتـلها المساليب.

- وماذا أفعل؟

- كن مسلوبًا مثلها.

- كيف؟

- تحضر إلينا في النخل. وتفعل ما نفعل. تقطع صلتك بأهلك تمامًا.

- والجمل؟

- بعه.

نادى حنفي بأعلى صوته وهو بعيد عن كوخ روايح:

- روايح. إنني الآن مسلوب مثلكم.

- ٢١ -

تشرف سندس على النسوة اللاتي يخبزن فوق سطح البيت. ياسمين زوجة مسعود السقا؛ قريبة منها. النسوة يفردن العجين. وبعضهن يدخلنه النار.

تعرف سندس أن العمدة يضيق بها هذه الأيام. كل الأشياء ضدها: أبوها لا يريد أن يعيد الود القديم، بينه وبين عارف.

وكوكب - حبيبة زوجها القديمة - طلقت الآن. وموجودة في بيت أمها الملاصق لبيت عارف.

شاهدتها منذ أيام تقف فوق سطح بيتها. تظاهرت سندس بعدم رؤيتها. وهبطت.

غنت امرأة وسط النسوة في حزن:

واللي جرالك يا عين، لا أقدر أعيده

وأن كنت أعيده، تكثر مواعيده

ربما أن المرأة تعاني مثلما تعاني سندس. زوجها غير راضي عنها، أو مشغول بغيرها.

وتردد امرأة قريبة من النار:

قلبي مدينة وتاه مفتاحه

كثرت همومه وقلت أفراحه

بكت سندس. لم تستطع أن تقاوم، جارتها بعض النسوة. فكل واحدة لديها ما يكفيها..

غنت ياسمين وهي تنظر إليها، كأنها تعبر عما تحسه سندس:

كنت غندورة وسط الناس

صبحت مذلولة وشاربه الكاس

كنت غندورة وسط الكل

صبحت مذلولة وشاربه المر

اقتربت ياسمين منها. ربتت على صدرها:

- تبكين وأنت بنت الحسب والنسب؟!

سارت سندس إلى الدار. وتبعتها ياسمين:

- اغسلي وجهك، وانتظري العمدة.

صاحت سندس في غضب، وهي ما زالت تبكي:

- أي عمدة. أنه لم يعد يطيقني يا ياسمين.

- كيف؟

ياسمين لا تحب عارف. فهي تعلم إنه يكرهها. إذا ما سمع صوتها، صاح غاضبًا في سندس:

- أما زالت هذه المرأة تأتي هنا؟!

لا يستطيع أن ينسى ما فعلته بامه.

- اهدئي يا ست هانم. انه لا يستحقك.

من يقول هذا؟! عارف أجمل رجال البلدة. وهي أعلم بحالها. انه يستحقها ويستحق أجمل منها.. معترفة هي بهذا. ليته يعود إليها. وتعمل

خادمة تحت قدميه.

قالت سندس:

- كوكب تشغله.

قالت ياسمين في أسى:

- يقولون أنه سيتزوجها.

- من قال لك؟

- البلدة كلها تتحدث عن هذا.

كفت سندس عن البكاء. الصدمة جعلتها لا تستطيع فعل شيء. تركتها ياسمين لتشرف على النسوة بدلاً منها. ومدت هي جسدها فوق الأرض. هذا ما كانت تخشاه. كوكب أصبحت خالية الآن. وجاهزة له لولا الملامة، لخرجت الآن من بيت منصور عشرة كما هي، بشعرها المهوش. وردائها الذي يعلوه الدقيق ولجرت حتى بيت أبيها هارون، مثلما فعلت شوق الغازية. يوم أن وطأ منصور عشرة حجرتها.

***

- يا خالي أنت عندي أغلى من الدنيا وما فيها.

- وما فائدة هذا. وأنت تتزوج على ابنتي الآن.

- أنت تعلم أن كوكب...

- اعلم. لكنك تزوجت سندس. لم أزوجها لك إلا بعد أن ألححت.

- يا خالي. طلاق كوكب المفاجئ غير كل شيء.

- إنني حزين من أجل ابنتي. لأنك ستعطي لكوكب كل الاهتمام. ولن تسأل عن ابنتي.

- سندس في عيني.

- دعك من هذا. فالذي سيحزنني أكثر ما سيئول إليه حال البلد.

- وما شأن البلد بهذا؟

- عائلة رشوان، وكل قصاص لن يسكتوا.

- لست أول من تزوج مطلقة. ولا أول من تزوج على امرأته.

- جدك الوجيه الأمثل كان يحيل كل ما يحدث أمامه إلى ما يقرأه في كتبه الصفراء. وانا سأفعل مثله الآن، سندس ابنتي لم تنجب منك للآن. رغم زواجك الطويل. لحكمة أرادها الله. فهو يعلم أنها ستطلق منك. ولم يرد أن يكون بينكما رباطًا.

- تقصد....

- أجل. حفيدة الوجيه الأمثل لا يمكن أن يكون لها ضرة.

***

عاود آسيا إحساسها بالوحشة. سويفي يرتحل من بلد لأخرى. وجاد لم يعد يؤنسها كما كان.. فهو وسويفي لا يختلفان الآن. فكلاهما مسلوب.

لكن. لماذا تشعر باحساسها هذا الآن. بعد أن كان جاد كل شيء لها في الحياة.

سرعان ما تضيع الأشياء. وتفقد قيمتها لديها. تريد آسيا غريبًا. لقد كانت علاقتها بجاد نزوة طائشة تندم عليها.

لم تعاشر في عمرها رجلاً في وضع عبد الوهاب البقال. لا شك أن هذه التجربة تستحق الأهتمام. رجل وقور. وصديق للعمدة وكبار البلد في

بسونة.

تقلبت فوق الفراش الجريدي، حائرة، أنَّ الجريد تحتها. مدت يدها العارية بتكاسل، اخفضت نور المصباح الغازي. لا تريد أن تتذكر جاد. لكن ذكراه كالكابوس يزحف فوق صدرها.

ترك جاد أمه تهرب مع صديقه صالح. بعد أن سرقت نقوده. لم يبحث عنها حتى بعد موت أبيه كمدًا لفراقها. سكرته آسيا بجسدها الثعباني. قالت له:

- دعك منها. لا تذهب فهي حرة، تحب من تشاء.

- والنقود التي أخذها صالح منها؟

- وما شأننا نحن.

دفن جاد رأسه بين ثدييها - حينذاك- نام دون تعليق. سمعت آسيا صوت شخيره. تتذكر ذلك الشخير الان. فتحس بالتقزز. رغبتها النهمة- وقتذاك - أنستها قبحه. ورائحته الكريهة.

لقد رضيت به لأنها لم تجد غريبًا يملأ الفراغ الذي كانت تحسه. لكنك يا آسيا سرعان ما تملين الرجال مساليب كانوا أو أغرابًا. هكذا أنت دائمًا.

لو عاشرت عبد الوهاب هذا سوف تملينه يومًا.

دق جاد الكوخ ككل مساء. لم تسرع في فتح الباب. تباطأت. تثاءبت.

أرتمى فوق صدرها، ردته بتقزز.

خلع حذاءه القذر. رماه في ركن الكوخ. لم تجده ككل مرة. قال

في بلاهة:

- مزاجك الليلة غير رائق.

قالت وهي تتثاءب:

- أريد أن أنام.

أطفأ المصباح تمامًا ونام بجوارها...

تذكرت عبد الوهاب البقال بقفطانه المخطط. ورأسه العاري. والحسنة السوداء فوق ذقنه. وصوته الهادئ الرزين.

***

شد حنفي جمله في الصباح التالي لمقابلة آدم عثمان. ذهب به إلى سوق قصاص.

لم يختر سوقًا قريبًا. لسببين:

الأول أن سوق قصاص موعده اليوم. وهو لا يستطيع الانتظار حتى يوم الثلاثاء (موعد سوق المراغة). الثاني: أنه لا يريد أن يراه أحد من أهالي بسونة أو المراغة الذين يعرفونه أو يعرفون أباه. حتى لا ينكشف أمره.

عاد حنفي دون جمله. لم يذهب إلى دار سليمة. بل عرج إلى النخل. بحث عن آدم. قال له:

- لقد جئت إليك لأكون مسلوبًا. أين روايح؟

ابتسم آدم إليه :

- نحن نرحب بك. لكن لن أعطيك روايح إلا بعد مضي ثلاثة اشهر معنا. فقد لا تطيق حياتنا.

- لكنني أشهد وأقر بأنني من الآن مسلوب مثلكم. فلماذا الانتظار؟

- معذرة تلك عاداتنا، منذ أقدم العصور.

ثم تركه وسار.

جرى حنفي خلفه:

- لا تتركني. أنا مسلوب مثلكم. ألا تصدق. ها هي ملابسي.

شق ثوبه من أعلى حتى آخره.

- انظر يا آدم. لقد صرت مثلكم. رث الثياب.

ابتعد آدم عنه. اختفي وسط الأكواخ. دار حنفي في كل مكان. ثم دخل كوخ روايح. قال:

- لقد بعت جملي. ساكون مسلوبًا مثلكم. هكذا قال لي آدم.

تحسست روايح ثوبه لتطمئن لقوله. وجدت النقود في سترته. نامت فوق صدره. فوق النقود.

لم يتدخل آدم. لم يمنعه من السكن معها. تظاهر بعدم رؤيته.

هي في الكوخ وحدها. بهانة ما زالت تطوف الموالد مع صالح. وجاد يقضي الليل والنهار مع آسيا زوجة سويفي.

***

ظلت سليمة تنتظر ولدها لبعد العشاء. قلقت عليه. فهو لا يتأخر بالجمل لهذا الوقت. قالت لعقل:

- اذهب وابحث عن أخيك.

جاءها عقل وفهمي خائبين. قالت:

- لدي إحساس أن ولدي حدث له مكروه.

بكت سليمة. حتى فهمي بكى. بحث أهالي بسونة معهم. وبكت بعض النسوة مع سليمة.

قال رجل:

- رأيته يدخل سوق قصاص بجمله.

قالت سليمة:

- ربما كان يحمل "حملاً" إلى هناك.

لكن رجلاً آخر قال:

- رأيته يدخل أكواخ المساليب دون جمل.

هبت سليمة فزعة. صرخت:

- ولدي في النخل. مع روايح المسلوبة. لقد قال بالأمس أنه يريد أن يتزوجها.

قال عقل:

- نذهب إلى النخل للبحث عنه.

ساروا إلى هناك. ومعهم بعض رجال البلدة. الجمع كان كبيرًا. رجال ونساء وأطفال. يحملون المشاعل لتنير لهم الطريق المظلم. أصوات القادمين أيقظت المساليب داخل أكوخهم. وفي العراء.

تقدمت سليمة صارخة:

- ولدي والجمل يا مساليب. لن يكفيني فيهما رجالكم جميعًا.

حنفي ينام بجوار روايح. عندما سمع صوت أمه، والجلبة في الخارج. ارتدى ملابسه مرتعشًا. وهرب إلى الخارج.

قال لروايح:

- سأختبئ بين النخل البعيد. وسأعود إليك بعد أن ينصرفوا.

جاء آدم إليهم وبعض المساليب. قالت سليمة:

- أنت يا شيخ المساليب. رد لي ولدي وجملي. وإلا شربت من دمائكم جميعًا.

- لم أرَ ولدك ولا أعرفه.

دفعته في صدره. ولولا هربه منها لرمته على الأرض:

- ولدي مع المسلوبة روايح. اخرجها يا شيخ المساليب.

لم ينتظر رجال بسونة الأذن من آدم. اسرعوا داخل الأكواخ. لم يجدونه. قال فهمي:

- لن أنام ليلتى إلا وابني معي. وإلا قتلت المساليب كلهم.

قال آدم فزعًا:

- وما ذنبنا يا شيخ البلد؟

هجم فهمي والرجال لهدم الأكواخ. فتصدى لهم رجال المساليب. صرخت النسوة من الجانبين. ونبحت الكلاب الكثيرة. حاولت الهجوم على أهل بسونة؛ دفاعًا عن المساليب.

قبل أن تمتد يد إلى الأكواخ. جاء عارف وبعض الخفراء المسلحين. وعبد الوهاب البقال. قال عارف:

- أنت شيخ البلد يا فهمي.

صاحت سليمة:

- لعنة تلعن اليوم الذي أصبح فيه شيخًا للبلد.

قال فهمي في أسى:

- ولدي يا عمدة يصبح مسلوبًا؟

قال آدم:

- ولده لم يأت إلينا يا عمدة.

قال عارف لسليمة:

- عودي أنت وزوجك. وسأبحث عنه.

عادت سليمة وهي تسب كل شئ. وبقى فهمي منهارًا. قال:

- سأبقى معك يا عمدة. المساليب يسحرون بالسحر. والنساء تسحر بالجسد.

قال عارف لآدم:

- أريد أن أرى روايح التي يحكون عنها.

تململ آدم قليلاً. ثم صاح:

- أمرك يا عمدة.

عاد بعد قليل بروايح. كانت تبكي من الخوف. قال فهمي متوعدًا:

- بنت. اين حنفي ولدي؟

قال عارف لها في هدوء:

- تعال يا فتاة. تريد أن نرى حنفي.

قال آدم مشجعًا:

- قولي يا روايح. أين ذهب:

- مختبئ في النخل البعيد.

ساروا جميعًا إلى هناك. نادت روايح. حتى جاء حنفي. عندما رآه أبوه امسك بملابسه وصفعه في جنون.

- تريد قتلي بالعار. تريد أن تكون مسلوبًا؟

ارتعشت روايح. وآدم يحاول أن يكون هادئًا. رغم الخوف الذي

يحسه. فمن الممكن أن تذهب هذه الحادثة بكل ما فعل. يهجم أهل بسونة عليهم ويطردونهم من البلدة كلها.

أبعد عارف فهمي عن ولده. أمسكه عبد الوهاب البقال بيديه القويتين. حتى عجز فهمي عن الحركة. وامسك عارف بحنفي الذي أحنى رقبته ضعفًا واستكانة:

- ما الذي جعلك تهرب من أبيك وأمك؟

- أريد الزواج من روايح.

صرخ فهمي، لولا أن عبد الوهاب قوي، لفلت منه وعاد لضرب ابنه ثانية:

- والجمل. هل معك هنا؟

- بعته في سوق قصاص.

صرخ فهمي:

- بعته يا ابن الحرام. واين ثمنه؟

- ضاع.

لطم فهمي وجهه بيديه:

- الولد يقتلني. أضاعني.

قال عارف في هدوء:

- اذهب يا ولدي إلى أمك. وأعطها ما تبقى من فلوس الجمل.

سأل آدم حنفي:

- هل تدخل أحد المساليب فيما فعلت. هل أغواك أحد. أو أجبرك لتكون معنا؟

- لا، أنا الذي أريد أن أكون مسلوبًا. ولن يثنيني أحد عن عزمي.

وهن صوت فهمي، خارت قواه. فجلس. تركه عبد الوهاب. فقد أحس بان ليس هناك فائدة من أمساكه. جلس فهمي متخاذلاً. متكئًا على جذع نخلة. وهو يردد في أسى، وفي لغة ممطوطة:

- ولدي يريد أن يكون مسلوبًا.

قالت روايح لحنفي وهي تبكي:

- عد يا حنفي. عد، وكفي ما حدث.

عاد حنفي مع أبيه.

عندما دخل البيت على سليمة. بصقت فوق وجهه قائلة:

- وشرف أبي "انت تستحق القتل. لو كان أبوك رجلاً لقتلك. وارتاح من عارك".

أحنى رأسه و لم يجبها.وخرج عقل دون أن يقول كلمة واحدة لأخيه.

في الصباح استيقظت سليمة متعبة من البكاء والصراخ. بحثت عن ولدها حنفي. لم تجده.

- ٢٢ -

بعد أن عاد حنفي بن فهمي العجل. أصر آدم أن يدخل الشيخ عارف كوخه ليشرب قهوته المحوجة. بينما دار عبد الوهاب بين الأكواخ مندهشًا مما يرى. فهو لم يزر الأكواخ أبدًا. الدكان يشغله تمامًا. تعرفه النسوة من كثرة ترددهن على دكانه. اقتربت آمنة منه:

- أهلاً. تفضل إلى كوخي.

لقد أراحهم عبد الوهاب، وبعض الرجال المعتدلين. عندما منعوا فهمي العجل وزوجته من الهجوم عليهم.

عندما صرخت سليمة.. ايقنت روايح أنها مقتولة لا محالة. وارتعشت آسيا في كوخها.

الأغراب سيحرقون الاكواخ. ويقتلوهم جميعًا. قالت آمنة لها:

- ها هو عبد الوهاب قد جاءك بساقيه.

لكن الخوف كان أقوى، فجعلها تنسى رغبتها المتأججة للأغراب. قالت:

- ليس الوقت مناسبًا.

- ربما لن تأتيك الفرصة ثانية.

أجل. فقد هدأ كل شيء، عاد الولد إلى أمه. وعاد أبوه الذي كان

يصرخ ويهدد ومعه بعض رجال البلدة الغاضبين. ليس في أرض النخل من الأغراب سوى عارف العمدة . وعبد الوهاب وصديقه والخفراء.

أصر آدم أن يدخل عبد الوهاب البقال مع عارف لشرب القهوة عنده. لكن عبد الوهاب فضل البقاء مع الخفراء في الخارج. فربما عاد فهمي والغاضبين ثانية.

لولا الدكان ومشاغل عبد الوهاب، لجعله عارف شيخاً للبلد بدلاً من ذلك العجل. الذي لا يكف عن الصراخ والعويل.

أقتربت آسيا منه، كان يتحدث مع شيخ الخفراء وقتذاك:

- لماذا لم تدخل كوخ آدم مع العمدة؟

نظر إليها مندهشاً. فهي تأتي كثيراً مع المسلوبات اللاتي يبعن له أشياءهن. أو تشترى بعض المستلزمات لم تبع له شيئاً. تكتفي أحياناً بالمشاهدة. وإذا ما أشترت منه شيئاً. تبقي كفها الصغيرة في يده. وتنظر إلى عينيه طويلاً.

- وما شأنك يا مسلوبة؟

- أريد أن أستضيفك في كوخي لتشرب قهوتي.

نظر إليها. ثم أسرع إلى الخفراء. قال:

- ما كان يجب أن يدخل عارف كوخ آدم الآن. الوقت ليس وقت استضافة.

قال شيخ الخفراء:

- اطمئن. لقد عاد فهمي. كل شئ أصبح مأموناً.

انـدس عبد الوهاب وسط الخفراء. تابع الظلام البعيد الآتي من

بسونة.

زوجته تواجهه بوجهها الممتلئ. تنفخ بأنفها الكبير. تفتح فمها الواسع وهي نائمة كبئر عميقة.

خرج عارف من كوخ آدم. سارا معًا. وأفاق عبد الوهاب من شروده. تابع المسلوبة التي تتحرك في عصبية، لأنهما أخذاه. قبل أن تناله هي.

***

بكت سندس وهي تشد ياسمين وتقبلها. لم تصدق أن هذا سيحدث أبدًا، وتفترق عن عارف بعد أن فازت به دون كل فاتنات البلدة.

لماذا تزوجها ما دام قلبه معلقًا بكوكب؟ كان من الممكن أن تعيش دون أن تحلم بالزواج منه. لكن منصور عشرة. هو الذي فعل بها هذا باصراره أن يتزوجها عارف.

قال أبوها:

- اجمعي أشياءك جميعًا. ستعودين إلى بيتي.

- لكن...

- لا أريد نقاشًا، كل شيء تم وأنتهي أمرك معه.

لولا الملامة لصرخت ولمت بسونة كلها. ليروا ما نابها. ابوها يقول "إن كل شيء انتهى" معنى هذا إنها طلقت من عارف.

عندما علمت أن عارف سيتزوج كوكب. احست أن نارًا تسري في كيانها. وتخرج من أطرافها. رغم هذا لم تفكر في الطلاق أبدًا.

رآها أهل بسونة وهي تخفي وجهها، لكي لا يروا آثار الدموع.

***

عادت بهانة وصالح إلى بسونة ثانية. مرا فوق الجزجة. أمسك صالح بيدها وهي تعبر. تغيرت بهانة كثيرًا. جسدها قل وزنه. ووجهها ازداد احمرارا من بقائها طويلاً في الشمس.. غيرها السير الطويل. من مولد إلى آخر: وهز البطن كل مساء دون راحة. بدت أصغر مما كانت، وأكثر حركة.

كانت تلح على صالح بأن يعيدها إلى بسونة. وهو يراوغها، ويباعدها عن هذا. يقول:

- جاد ابنك لن يتركك. حتمًا سيطردك.

لكنها اشتاقت لجاد وروايح. تريد أن تراهما.

عندما قالوا لها أن قناوي مات. بكت. وعندما رأت صالحًا آتيًا إليها من بعيد، جففت دموعها، ووقفت مبتسمة. قالت:

- مات. مات.

وضع صالح يده-حينذاك- خلف ظهرها. كانت نادمة لترك قناوي. لكنها تخاف -أيضًا- أن يتركها صالح وقد أعتادت الحياة معه. وما في استطاعتها فراقه.

تحمل بهانة صرة كبيرة مملوءة بالنقود التي سرقتها من قناوي، والتي جمعتها في الموالد مع صالح في رحلتها تلك.

عبرت الجزجة بالصرة. يريد صالح أن يشتري بالنقود بيتًا في النخل. قطعة أرض ويبنيها بالطوب مثل سائر بيوت بسونة. وحوله أكواخ المساليب بما فيها كوخ آدم. حينذاك، سيكون هو سيدهم؛ لا آدم.

تخاف بهانة ملاقاة ولدها جاد. لكنها تشتاق لرؤيته أيضًا. تود لو ضمته لصدرها وقبلته. وتقبل يدي روايح أبنتها، التي تركتها دون شيء.

***

أسرعا السير فوق شوارع بسونة. قالوا:

– ها هي المسلوبة التي تركت زوجها حتى مات.

لم تهتم بقولهم. ولن تهتم – أيضًا – بأقوال المساليب. قال صالح:

– ماذا أفعل لو تعرض لي ابنك؟

قالت مبتسمة:

– لن يتعرض لك.

تخاف هي هذا الموقف. ولدها وعشيقها، للاثنين منزلة لديها.

***

عندما وطأت أقدامهم أرض النخل كانت مسلوبة تنشر غسيلها على حبل بين نخلتين قريبتين. أسرعت عندما رأتهما. كأنها جنت:

– صالح وبهانة. صالح وبهانة.

أسرع المساليب إليهما. قبلتها النساء. وصافحوا صالحًا بحرارة. لم يعاتبهما أحد.

ومصمص الرجال شفاههم حسدًا على صالح الذي أصبح غنيًا من مال قناوي المسروق. ومن وسط بهانة الذي أهتز في الموالد.

جاء آدم مهرولا عندما بلغه الخبر، ضم صالح لصدره وقبله:

– نورت النخل.

صافح بهانة التي نظرت إلى الأرض خجلة. قالت:

– أين روايح وجاد.

نظروا جميعًا في حيرة. لا يعرفون مكان جاد. قد يكون في كوخ آسيا. أو ما زال يتسول في الأسواق القريبة. وروايح ترافق حنفي بن فهمي

العجل في الكوخ.

قال آدم:

- سيعودان بعد قليل.

دارت النسوة حول بهانة. قالت آمنة:

- لماذا لا تضحكين كما كنت؟

ضحكت. لكن الضحكة لم تكن كحالها الأول. لقد كان النخل كله يسمعها حين تضحك.

عادت روايح في المساء قبل جاد. ما أن وجدت أمها حتى أسرعت إليها مهرولة. رمت بجسدها بين أحضانها باكية. وبكت بهانة من جديد.

جلسوا جميعًا في الخلاء. قال آدم عثمان:

- قسما، لن يعد الشاي سواي.

اعتمد على ركبتيه، ووضع قوالح الذرة الجافة فوق النار. ووضع إناء الشاي فوقه. واحضرت كل مسلوبة ما لديها من أكواب. أو أكواز صغيرة معدة لشرب الشاي، حتى يكفي كل الجالسين. وساهمت كل منهن بمقدار من الشاي والسكر.

سكب آدم الشاي في الأكواب. وقدم أول ما قدم إلى صالح وبهانة. ثم روايح من أجل أمها. حتى حنفي بن فهمي العجل شرب الشاي معهم.

وجاء جاد. وقفت بهانة فرحة. لكن صالح لم يقف. ابتسم آدم قائلاً:

- أهلاً بك يا جاد.

يعلم أنه لن يرتاح لوجود صالح بينهم. بعد أن سرق مال أبيه وأمه.

تقدمت بهانة إليه، والسعادة تغمرها. لكن قبل أن تصل إليه، بصق فوق الأرض وسار دون قول.

بكت بهانة، وأخذ آدم يهدؤها مبتسمًا :

– دعك منه، في الصباح سوف يهدأ. وتعود المياه إلى مجاريها.

ويجيب صالح:

– ما الذي يبكيك، لا تهتمي به.

كفت بهانة عن البكاء خشية اغضاب صالح.

***

الوحيدة التي لم تشترك في استقبال صالح وبهانة هي آسيا.

لم تبد اهتمامًا بعودتهما. فما عاد يهمها جاد ولا أمه. سيان عندها إن كانت مع صالح بعيدة. أو قريبة. لهذا، أغلقت كوخها عليها وشردت في ذلك البقال الذي لم يهتم بها.

دق جاد الكوخ. ظنته لن يأتي الليلة. وأنه سيشترك في الاحتفال بعودة امه وصالح.

فتحت الباب متثاقلة. كان غاضبًا، زفر. لم تسأله عن سبب غضبه. فهذا لا يعنيها أيضًا. قال:

– عادت المرأة العجوز مع عشيقها، وأقام لهما آدم – القواد – حفل استقبال.

ضحكت آسيا بعصبية. ظنها جاد – أول الأمر – تؤيده في رأيه. لكنها لم تكف عن الضحك. أحس بالضيق، شدها من كتفيها:

– ما الذي يضحكك هكذا؟

قالت وهي تبعد يديه عنها في تقزز:

- أضحك أو لا أضحك. ليس هذا من شأنك.

- كيف يا آسيا؟!

- هكذا، من الآن ليس لك عندي شيء.

قال في صوت كالصراخ:

- لماذا؟

- لا أريدك.

أمسكها من يدها ورماها فوق السرير الجريدي. توجع الجريد. وبكت آسيا.

- دعني وشأني. لا أريدك أن تدخل كوخي ثانية.

ما الذي يبكيك يا آسيا. الهزيمة أم الحيرة؟ تجاهل البقال لك. أم حيرتك لأنك لا تستقرين على رأى. سرعان ما تملين الرجال.

لو سمع المساليب أنك تطردين جاد الآن. لن يصدقوا. فقد كنت تجاهرين بحبك له علنًا. فتضعين يدك حول عنقه في النخل. أمام آدم شقيق زوجك.

آسيا التي كانت تقول له وهي تتلوى كالثعبان:

- أنت أبي وأمي. لا تتركني لحظة.

لا شك أن أشياء كثيرة قد حدثت. كأن تسير الدنيا بظهرها. أو تطرح نخل بسونة التمر من تحتها..

شعر جاد رغم هذا. أن آسيا ضعيفة أمامه. وسوف تتغير إذا ما اقترب منها. ستبكي وتعتذر له نادمة. ركع فوق الأرض. صارت رأسه فوق

جسدها المسجى. وأنفاسها الحارة فوق وجهه. وصدرها يعلو ويهبط مالت رأس جاد، لامست دموعها فوق الخدين. صرخت. وضعت يديها فوق وجهه ودفعته. قالت كامرأة تند بصعوبة:

- أغرب عن وجهي أذهب. لا أريد مسلوبًا في كوخي.

وقف. شد قامته. رآها كنمر ثائر. لم تعد لها أصابع. بل مخالب. قال في أسى:

- ماذا حدث لك؟

قالت في تقزز:

- لا أريدك.

أمه تجلس فوق عرش هناك في الخارج. وعشيقها -الملك - بجوارها. وندامى الشراب حولهما.

ترك أمه تهرب مع صديقه صالح بعد أن سرقا كل النقود من الكوخ. كان يخاف أن يذهب للبحث عنها فتضيع منه آسيا. لكن آسيا الآن تلفظه. في نفس الوقت الذي جاءت فيه أمه.

خرج من الكوخ. لم تره آسيا وهو يخرج. كانت تضع رأسها بين يديها حتى لا تراه.

بكت طويلاً بعد أن ذهب. لم تعد تطيق حديثه. لو جاءها سويفي الآن لقتلته.

عبد الوهاب، ذلك الغريب يطاردها في كل طريق بوجهه الأسمر، وعينيه السوداتين. والحسنة الكبيرة فوق ذقنه.

***

بدت كوكب أجمل مما كانت. الماشطة أحست بالسعادة وهي تزينها. فوجهها يكشف عن مهارتها دون عناء. قالت أمها الحزينة لكل ما يحدث:

– يا ابنتي. ليس هناك داع لهذا الحفل.

– أريد أن يحس كل القصاصيين إنني تزوجت رجلاً خيرًا منهم جميعًا.

جلست في بيت رضوان. تذكرت يوم زفافها الأول من رزق. كانت حزينة. تفكر في عارف. كما هي الآن. لا. هي الآن تفكر فيه أكثر وتحبه أكثر من أي وقت مضى. والسعادة تشملها. لكن يوم زفافها من رزق: عاندت وكابرت، وأخفت دموع الأسى عن الموجودات.

ياسمين تحمل المبخرة. معظم نساء بسونة حضرن. حتى المسلوبات جئن من النخل ليشاركن في زفاف عمدة البلد.

غنت المسلوبات أغاني لم يسمعها أهل بسونة من قبل. ورقصن في خفة كأحسن من ألف غازية.

تزينت آسيا فأحسنت التزين. وقفت قريبًا من الباب لترى البقال.

جلس سويفي. عزف على ربابته السوداء. غنى بصوته الحسن. أومأ الحاضرون أستحسانًا. ثم رقصت بهانة التي ذاع صيتها الآن. فيأتيها طالبوها من قرى بعيدة. لترقص في أفراحهم. ويدق صالح الطبلة لها. وكوكب سعيدة وسطهن. تنتظر حلمها الذي طال انتظاره. أن يضمها وعارف بيتًا واحدًا. وحسنية تجلس خارج الحجرة. تحني رأسها حزنًا. من الممكن أن يقال الآن أن عارف كان يحبها.

ومن الممكن أن تشتعل الحرب بين البلدين من أجلها. لو بيدها لمنعت هذه الزيجة. لكن ابنتها مصرة عليها، وتهدد برمى نفسها في الرياح.

وعبد الوهاب يرافق العمدة. أغلق دكانه واحضر كلوبه. علقه مع باقي الكلوبات. زوجته وسط النسوة. حول كوكب.

يخرج عبد الوهاب ليستقبل ضيفًا جديدًا. يشد على يده ويجلسه. وآسيا تتابعه. يلمحها من بعيد، فيرتبك.

دارت أكواب الشراب التي يحملها مسعود السقا. تنطلق الاعيرة النارية، يتذكر الناس فهمي وبندقيته الطويلة التي يعتني بها. ولا يخرجها من جرابها الا لليلة كهذه.

هو الآن لا يبرح بيته سليمة -زوجته- تضع "الزهرة" فوق وجهها. وتندب حنفي كأنه مات. تردد من وقت لآخر:

- هذا ما اخذناه من مشيخة البلد.

يقول فهمي:

- لا تغضبي. سأذهب لعارف وأقول له أن يعزلني.

- اجلس يا فهمي بجواري. لا تذهب إلى عارف أبدًا. تريد أن تشارك في زفافه؟!

يجلس بجوارها صامتًا. البلدة الآن تدار بدون شيخ بلد.

***

يقف عارف ليودع بعض الرجال العائدين إلى قراهم. يسير عبد الوهاب بجواره.

يستطيع عارف الآن أن ينهي هذا الحفل، فرغبته لكوكب لا تقاوم.

لكن آدم عثمان. أقترب منه هامسًا:

– أريدك يا عمدة في كلمة قصيرة.

قال بنفاد صبر:

– ماذا تريد يا آدم؟

– هديتي لزواجك يا عمدة.

– أجل. أنت تستحق كل خير. ماذا تريد؟

– بيت من طوب وأبواب من خشب.

– ومن أين لي هذا؟

– بيتك يا عمدة الذي يعيش فيه مسعود السقا.

أحس عارف بالضيق:

– ومسعود، أين يعيش؟

– أنا أحق منه.

– دعك من هذا الآن. لا تفسد علي ليلة العمر.

***

الطريق ليس ببعيد بين بيت رضوان وبيت منصور عشرة. كوكب ليست في حاجة إلى جمل يتهادى كما كان الحال يوم زفافها من رزق.

دخلت بيت منصور عشرة الذي خرجت منه شوق الغازية إلى الرياح. وضحكت النسوة في خلاعة.

عبد الوهاب يقف بين البيتين. يودع المهنئين العائدين لبيوتهم وقراهم. فهو أقرب الناس الآن إلى عارف. بعد أن تركه خاله هارون وفهمي العجل. لولا مشاغل الدكان، لجعله عارف شيخًا للبلد، بدلاً من فهمي

العجل.

آسيا تقف بعيدًا. تتابعه في الظلام. كل مـن جـاء بكلـوب. اخـذه وسار به وهو عائد.

اقتربت منه:

- عبد الوهاب.

أحس بالضيق. كيف استطاعت أن تدعوه دون لقب:

-ماذا تريدين؟

- أريدك أنت.

أحس بارتباك. ماذا يقول لها، وهي تحدثه بهذه الجرأة.

- لماذا أنا بالذات؟

- القلب وما يريد.

نظر حوله. المسلوبات يسرن في الظلام بعيدًا في طريقهن للنخل.

- المسلوبات ذهبن، الحقي بهن.

- أنت لا تعرفني. إذا ما أردت رجلاً. لابد أن أناله.

- لعنة تلعنك.

ثم أبتعد غاضبًا.

سمع عن أفعال المسلوبـات مع شبـاب بسونـة، وآخرهن البنت التي سحرت لحنفي بن فهمي العجل وتعامل - هو - مع المسلوبات اللاتي يبعن له حاجاتهن في دكانه. تحاول آسيا أن تضغط على يده، لكي يدفـع لها الأكـثر. لكنه لا يهتم بها. لكن مع هذه يحس بارتعاشة في يديه.

أسرعت خلفه، أمسكت ذراعه:

– لماذا تبتعد عني دائما.

– ماذا تريدين ثانية؟

– أن تسير معي.

– لابد أن أطمئن على سير الامور في الحفل، فعارف وحده الآن.

– لقد انتهي الحفل. وكوكب ذهبت بيت العمدة عارف.

سار معها، لسعة برد داعبت وجهه.

– أتابعك منذ أول مرة رأيتك فيها.

– أحس بك. لكنني لا أستطيع. أنا لست صغيرًا. ابني صابر شاب الآن.

– بل أنت ما زلت شابًا. وفي حاجة إليّ.

أحس بالزهو، كيف تحبه امرأة هكذا. تطارده منذ أن رأته، وتلح رغم صده لها. وهو الذي تزوج من امرأة دميمة، تشبه رزق الذي كان يتزوج كوكب، من أجل عدة قراريط.

تعرف آسيا طريقها. البلدة أكثر ظلامًا من كل يوم. كل الكلوبات كانت في دار رضوان. بجوار ضريح الشيخ صاحي أجلسته بجوارها (نفس المكان الذي قابلت فيه جاد أول مرة).

- ٢٣ -

يتابع الحاج رشوان ما يحدث في بسونـة، ينتظر أن يفشل عـارف في العمودية. خاصة بعد أن أحتجب فهمي العجل - شيخ البلد - غاضبًا، لهـرب ابنه لدى المساليب.

يردد الحاج رشوان لرزق:

- اطمئن. هي العمودية لعبة؟! سترى ما سيحدث، بعد وقت قصير جدًا، سيرسل لي الباشـا خير الدين معتـذرًا أسفًا. وسيطلب مـني أن أعـدل الأمور التي مالت وخابت.

ويردد رزق حزينًا:

- عارف وراء طلاق كوكب مني. لقد سرقها يا حاج. كما سرق العمودية منك. والثأر بيننا وبينه الآن.

- لا تغضب. فأنا الحاج رشوان. وسترى ما سيحدث.

***

المساليب لا يكفون عن الطلبات. منذ أيام أعطى بيت أبيـه (الـذي كان يعيش فيه مسعود السقا) إلى آدم. طرد مسعود وسط مظاهر غضب أهـل بسونة.

واليوم يأتيه آدم مع صالح ومهدي يقول آدم:

- صالح لديه مال كثير. ويريد أن يشتري قطعة أرض في النخل، ليبني عليها بيتًا له.

لم يسمع عارف أن رجلاً - من البلدة - باع نصيبه في أرض النخل.

- لكن أرض النخل لا تباع.

- أليست أرضًا مثل غيرها.

قال مهدي:

- بل هي أقل جودة. وأرخص سعرًا.

- يا آدم لقد مللت طلباتك الكثيرة.

- طلباتي عادلة يا عمدة. نحن نريد أن نشتري أرضًا بنقودنا.

كوكب الجميلة تنتظره. لقد تزوجها منذ أيام معدودة. ولم يشبع من مشاهدتها بعد.

- عد في الغد يا آدم. وسأخبرك بما تم في هذا الموضوع.

***

عاد آدم آخر الليل فرحًا. فقد وافق العمدة على أن يشتري صالح قطعة أرض في النخل. قال عارف: - سأرسل إلى عتمان - فهو يمر بازمة مالية هذه الأيام. وأعتقد أنه الوحيد - في البلدة - الذي يسمح ببيع أرضه في النخل.

***

ذهب عتمان ليحضر ورقة الملكية وخاتمه من داره. قال عارف لآدم:

- أسرع، وجهز نقودك قبل أن يفيق الرجل. ويرجع عن البيع.

وتم البيع. وكتب العقد.

جاء آدم ومعه صالح. مرتديًا قفطانًا صوفيًا جديدًا، ولاسة طويلة كالرجال الأغنياء في بسونة.

دق آدم الأكواخ فرحًا:

– لقد حدث ما كنت أتمناه.

قبلت النسوة بهانة مهنئين، والرجال لمسوا صالح فرحين. فها هو يمتلك بيتًا مثل سائر الأغراب.

قال آدم:

–سنبدأ من الغد في بناء البيت. فهو ليس بيت صالح وحده. إنما هو بيت كل المساليب.

رغم أن صالح لم يعجبه هذا القول، إلا أنه صمت. وابتسم ابتسامة خفيفة مؤكدًا قول آدم.

***

تسير كوكب في البيت بوجهها المورد. وجلبابها الذي يصل إلى الأرض. وأمها حسنية بجوارها:

– لماذا لم تأت بالبنت؟

– هي بخير. اطمئني عليها.

رغم قلق كوكب على ابنتها، إلا أنها سعيدة تبتسم وتنظر في قلق إلى حجرة عارف. تريده أن يأتي ليصافح أمها. فهو يعلم أن حسنية غير راضية على زواجه منها.

– أهلاً بك يا حماتي.

المرأة العجوز تخفي وجهها بوشاحها:

- أهلاً.

يدق تليفون العمودية في عنف. يسرع إليه. الباشا خير الدين يحدثه في أمور العمودية. يطلب منه سرعة الانتقال إلى المراغة (مقر العمودية)

تخرج حسنية عائدة إلى بيتها. وكوكب تنشغل عنه بأعمال البيت.

عارف وحده. لقد كان يعتمد على خاله هارون في المسائل المالية. الرجل لم يقل له "لا" أبدًا.

لكنه الآن لا يستطيع حتى أن يدخل بيته. لقد أعاد إليه ابنته سندس؛ لتؤنسه في وحدته.

لابد لعارف من بناء قصر له، أكبر من قصر الحاج رشوان. فليس هو بأقل منه.

يأتي آدم عثمان، الذي صار مرافقًا للعمدة معظم الوقت. لم يعد يرتدي ملابسه الرثة. فهو ليس في حاجة إلى التسول من الناس. لديه مهام أكبر الآن.

قال عارف له:

- لابد من الإسراع في إجراءات البنك.

- ذهبت يا عمدة إليهم. وأيام قليلة وتحصل على القرض.

يأتي عبد الوهاب البقال إلى بيت عارف مساء. بعد أن يغلق دكانه، يضحك بصوته المرتفع، تسمع كوكب صوته في غرفتها البعيدة.

المساليب غيروه، يشتري منهم كل شيء، حتى القمح وباقي الحبوب التي يتسولونها. يجمعها في حجرة من حجرات بيته ويدرسها. ويعرضها للبيع بسعر أعلى من سعرها في البلدة. فهي صنف أحسن، مجنسة من أراض عديدة.

عدد كبير من شباب بسونة يدخن الآن. يشتري لفافات عبد الوهاب، التي يبيعها له المساليب. لو لم يأت المساليب إلى بسونة ما كانت دكانته كبرت هكذا.

هذا غير ما تعطيه له آسيا. امرأته تنام قبل أن يدخل البيت. لا يسمع سوى غطيطها الدائم.

قبل آسيا كان يغضب ويثور عليها. الآن يبتسم لها. يعد طعامه -إن أراد- وحده. وينام شاردًا في آسيا.

***

استيقظ آدم مبكرًا. خرج مسرعًا ناحية الأرض التي حددها له الشيخ عارف. أخذ ينظر إليها في سعادة إنه غير مصدق أن أحد أتباعه سيمتلك بيتًا، ولن يخرج منه أبدًا.

تجمع الرجال ومعهم حنفي بن فهمي العجل. ساروا ناحية الترعة ليخرجوا الطين الذي سيدقونه. ليصنعوا منه الطوب لبناء بيت صالح.

وقف آدم فوق الجسر، وهبط حنفي وصالح وباقي رجال المساليب. فيما عدا جاد وسويفي البعيدين عن النخل الآن.

حنفي أقرب الرجال إلى الماء. يحني قامته ويمد الإناء لأعلى. ساقاه تخوضان في الطين حتى ركبتيه آه لو رأتك سليمة هكذا. لصرخت ووضعت الطين فوق رأسها حزنًا وغمًا.

المساليب يقسون عليه الآن، آدم عثمان يصرخ فيه:

-ليس من هنا، الطين هناك أحسن.

ملعون أبو هذا الزمان. عشت لترى مسلوبًا -كنت تضربه على

قفاه- يتحكم فيك الآن.

ويحني حنفي قامته أكثر. حتى تكاد تصل رأسه للماء. يرفع الإناء. خادم هو الآن للمساليب. حتى روايح التي كانت تخادعه بكلمات الحب، تهرب منه، بعد أن انقضى ومضى ثمن الجمل. لم ينفرد بها مرة واحدة بعدها. إذا ما حاول، تهرب قائلة:

- كان زمان.

ردد حنفي لنفسه في أسى "رضينا بالهم. والهم لم يرض بنا". صالح هو الآخر يسبه. يلعنه نظير قروش لا تكفي أكله. وماذا عساه أن يفعل وهو لو خرج بعيدًا عن النخل سيقتله فهمي العجل. أو أحد أقاربه. وا لله الموت خير لك من هذا الهوان.

يضع حنفي الإناء المملوء بالطين على الأرض. يعمل أحيانًا لدى بعض المساليب، يحمل لهم القمح الذي يشحتونه. أو يجمع الدخان الذي يلمه الأطفال من شوارع سوهاج.

***

كسائر بيوت بسونة كان بيت صالح وبهانة. بيت كبير من الطوب النيء. وسقفه من خشب الجريد المشتوق. طرقة كبيرة ثم أرض فضاء، ثم الرواق (حجرة واسعة وحيدة في الدور الأرضي) والسلاملك الطيني؛ يؤدي إلى أعلى، حيث الخزانة (حجرة وحيدة يخزن بها القمح والبصل والثوم.. إلخ)

تسير بهانة بين الأكوخ منتشية. بيتها اليتيم شامخ وسط أرض النخل الواسعة.

صالح يكثر من الجلوس بجوار آدم. صار وزيره. يرافقه أحيانًا في

زيارته للعمدة عارف.

جاد ولد بهانة يزداد شقاء. كأن بيت أمه هو قبره الذي يخشى أن يدفن فيه.

صار البيت كالعار له. يقولون بيت بهانة وعشيقها. وزاده شقاء ما فعلته آسيا به. إنها تعاشر الآن عبد الوهاب البقال، ماذا يستطيع أن يفعل معه. وهو قوي وخلفه كل رجال بسونة..

لم يحب جاد مسلوبة مثلما أحب آسيا؛ كثيرًا ما عاشرهن في بلاد الأغراب. لكن آسيا شيء آخر.

يد جاد لا تستطيع الآن أن تمسك القروش التي يعطيها الأغراب له، أعصابه ما عادت تتحمل. يقولون لبهانة:

- ولدك نشف يا بهانة.

تشعر بالأسى ولا تجيب.

يدور جاد إذا ما جاء الليل. ينام وحيدًا وكثيرًا ما يحلم بالبكاء وهو نائم.

أما روايح. فقد خلا الكوخ لها، وصار ملكها وحدها. تقابل فيه من تشاء من الأغراب.

عندما رأت أمها تبني البيت ساعدتها، حملت الطين مع نساء المساليب. شكرتهن كأنهن يبنين بيتها هي، وبعد أن تم البناء. دخل صالح ودخلت بهانة البيت. أرادت روايح أن تعيش فيه معها. قالت بهانة لصالح متوددة عن ذلك. صاح غاضبًا :

- لن يشاركني أحد بيتي.

صمتت بهانة. عادت روايح تنام في كوخها كما كانت. يجتمع النسوة بعد عودتهن من العمل. يجلسن حول البيت. يحكين الحكايات. تهدهد آمنة طفلها وهي تغني:

هووه... رأيته في الدرب الضيق... شحات وبيقول سيد

هووه... رأيته في الدرب الطويل... شحات وبيبيع مناديل

والأطفال يلعبون. يجرون ويضحكون. يغنون مع النسوة حول البيت:

باي يا باي   باي يا باي

صالح وبهانة   باي يا باي

دخلوا الخزانة   باي يا باي

دلعهم ياما   باي يا باي

صالح وبهانة   باي يا باي

دخلوا الرواق   باي يا باي

دلعهم زاد   باي يا باي

***

منذ أن حمل رجال الوجيه الأمثل هارون، وعادوا به بالقوة من القاهرة إلى بسونة، تاركًا المرأة الممتلئة التي كان قد تزوجها. منذ ذلك الحين لم يزر القاهرة إلا مرات معدودة. يزور فيها أهل البيت. يركب الحنطور، ويمر في الشارع الذي كان يسكنه. ينظر من العربة إلى النافذة المغلقة. ماذا يفيده لو نزل من العربة. وقد أخبره سكان الشارع أكثر من مرة أنهم لا يعرفون امرأة بهذا الاسم.

لم يسافر هارون إلى القاهرة، طوال حياة والده الوجيه الأمثل.

كانت المرأة قد هجرت الشارع الذي تسكنه أو ربما ماتت. لكن هذه الأيام تسيطر عليه فكرة، كلما حاول أن يثنيها عن فكره؛ تطارده ثانية. وهي أن يهجر بسونة، يستأجر شقة في القاهرة، ويعيش فيها مع ابنته سندس وخادمة واحدة. تعيش معها هناك.

الحياة في بسونة صارت مريرة. البنت سندس تقضي يومها إما شاردة أو باكية. لا يستطيع أن يحدثها في أمر من الأمور. فربما البعد عن بسونة وعارف وكوكب. يجعلها تنسى ما أصابها.

والرجال رحلوا بعيدًا عنه. تركوه وحده. عارف الذي كان يرى فيه شبابه. صار فظًا كأبيه. وعبد الوهاب الذي كان يعرف الله، انشغل بتجارته مع المساليب. بلغه أخيرًا أنه اتفق مع مسلوب من مساليب آدم عثمان، ليصنع له خمرًا ليبيعه للفلاحين.

آخر زمان. بسونة تباع فيها الخمور وعن طريق عبد الوهاب.

فهمي العجل مخنوقًا في داره، تسجنه سليمة. وتبعده عن الناس، من أجل ابنه الذي عشق المسلوبة..

أجل، لابد أن يهجر بسونة لا يأتيها إلا عند جني المحصول.

لم تعارض سندس فكرته. فكل الأماكن لديها سواء.

- ٢٤ -

كان مشهد انتقال العمدة عارف من بسونة إلى المراغة من المشاهد التي لا تنساها بسونة.. فقد ركبت كوكب الهودج، كأنها تتزوج من جديد. وجماعات المساليب حول الهودج يغنون ويرقصون، ويدقون الدفوف والطبول.

يعزفون بالاتهم الموسيقية الكثيرة. وعارف مع آدم عثمان وعبد الوهاب البقال وصالح وبعض الرجال.. يسيرون بعضهم فوق الجياد. والخدم يحملون الكوليات الكثيرة.

القصر أكبر من قصر الحاج رشوان. وحوله حديقة كبيرة. أقرب إلى حديقة الوجيه الامثل. جد عارف.. البنك أعطاه مبلغًا كبيرًا. بضمان أرضه الزراعية. فلماذا لا يقيم قصرًا بهذا الشكل.

أراد آدم عثمان أن يشتري بيت العمدة القديم، الملاصق لبيت رضوان. لكن عارف رفض بشدة. فقد دفع عبد الوهاب البقال ثمنه. قبل أن ينتقل عارف منه.

لم ينتقل عبد الوهاب بأسرته إلى البيت الجديد. قال لزوجته:

سأعده واصلح بعض الجدران المتآكلة. ثم ننتقل إليه بعد ذلك.

لكنه يقضي بعض الساعات فيه. يدخل آسيًا إليه سرًا. دون أن يحس أحد.

***

قال رزق للحاج رشوان. وهو يسمع صوت الغناء الآتي مـن قصـر العمدة عارف الجديد؛ القريب من قصر رشوان:

- ما رأيك فيما يحدث يا عمدة؟

- الأمر لله وحده.

- كنت تنتظر أن يأتيك الباشا طالبًا إنقاذ البلدة مـن إفسـاد عـارف وسوء تدبيره.

كان صوت الغناء الآتي من قصـر عـارف. يعـذب الحـاج رشـوان، لكن حديث قريبه -رزق- يعذبه أكثر.

- رزق، إنني في حالة لا يدري بها إلا ا لله.

- أستظل هكذا كالنساء.

- لا. لابد أن أفعل شيئًا.

-عارف سرق كوكب،لقد جاء بها من بسونة في هودج:ليزيد عذابي

- اجلس يا رزق. لا تتهور، فتضيع كل شئ.

- بلى سأتهور. ولن أطيعك بعد الان,

- أجننت؟

- أجل.لقد كانت كوكب عقلي. كانت كل شئ لي.

ثم انهار وبكى.

لم يقم رشوان من مكانه، ليمنعه عن البكاء. فهو يود لو بكى مثلـه ليرتاح. لكنه لا يقـدر. فحضـور عـارف إلى المراغـة. وسـكنه بجـواره، وفي قصر أكبر من قصره. جعله يتذكر كل ما حدث له في الماضي.

***

ما زالت سليمة تضع الزهرة فوق وجهها. وترتدي الملابس السوداء، حزنًا على ما فعل ولدها.

ظل فهمي العجل أكثر من شهر لا يخرج من الدار. والرجال يأتونه معزين. كان يبكي كامرأة. وسليمة في حجرة أخرى وحولها النسوة تولول. وهن يرددن عليها:

دنيا غرورة ما دمتش لحد

مالت على بيت الخليل اتهد

ثم تردد من وقت لاخر في نغمة ممطوطة:

– آه لو مات. ما كانت العين بكت. ولا كان القلب حزن.

وجاء عارف يومًا مع معزين. ما أن سمعت سليمة صوته حتى أتته صارخة:

– أخرج يا شيخ عارف. أخرج. ماذا تريد ثانية.

نظر عارف إلى الرجال والحيرة تأكله. وخرج وسليمة خلفه. تردد وهي تنوح:

– لا سماح ولا برئ ذمة.

عاد عارف إلى بيته حزينًا. لولا كوكب وما تحيطه به من حب، ما كان نام ليلته، من شدة حزنه وخزيه.

***

لاحظ أهالي بسونة أن آدم – رغم ارتدائه ملابس جديدة، ونظيفة. تناسب مركزه وقدره وقربه من العمدة. إلا أنه ترك زوجته سارة وأبناءه يرتدون الأسمال، ويطوفون البلدان، يسألون الناس إحسانًا. ولاحظ

أهالي بسونة أيضًا إن الحاج رشوان قد ترك كل المساجد في المراغة. وجاء يصلي الجمعة في مسجد بسونة وأنه بعد الصلاة امتدت يده وصافح هارون قائلا:

- كيف حالك. إنني قلق من أجلك.

- لماذا؟

- لأن عارف طلق ابنتك.

ضاق هارون، وأراد أن يسرع بالخروج. لكن الحاج رشوان أمسكه من كمه:

- لقد أفسد عارف المراغة كلها.

- لا تنسى أنه ما زال ابن أختي.

- لم أنس. لكن الحق أقرب اليك منه.

صمت هارون، وأمسك بنعليه وخرج من المسجد. تبعه الحاج رشوان:

- المساليب يمارسون الجنس والسحر. ليس في النخل فقط. بل في بسونة والمراغة وقصاص.

أسرع هارون غاضبًا:

- لا تهرب من الواقع. لو كنت عدلت في عموديتك. ماكان اشتكي أحد وما كان حدث ما حدث.

- لم يحدث في عهدي ما يحدث الان يا شيخ هارون.

اقترب فهمي العجل منهما. بدا ضعيفًا، شاحبًا. مد يده المرتعشة. أراد هارون أن ينهي الحديث حتى لا يشاركهما فهمي العجل فيه. لكن

فهمي صاح:

- حسبي الله ونعم الوكيل في ابن أختك يا شيخ هارون.

ضاق هارون. شد يده غاضبًا:

- ليس لي شأن به.

أسرع رشوان خلفه. وقد أسعده ما فعل فهمي:

- لا يا شيخ هارون. أنت الكبير في المراغة الان. وابن حسب ونسب. ولو أخطأ ابن أختك. فلابد أن يرجع الناس إليك.

- عارف الآن عمدة وليس لي سلطان عليه.

بكى فهمي العجل:

- ابن أختك جعلني أسير في بسونة كامرأة.

قال رشوان:

- رزق فعل أكثر مما يفعله فهمي الان، وأنت تعلم جيدًا أن عارف قد نال كوكب بسحر المساليب.

- ربنا لا أسالك رد القضاء. لكن أسالك اللطف فيه.

تدخل بعض الرجال. أبدوا أستياءهم مما وصلت إليه احوال بسونة. بسبب المساليب

قال هارون:

- أنت ضيفي يا حاج رشوان. هيا جميعًا إلى بيتي. لنكمل الحديث.

***

وقف الناس أمام قصر الوجيه الأمثل. العربات تحمل بعض الأمتعة

التي لا يستطيع هـارون الاسـتغناء عنهـا. وبعـض الحقائـب. والخـدم يكـون. وهارون بردائه ونظارته وعصاه. يبتسم في تثاقل.

ركب العربة مع ابنته سندس. وخادمة صغيرة. اقترب النـاس منـه. بعضهم كان يبكي حزنًا:

- لا تجزعوا. فسوف أعود عند جني المحصول.

دخل فهمي العجل وسط الناس، مد يده للشيخ:

- لماذا تتركنا يا شيخنا. وأنت البركة في بسونة؟

ربت فوق يده:

- سأعود في القريب.

وأشار إلى السائق، لينطلق بالعربة.

دخل الخدم القصر. فقد أمرهم بأن يبقوا فيه، يعيشـون مـن خيره. إلى أن يعود إليهم. فأين سيذهبون وليس لهم دار سواه.

معظم أحفاد العبيد الذي أشتراهم جد هـارون، وعاشـوا في القصـر. لا يعرفون سواه.

نظرت سندس والعربة تسير بها في الطريق إلى محطة السـكة الحديـد. فربما تري عارف آتيًا لوداع خاله لكنها لم تره. قالت لنفسـها: "ربما سيأتي على المحطة"

لكنه لم يأت أبدًا.

عدد كبير من أهل القرية كـانوا في وداعهـم على المحطة. سـاعدوا الخدم في إدخال الحقائب والأشياء في القطار.

***

جـاء آدم عثمان إلى قصر العمدة في المراغة. الخدم أدخلوه البهو الكبير. ثم جاء عارف:

– أهلاً آدم. ماذا وراءك.؟

– خادمك يا عمدة.

– خير؟

– كنت في سوهاج. ذهبت إلى الباشا خير الدين. كما قلت لي. قال لي أحد رجاله. ان هناك شكوى مقدمة ضدكم في القاهرة.

– ضدي أنا؟

– أجل. قال الباشا عن الذين وقعوا الشكوى: خالك هارون، وفهمي العجل. والحاج رشوان، ورزق.

– لكن خالي سافر القاهرة منذ أيام.

– ربما ارسلوها قبل أن يسافر. أو ذهبوا إليه في القاهرة.

– رأيت الشكوى بنفسك؟

– أجل. فقد حولها المسئولون إليه. لعمل اللازم.

– وأظن أن الباشا قد أنهى كل شيء.

– لا. قال أن الضغط عليه في القاهرة شديد. وأن الأمور تغيرت. الرجال في القاهرة أقوياء.

– ماذا؟ أيوافق على خلعي!

– بل سيخلع عمدة المراغة.

ضاق عارف. وقف غاضبًا:

– أتمزح يا آدم؟

– وقت الخلع لن تكون أنت العمدة.

– كيف؟

– تخلع نفسك من العمودية. وتعين شيخ البلد مكانك.

فكر عارف قليلاً. ثم قال:

– الباشا هو الذي أمر بهذا.

– أجل.

– لكنني أخشى أن أتنازل لفهمي العجل. فلا أستطيع أن أرجع عمدة ثانية.

– يا عمدة. فهمي لا يصلح لها لأيام قليلة.

***

أرسل عارف في طلب فهمي العجل. عارضت سليمة أول الأمر. قالت:

– هذا الرجل لا نريد أن نعرفه ثانية.

لكن الخفراء الحوا. وجاءوا إليه مرات عديدة. قال فهمي:

– لابد أن أعرف ما يريده يا سليمة.

خرج وسليمة تولول. وتتوعده. وتسب عارف واليوم الذي جاء أبوه فيه إلى بسونة ليدنسها.

***

كاد عقل فهمي يضيع. وهو يسمع ما يقوله عارف، لم يكن آدم موجودًا حتى لا يثور فهمي، فيفسد كل شيء. قال فهمي:

– أنت تمزح يا عمدة. وأنا في حالة لا تسمح بهذا.

قال عارف مبتسمًا:

- يا فهمي. كوكب تملأ حياتي. فلا أجد وقتً للعمودية. كما أن المبلغ الذي اقترضته من البنك كبير. وأن لم أسدد أقساطي في مواعيدها. ستضيع الأرض مني.

- وما شأن هذا بالعمودية؟

- العمودية عبء كبير. ولن تجعلني أهتم بالأرض كما يجب.

- آه.

- وأنت من حقك العمودية الآن. فأنت شيخ البلد ونائب العمدة.

أحس فهمي بالاطمئنان. فكل ما يقوله عارف قابل للتصديق. ربما أراد عارف أن يتنازل لغيره. لكن القانون حتم بأن يعين شيخ البلد عمدة، في حالة عزل العمدة الحالي. أو موته أو تنازله. إلى أن يتم اختيار عمدة آخر عن طريق السلطات.

- ولكي تصدق يا فهمي. سآمر الخفراء الان. بأن يطوفوا في البلد. منادين بانك العمدة من الليلة.

خرج فهمي مسرعًا. رآه أهل المراغة يحمل طرف ثوبه ويجري فرحًا. قالوا:

- لجوء ابنه إلى المساليب قضى عليه.

ثم جاء بعض الرجال إلى قصر عارف متساءلين عن حقيقة ما يقال:

- هل حقًا أصبح فهمي عمدة. أخلت البلد من الرجال. حتى يعين عمدة؟

***

كفـاك يـا سليمـــة، دعيـك مـن الولولـة. زوجـك أصبـح عمـدة. الآمــر الناهي في البلد.

- لقد جن الرجل. المساليب خبلوه هو الآخر.

رددت في نغمة ممطوطة:

- الرجل جن مثل ابنه.

صرخ فهمي فيها:

- كفى يا سليمة. أنــا أقـول الحـق. الشيـخ عـارف تنـازل لي عـن العمودية. وأنا أحق بها لأنني شيخ البلد.

المرأة مذهولة. ما الذي يقوله زوجها. ليس من المعقـول أن يتنـازل عارف عن العمودية لأحد.

- لن أحني رأسي ثانية لأحد. لـن يعيرني أحـد.لأن ولـدي أصبـح مسلوبًا.سأعيده يا سليمة إلى بيتي بالقوة.أجل.سأجعل الخفراء يأتون به مكبلاً.

- ربما أحس عارف أنهم سيخلعونه. فخلع نفسه بنفسه.

- وسأطرد المساليب يا سليمة.

اقتربت سليمة منه. قالت في ود شديد:

- حقيقة ما تقوله يا فهمي؟

- أجل. صدقيني.

- وعارف، أصبح رجلا عاديًا.

- أجل.

- أريدك أن تتعبه كما أتعبنا.

***

جاءت الوفود مهنئة. خرج فهمي إليهم وهو منشرح القلب، سعيد:

- يا أهل البلد. أنا فهمي ابن بلدكم. سأجعل بلادكم خير البلاد. سأطرد المساليب منها نهائيًا وسأمنع الزنا والعهر اللذين يدوران في كل مكان.

نظر فهمي. لمح خفيرًا يقف بعيدًا، قطع خطبته وصاح:

- أنت يا ولد.

جاء الخفير مسرعًا،

- أين شيخ الخفراء؟

نظر الخفير حوله متحيرًا

- هو وباقي الخفراء. ما زالوا في بيت الشيخ عارف.

ثار فهمي:

- يا ابن الكلب. اسمع الكلام. أنا العمدة، والتمام يجب أن يكون أمام بيتي هنا.

همس أحد الرجال في أذن فهمي قائلاً:

- المتبع أن العمدة الجديد. يسمح بالتمام أمام بيت العمدة السابق عدة ليال. بمجاملة منه له.

- لا، التمام أمام بيتي أنا. والبلدة كلها تأتي لترى هذا. أنا العمدة. ألا تصدقون.

ثم أخرج من سترته وثيقة التنازل. وقدمها للناس.

***

كان رزق ثائرًا:

- ما الذي يحدث يـا حاج رشوان. فعلت كل شـيء لكـي تخلـع العمدة. وتعود كما كنت. ها هو يقصيك تمامًا ويأتي بمربي العجول.

- كفى يا رزق. كفى. انني لا أستطيع احتمال شيء آخر.

- وأنا ماذا أفعل. وكوكب.....

- كوكب كوكب. لقد مللت. دعني لحالي.

جلس رزق منهارًا. وقد تناقص جسده كثيرًا. قال رشوان:

- لدي إحساس أن في الأمر سرًا. وتعيين فهمي العجل، لعبة جديدة من عارف.

***

ضحك أهالي البلدة طويلاً. وهم يرون رسول الباشا خير الدين آتيًا بأوامر بخلع عمدة المراغة الحالي وتعيـين الشيخ عـارف منصـور عشـرة مكانه. قالوا:

- لم يتهن فهمي بالعمودية سوى ليال معدودة.

لكن كثيرين كانوا غاضبين من فعلـة عـارف تلـك. ردد الرجـال في قهوة زايد:

- هذا لعب بالذقون.

- فعلها الشيخ عارف مع الباشا خير الدين.

- وماذا فعل المسكين فهمي؟

- هذه المرة العار كان أكثر من يوم ذهاب ابنه إلى المساليب.

- سليمة عادت إلى الزهرة والسواد. وفهمي يبكي كطفل.

ذهـب الرجال لمواساتـه. جاء الحاج رشـوان ورزق -قريبه- إلى

بسونة، زارا فهمي العجل مع بعض رجال بسونة عندما رأتهم سليمة صاحت:

- أرأيتم ما فعله عارف بنا.

ربت الحاج رشوان على ظهرها مهدئًا:

- اذكري الله يا سليمة. الله لا ينسى أحدًا.

خرج فهمي من حجرته وقد تحول لونه من الأسود إلى الأزرق. وعيناه تحولتا إلى اللون الأحمر من كثرة الدموع.

ابتسم الحاج رشوان:

- تعال. الرجال لا يفعلون ما فعلته.

كان ابنه عقل يساعده على الوقوف.

- لو كان عارف حاسبه رجل. ما كان فعل به ما فعل.

أشار الحاج رشوان لسليمة حتى تكف عن حديثها:

- ماذا حدث لتحزن.

- البلدة كلها تسخر مني يا عمدة.

- كفاك فخرًا انك كنت عمدة ولو لأيام قليلة. كما أن البلدة متعاطفة معك.

قالت سليمة:

- بل ستظل تتحدث عن هذا، لولد الولد.

قال فهمي:

- آدم عثمان هو سبب كل ما حدث. هو الذي دبر المكيدة.

***

تتحرك آسيا في بسونة كما تشاء. بجلبابها الملفوف الهفاف. وشعرها المنسدل على الكتفين.

تتحرك من بيت منصور عشرة الذي أصبح -الآن- سكنًا لها مع عبد الوهاب البقال.

الرجل بعد أن ضاق بالحاح زوجته لدخول البيت الجديد. صاح بها:

- لن تدخلينه. لقد اشتريته لنفسي.

صابر ابنه يعلم انه يقابل فيه المسلوبة، الشبان يسخرون منه لذلك، وهو لا يستطيع أن يفعل شيئًا، بعد أن قال له أبوه :

- لقد مللت أمك. دعوني أعيش كما أشاء.

تسير آسيا تحمل الطعام لعبد الوهاب. تقف معه في الدكان. تشاركه في تقييم بضائع المساليب التي يشتريها منهم، لا تحابيهم. بل تعطيهم سعرًا اقل مما كان يحدده عبد الوهاب لهم. وتضع يدها في الدرج وتعطيهم النقود.

تعود إلى بيتها. تفتح الباب، وتدخل أمام الجميع. يعلم عارف بما يحدث. كان يظن أن آدم سيأتيه غاضبًا من أجل هذا. لكنه لم يسمع منه كلمة واحدة عن هذا الموضوع. فما دامت حياتها معه لا تسبب مشكلة لاحد. فلماذا يهتم.

عارف لا يأتي إلى بسونة الآن. إذا ما أراد أحدًا فيها أرسل إليه الخفراء.

أرسل في طلب عبد الوهاب. ظنه سيحدثه في أمر المسلوبة التي

يعيش معها. لكن عارف تحدث في أمر آخر:

- تعلم أن هارون قد اشترك في تقديم الشكوى ضدي مع فهمي العجل وعائلة رشوان.

- أجل.

- العمدة رشوان ورزق. كفاهما ما فعلناه بهما. وفهمي العجل صار أضحوكة في البلد. لكن هارون لم يحدث له شيء.

- إنه خالك يا عمدة.

- يا روح ما بعدك روح.

- وما الذي ستفعله به ؟

- سأفضحه في البلدة كلها.

لم يكن عبد الوهاب مرتاحًا لهذا. لكن ما شأنه بما يحدث. عارف وخاله. أسيكون أحن عليه من ابن أخته؟ المساليب أغنوه. وجعلوه يشتري أراضي كثيرة، خاصة من تجارة الدخان والخمور. التي يصنعها المساليب بمهارة.

وآسيا أعطته ما لم يكن يحلم به أبدًا. كفته شر زوجته البدينة كعجل. والتي تنم فاتحة فمها، تشخر.. آسيا جعلت الدنيا لها طعم لذيذ.

بغير هذا لن يهتم بشيء. إنه لا يذهب إلى المسجد حتى وقت صلاة الجمعة.

الرجال ينظرون عليه في غيظ. يحتقرونه. لكن ما الذي يستطيعون فعله معه.

لقد سخر عارف من فهمي. فثار الناس وغضبوا. فما الذي حدث؟ لا شيء.

***

فرح المساليب بما حدث لفهمي. كان آدم عثمان يحكي لهم مسرورًا.

– وقف أمام بيته يهدد بطردنا. فانظروا ماذا فعلنا به.

ثم التف المساليب تحت ضوء القمر. رقصت النسوة وقتذاك. وغني الرجال في سعادة.

اهتزت بهانة. وسط المساليب. صالح كان يتابعها في كبرياء. قال أحدهم:

– بهانة لا تشيخ أبدًا ترقص احسن من كل المسلوبات الصغيرات.

همس صالح في أذن آدم:

– الغريب ابن فهمي العجل قادم.

أجاب مهدي:

– نادوه لنضحك عليه.

ذهب مسلوب وجاء به.

وقف حنفي أمام آدم. وسط الحلقة. قال مهدي:

– سمعت أن أباك كان عمدة منذ أيام.

وقال صالح:

– يقولون أن أباك بكى كأمراة في البيت.

قال حنفي:

- دعوكم من أبي الآن. انني مسلوب مثلكم.

ابتسم آدم في سخرية. وضحك الجميع بصوت مرتفع. ثم قال جاد:

- المساليب لا يرضون بمن كان أبوه يهددهم.

قال آخر:

- ماذا لو جاء ابوه لضربنا وطردنا. وهو معنا.

حاول حنفي أن يذهب بعيدًا. لكن روايح أوقفته بجسدها وهي تقول:

- لا تهرب يا ابن العمدة.

وارتفعت الضحكات. انه يكره روايح. فهي التي فعلت به كل هذا، باع الجمل. وترك أهله، وسبب لهم العار. وبعد أن نفدت نقوده، سخرت منه . وحرضت الباقين علي السخرية منه.

ارتعشت يد حنفي وهي تهوى فوق صدرها. أسرع جاد إليه، أمسكه من يديه وهو يحاول أن يهرب منهم .. ثار آدم وصاح:

- اتركوه وشأنه.

كانت روايح هي الأخرى تصرخ

- اقتلوا هذا الغريب، اقتلوه.

وجاد يريد حقًا أن يقتله. يريد أن يقتل كل الأغراب، فهو يعلم أن آسيا تعيش مع عبد الوهاب البقال في بيت العمدة القديم، كل المسلوبات يكرهن الأغراب فيما عدا آسيا. هي وحدها التي تحبهم.. من اجل عبد الوهاب طردت جاد من كوخها.

روايح خدعت هذا الغريب. أضاعت ثمن الجمل الـذي كـان يعمـل عليـه. جعلتـه عبـدًا للمسـاليب كلهـم. لكـن آسـيا تجعلـه وسـويفي عبديـن للغريب: عبد الوهاب.

صرخ جـاد، أراد أن يخيفـه، أمسـك رقبتـه، أظفـــاره نشـــبت في لحمـه، صرخ حنفي، صرخت المسلوبات كلهن وصاح آدم:

- دعه يا جاد.

الخـــوف مـن الأغـــراب يأتـــي مـن الجنـــوب والشـــمال، ومـــن الشـرق والغرب. اظفار حنفي نشبت -هي الأخرى- في يدي جـاد. صـرخ جاد، المساليب الآخرون يضربون ظهر الغريب.

أمسك جاد فأسًا، وأراد أن يهوى بها على رأس حنفي الملقـى علـى الأرض. لكن بهانة أسرعت إليه. امسكته من يده:

- لا تقتله الأغراب يقتلونك.

أفاقت المرأة. تذكرت أنـه ولدهـا. تذكـر جـاد أن لـه أمًّـا كـانت ترقص منذ وقت قصير.

سال الدم من رأس حنفـي. التصـق بيـد الفـأس. هـاج عندمـا رأى الـدم، حمـل يـد الفـأس وأطـاح بهـم جميعًـا. قلـوب المسـاليب أنـتزعت مـــن صدورهم، انهم يخافون الرجل الهائج.

أحس آدم بأنه قد أخطأ بسخريته من حنفي. البلـدة كلهـا مشـتعلة غضبًا لما حـدث لقهمـي العجـل. ويحسـون أن المسـاليب كـانوا وراء كـل مـا حدث.

ولو قتل حنفي، ستكون تلك نهايتهم جميعًا.

أسرع آدم. امسك حنفي:

- حنفي، أنت مسنوب مثلنا. وكلنا كنا نمزح معك.

ثم قال لروايح التي كانت مذعورة من رؤية حنفي الهائج:

- خذي حنفي وضمدي له جرحه.

وضعت روايح يدها فوق رأسه وسار جاد بين صالح وبهانة. أول مرة يدخل بيتها الجديد.

- ٢٥ -

سـار عـارف فـوق أرض بسـونة وخفـير يحمـل المظلة خلفـه. وباقي الرجال يتبعونه. لقد امتلأ جسده: حتى بدا شديد الشبه بابيه منصـور. في أيامه الأخيرة. فامتلأت رقبته، حتى تدلي "لغده"، وتمددت بطنه أمامه.

مر على أرض الوجيه الأمثل . جده لأمه، الزراع ما زالوا يزرعـون، رغم أن هارون في القاهرة الآن.

يقولون أن وفدًا سافر إلى القاهرة. قابل الوجيه الأمثل في شقته الـتي أستأجرها هناك.

بعـد أن قضـوا معـه ليلـة كاملـة، أخذهـم في الصبـاح إلى مكـاتب المسئولين. قدموا الشكاوي ضد عارف.. لا شك أن هارون يريـد أن ينتقـم منه، لانه تزوج على ابنته سندس.

قال لآدم عثمان:

- أكتب عندك.

أملي عليه عدد الفدادين المزروعة. عارف كان يعمل مساعدا لوالده "المساح" والذي كان يقيس أرض الناس بقصبته. لهذا، يعـرف مـدى الأرض، دون أن يقيسها.

وهو عائد شاهد قصر الوجيه الأمثل، بابه الحديدي مغلق، والحركة ساكنة في الداخل.

لقد تربى في هذا القصر. كان يلعب مع كوكب وضيف الله، وعدد كبير من أطفال بسونة.

***

يدخل جاد -أحيانًا- بيت أمه بهانة. يجلس مع صديقه القديم صالح. يشرب الشاي الذي تعده بهانة لهما.

يحس جاد بالملل منذ أن تركته آسيا. يخرج إلى أرض النخل. يتابع حنفي الذي لا يخرج من النخل أبدًا يجلس مع النساء. أويعمل مع المساليب بالأجر.

يسير جاد في أرض النخل التي لم تشغل بعد بالاكواخ. ليته يجد سويفي زوج آسيا ليخبره بما فعلت. لكن سويفي قد جاء مرات. ولم يجد زوجته. آدم قال للمساليب ألا يخبروه عن مكانها. حتى لا يفسد سويفي كل شيء.

لكن جاد لن يسكت هذه المرة، سيخبره.

الكل يلوم جاد لاهتمامه الزائد بآسيا. يقولون أن المسلوبات أكثر من الهم على القلب، وعليه أن يختار واحدة أخرى.

حاول جاد. لكنه لم يستطيع. آسيا ساحرة، في حركتها الثعبانية سحر لم يجده في أي مسلوبة أخرى.

يذهب جاد إلى آدم في بيته، الذي أعطاه له عارف عشرة.

- كيف تترك زوجة أخيك تنام مع الأغراب؟

- تعال يا جاد إلى الداخل.

أخذت سارة أولادها وذهبت إلى حجرة أخرى.

- اجلس يا جاد.

- انها تعيش مع عبد الوهاب البقال

- كل المساليب يعرفون أن آسيا مجنونة.

- لكنها زادت عن الحد هذه المرة.

- نزوة، وستعود إلى المساليب ثانية.

عاد جاد حزينًا. أقسم ألا يترك غريبًا إلا قتله.

***

وقف القطار الآتي من القاهرة. وخرج الجنود يشدون هارون وهو مكبل بالحديد. ولحيته متناثرة وملابسه معفرة.

سار الموكب بعد العصر بقليل. كان ينكس راسه. والجنود يشدونه في غلظة.

تذكر أهالي المراغة هارون حينما كان يسير بملابسه الزاهية، وعباءته المطرزة. والناس تنحني له احترامًا.

عندما وصل الموكب بسونة. خرجت النسوة من بيوتهن. بكت. والرجال صاحوا غاضبين،،

جاء الحاج رشوان عندما وصله الخبر. شد هارون لصدره:

- أي مجنون فعل بك هذا؟

لم ير رشوان هارون في مثل هذا الوضع أبدًا. كان ضعيفًا ومتعبًا. والرحلة مع الشرطة أذلته. جعلته غير قادر حتى على الحديث. قال

قائد الجنود:

- هذه أوامر الباشا خير الدين.

- وإلى أين ستذهبون به؟

- إلى داره في الأول. فربما يدفع المبلغ المستحق عليه.

فتح الخدم الباب؛ بعضهم صاح غاضبًا، حتى ضربه الجنود، ورموه بعيدًا.

جلس هارون فوق مقعده المفضل في حديقة قصره. قال رشوان:

- حلوا قيوده.

قال قائد الجنود:

- ليست لدي أوامر بهذا.

صاح رشوان:

- الرجل بينكم. كيف سيهرب؟

كانت القوة قليلة العدد. وأهالي بسونة؛ وعدد كبير من أهالي المراغة قد رافقوا الموكب. واحاطوا بالقصر ينظرون من الخارج.

حل أحد الجنود القيد، قال رشوان:

- كم المبلغ؟

- خمسمائة جنيه.

زفر هارون. رفع يديه، تحرك.

دخلت حسنية لتشاهد العجب. هارون -أغنى رجل في المراغة- وابن الوجيه الأمثل محاط بالجنود كاللصوص. لم تستطع إلا أن ترمي نفسها عليه وتبكي.

بكى هارون، منذ أن أخذوه من شقته في القاهرة، وهو يود أن يبكي ليرتاح. حسنية هي التي أراحته.. تهمته أنه لم يدفع خمسمائة جنيه ضريبة على أرضه الزراعية. قال لهم "المبلغ مغالي فيه. أنا لا أدفع خلال العام أكثر من مائة جنيه.

الأوامر صريحة، لابد من الدفع، أو أحضاره إلى بسونة مكبلاً، ليفتشوا بيته.

بكت سندس، وصرخت، ليس لديهم في البيت مبلغًا كبيرًا كهذا. قالوا لقائد الجند، أن ينتظرهم حتى يجمعوا المبلغ. فتبيع سندس بعض مصاغها، أو يبيع هارون قطعة أرض من أملاكه الكثيرة. لكن الجنود قيدوه وشدوه إلى المحطة.

بحث الخدم في القصر عن نقود. وحسنية قالت لرشوان هامسة:

- سأحضر من بيتي كل المال الذي ادخره

أحس رشوان أن هذه هي نهاية عارف. وانه أرعن كأبيه. فقد كان هارون سندًا له، ومهما أختلفا، فسيعودان لبعض.

كما أن هارون ليس سهلاً، ولديه الأرض التي يمكن أن تسدد دينه، ويعود بعد ذلك كما كان، هذا غير تعاطف كل أهل القرى حول بسونة معه. وكرههم لعارف من أجله. سيقولون "ان كان فعل في خاله هذا، أسيرحمنا؟!

قال الحاج رشوان لقائد الجند:

- سأدفع المبلغ الآن.

بكى هارون ثانية.

***

كان عارف كالثور الهائج وسط الدار. الخفراء أبلغوه بما حدث، خاله هارون مقيد وسط الجنود. والناس خلفه تصيح غاضبة من أجله.

كان يعلم عارف أن خاله لن يستطيع جمع المبلغ دون أن يقوده الجند -هكذا- أمام الجميع، ليعتبروا ويفكروا الف مرة قبل أن يشكونه، أو يعترضوا على أفعاله.

لكن ما بلغه أساءة. الحاج رشوان، الذي كان يسرق الناس وكانوا يضجون من أفعاله، يتقرب إليهم الآن ليحرضهم ضده. فهو الذي دفع المبلغ. بعد أن أخذ من كبار البلدة ليكمل المبلغ المطلوب. وحسنية أم زوجته: أنكبت على هارون باكية. وأعلنت أمام الجميع أن العمدة ظالم. فمثل الشيخ هارون لا يعامل هكذا.

جاءت كوكب مبتسمة:

- ما الذي يغضبك؟

- أمك.

- ماذا فعلت؟

- إنها تدافع عن هارون وتعلن استياءها من أفعالي.

- لأنه خالك؛ لم ترد أن يقول الناس أن خال العمدة قد أهين.

- لكنه......

- الإساءة إلى هارون مردودة عليك. وكان من المفروض أن تفكر قبل فعلتك تلك.

***

يعود سويفي بربابته، لا يجد آسيا. انها الآن في بيت عبد

الوهاب البقال. أشتاق سويفي لرؤيتها رغم قسوتها عليه.

أنتظره جاد قبل دخوله أرض النخل:

- إلى متى ستظل ساكتًا على زوجتك آسيا؟

- ماذا بها؟

- إنها تعيش مع عبد الوهاب البقال.

لم يجبه سويفى. سار حزينًا.

- يجب أن تفعل شيئًا.

- وهل أنا أقدر عليه.

- يمكنك أن تشكوه للعمدة. والعمدة صديق آدم الآن. أو تقتله.

- لا أستطيع أن أقتل. سأشكوه لآدم.

***

جاءت سندس مساء اليوم الذي شهد أباها مكبلاً في الحديد. جاءت ومعها المبلغ المطلوب. العربة سارت بها من المراغة حتى بسونة، أقسمت أن تنتقم من عارف الذي أهان والدها الذي كانت البلدة كلها تقسم به. وتقر بفضله.

حكى لها سائق العربة -عما فعله الحاج رشوان، وما فعلته حسنية. وباقي أهل البلدة.

أراد هارون أن يجمع كل ماله في بسونة. ويرحل إلى القاهرة. فكيف سيواجه الناس، وقد رأوه في وضعه المخزي بين الجنود. بعد أن كان عزيزًا مكرمًا.

لكن الحاج رشوان قال:

- بل ستظل بيننا، لـو كـل منـا تـرك البنـدة لعـارف والمساليــب. فمــن سيوقفه عند حده. ويتحداه.

قالت سندس "انها لن تترك بسونة، وما دام تجرأ عارف على والدها هكذا. فسوف تقف أمامه بكل ما تقدر".

***

جـاء الخفـراء يدقـون بـاب العمـدة عـارف، هـب فزعًـا مـن نومـه. وخرجت كوكب خلفه، أرتدي قفطانه المعلق بجوار السـرير. وخـرج إليهـم، صاحوا في جزع:

- الحق يا عمدة، القطن يحرق فوق الأرض.

- أرض من؟

- أرضك يا عمدة.

جرى والرجال خلفه. كانت بسونة نائمــة. فلـم يكـن الفجـر قـد بزغ بعد، النيران ارتفاعها يصل لثلاثة أمتار وأكثر. والرجال القليلون يحاولون أن يلقوا بالماء فوق النار. لكن النار قد تمكنت من الزرع كله.

عندما جاء رجال الباشا للمعاينة، أكتشفوا أن هـذا تم بفعـل فـاعل. وأن الجناة قد أحرقوا كليًا. ودفعوه للارض. فكان يجري مــن شـدة النـار في كل مكان.

حمل عارف بندقيته وصاح:

- لم تخرج هذه الفعلة من عائلة رشوان.

قال آدم:

- ومن الممكن أن يفعلها فهمي العجل. أو خالك هارون.

- خالي هارون؟

وضع عارف البندقية بجواره وردد:

- أجل. فهما يحملان الغدر لي.

خرج الرجال من قصر العمدة. الخفراء يحرسونه من الخارج. وآدم ذهب إلى زوجته سارة. يحكي لها عما حدث لارض العمدة.

وبقى عارف وحده. البندقية بجواره. ما الذي يحدث له. لقد كان يعد نفسه لأن يكون واعظًا في المساجد أو قياسًا للأرض كأبيه. لكن أن يصل إلى حمل البندقية. كما فعل شقيقه ضيف الله. فهذا كثير.

آه لقد نسى ضيف الله في حموة مشاغله. فهو الوحيد الذي يستطيع حمايته الآن.

لن يستطيع عارف أن يدفع قسط البنك. عليه أن يبيع قطعة أرض لسداد الدين.

***

ذهب هارون إلى المسجد. وفهمي العجل (الذي يحرص الآن على قضاء الصلاة في مواعيدها) يجلس بجواره. قال فهمي معلقًا على حريق الأرض:

- إن ربك لبالمرصاد.

قال هارون:

- من أين سيأتي بمبلغ القسط للبنك.

قال فهمي:

- إنه عمدة الآن. ويحدد العوائد كما يشاء.

- لا أعتقد انه يستطيع دفع القسط دون أن يبيع قطعة أرض من أرضه.

ذهب فهمي لملاقاة سليمة. وهارون اتجه إلى قصره.

قلق هو من أجل سندس. لم يرها هكذا أبدًا. لقد ابتسمت. وضحكت وغنت عندما سمعت بحريق أرض عارف. لم تكن تحقد على أحد. فما الذي جرى لها؟!

***

أسرع آدم إلى أرض النخل. جمع المساليب جميعًا، خطب فيهم:

- لقد وقع العمدة في عرضنا. فهو في حاجة إلى المال. ونحن في حاجة إلى أرض النخل. أجمعوا ما تملكون وتعالوا لنشتري ما يريد بيعه. لا أريد أن يشتري أرضه سوى المساليب.

***

- يا عمدة لو أشتروا حصتك في النخل لن يحس أحد.

- لكن أرض النخل غالية يا آدم.

- أبوك منصور عشرة جاء إلى بسونة و لم يكن يمتلك سهمًا، أرضك في النخل ليست أرض الجدود. بل أخذها أبوك من الناس غصبًا.

***

وجد عارف أن رأى آدم هو الأصوب، فبيع أرض النخل لن يؤثر فيه كثيرًا. ولن يحس أحد بذلك. فالمساليب يقيمون فيها. كما أن باقي الأرض محجوزًا عليها من البنك، وليس من حقه التصرف فيها بالبيع.

الأيام تمر مسرعة.والزرعة الشتوية جاءت. جمع آدم رجاله. قال لهم:

- الذين أحرقوا أرض العمدة. أفادونا. جعلوا العمدة يبيع لنا حصته في أرض النخل. لهذا، نريده أن يحتاج إلينا. حتى تكون أرض النخل كلها لنا.

قال جاد - أكثر من يكره الأغراب:

- ماذا نفعل؟

- ما داموا لم يحرقوا لعارف أرضًا حتى الآن. فلابد أن نتدخل.

صاح جاد:

- أجل. نحرقها له.

كان الحمام الملتهب في كل ركن من أرض عارف. حتى أتت على ما فيها من قمح. و لم تستطع اهبة الرجال من إطفاء شئ. صرخ عارف، ودفع خفراءه في عنف:

- لستم برجال. الأرض تحترق وأنتم تحرسونها.

- يا عمدة لم يقترب أحد من الأرض.

- إذن حرقتها الشياطين.

بكى عارف دون أن يراه أحد. الحمل ثقيل عليه. كوكب انصرفت عنه. لا تهتم -الآن- سوى بزينتها لم تعد تستطيع احتمال عصبيته التي زادت بسبب الحريق.

كل سحر آدم لم يستطع أن يعيدها كما كانت. ودين البنك في عنقه يقيده. النيران أتت على آخر أمل له في سداد قسط هذا العام. لو يعرف الفاعل؟ ومن أين يعرف وكثيرون يودون هذا: خاله هارون، عائلة رشوان، فهمي العجل. وغيرهم.

قال آدم:

- هذا أمر في علم الغيب. فمن يستطيع أن يحدد الفاعل الحقيقي. فقد يكون شخصًا لا يخطر لك على بال.

- المهم عندي أن أجد من يقرضني مبلغًا لسداد دين البنك.

- يا عمدة، لوكان معي لاعطيتك.

- والعمل يا آدم ؟

- عبد الوهاب البقال أغنى الآن. أنه يتاجر في كل شيء: الحبوب والقطن. والدخان والخمر.. الخ

- أجل. أجل. عبد الوهاب يستطيع هذا.

***

عبد الوهاب البقال ليس لديه الوقت لزيارة أحد. ابنه صابر يقف في الدكان معظم الوقت. وهو مشغول بآسيا وسفره الدائم إلى القاهرة والإسكندرية وأسيوط. يروج تجارته المتسعة الآن.

يجلس عبد الوهاب قلقًا في بهو قصر العمدة. فهو يعلم أن حرق

الأرض، سيجعله لا يجد نقودًا لسـداد دين البنك. وقـد يسأله عن سلفة لحين الزراعة الصيفية.

وعارف يتحـدث مـع كوكـب، وهـو يرتـدي ملابسـه علـى عجـل:

- لن أستطيع هذه المرة أن أبيع الأرض.

كانت حزينة لكل ما يحدث. تغير عـارف مـع الجميـع. معهـا ومـع خاله هارون ومع أمها.

عندما لامته لفعلته مع خاله. قال لها:

- ليس من شأنك.

غضبت المرأة العجوز وصاحت:

- لن أدخل بيتك ثانية.

هذا، غير ثورته على الخفراء لأقل شيء.

لا تدري كوكب ما الذي يدور بينه وبين آدم عثمـان. هـو الوحيـد الذي لا يثور عليه. يتحدثان دائمًا حديثًا خافتًا.

قالت:

- لو لم تسوء العلاقة مع خالك. لكان أعطاك ما شئت.

- ساءت العلاقة بيني وبينه بسببك أنت.

صمتت. فلو ردت عليه. سيثور. ولن ينتهى صراخه.

من كان يظـن أن عـارف الرقيـق الوديـع. يتحـول إلى هـذا الحيـوان الجامح.

قال:

- سـأعرض الأمر على عبد الوهــاب البقال. فهو مقتـــدر الان.

ويمكنه أن يمدني بالمال اللازم.

- أجل. وهو صديقك من زمن بعيد. وسيعطيك ما تريد.

***

- ما الذي حدث يا عبد الوهاب، شغلتك التجارة عنا.

- ليس هناك شئ يشغلني عنك يا عمدة.

كوكب ترتدي روبًا يلف جسدها كله. تجلس أمام عبد الوهاب في وقار. يتابعها عبد الوهاب. يتساءل في نفسه. عما تقوله عنه، لمرافقته المسلوبة دون زواج. ولبيعه الخمر. قالت:

- الحرائق تطاردنا. ولا ندري من يفعلها.

- الظالم عليه ربنا.

قال عارف:

- موعد سداد قسط البنك قد حل. وليس لدي مالاً.

أحس عبد الوهاب بالمأزق. لقد حدث ما توقع:

- لو كان معي يا عارف ما حجبته عنك.

فوجئ عارف:

- لكن أنت تمتلك الكثير الآن. المساليب...

قاطعه عبد الوهاب. خشية أن يذكر موضوع الخمر أمام كوكب:

- أموالي كلها لدي التجار. أشتريت كميات قمح كثيرة. بعضه في المخازن، وبعضه لم أقبض ثمنه للآن.

ثار عارف:

- لم أكن أظنك تخذلني هكذا.

أخذ يصيح ويلعن. وعبد الوهاب يقف أمامه. نظر إلى عارف ثم إلى كوكب، ثم سار دون قول

تبعته كوكب، وعارف في مكانه يصيح. يتوعد الجميع: فهمي العجل وهارون ورشوان ورزق. وعبد الوهاب.

بعد أن هدأ عارف، وجد نفسه وحده. كوكب صعدت إلى غرفة نومها. غطت نفسها ونامت. ليس أمامه سوى آدم، الذي لا يعطيه مالاً إذا أخذ أرضًا في النخل.

***

- لا أملك أرضًا في النخل يا آدم.

- لكن. أنت العمدة الآن.

- اسرق أرض الناس؟!

- إننا نريد الخير لك. أنسيت التنازلات الصورية التي كتبها أصحابها ليعينوك عمدة.

- أجل. ماذا تريد منها.

- من خلالها تستطيع أن تبيع لنا هذه الأرض.

- لكن هذه سرقة.

- بل هي حق مستحق لك. أصحابها وقعوا، وبصموا عليها بالتنازل لك.

- والمشاكل التي ستسببها هذه الأرض؟

-ومن الذي سيثير المشاكل، والباشا خير الدين يحبك، ويقربك إليه.

***

ارتفعت فوق أرض النخل مباني جديدة. مما جعل أصحابها يدهشون. ذهبوا إلى أرض النخل، مطالبين بأرضهم. صاح أحدهم:

- تركناها لتقيموا فيها. لا لتبنوا عليها.

- بلى هي أرضنا. اشتريناها من العمدة.

- لكنها أرضنا. وليست أرض العمدة.

***

ثار الفلاحون الذين تنازلوا - صوريًا - عن بعض ملكياتهم للعمدة عارف - حتى تصل ملكيته للأرض للنصاب القانوني - المحدد للعمد. ذهبوا إلى قصره. صائحين غاضبين:

- نريد أرضنا يا عمدة.

خرج إليهم. نظر من الشرفة الواسعة. قال:

- ليست أرضكم.

- يا عمدة...

- اذهبوا إلى بيوتكم. وإلا أمرت الخفراء بالقبض عليكم.

عاد الرجال، في طريقهم إلى النخل. لأخذ أرضهم بالقوة.

قال آدم له:

- سيذهبون إلى النخل يا عمدة.

اسرع عارف إلى التليفون. حدث الباشا خير الدين. حكى له عما حدث، دون أن يذكر له إنه أخذ أرضهم غصبًا. وعد الباشا بإرسال قوات أمن إلى أرض النخل في الحال. قال عارف لشيخ الخفراء:

- أذهب برجالك وامنعهم من التصدي للمساليب، إلى أن تجئ قوة

الباشا.

اسرع آدم قبل الخفراء. أخرج أسلحته لأول مرة، وأعطاها لرجاله، حتى بعض النساء حملت السكاكين والمعاول والفئوس.

قال شيخ الخفراء للرجال الغاضبين:

– العمدة يأمركم بالعودة إلى دياركم

– وأرضنا يا شيخ الخفر.

– عودوا الآن. وفي الصباح سننظر في الأمر.

– أرضنا ضاعت ولن يعيدها سوانا.

دفعهم شيخ الخفراء ورجاله بعيدًا. اطلق البعض طلقات الرصاص في الهواء. ليرعبهم. لكن الرجال كانوا في حالة من الحزن والخوف على أرضهم.. تجعلهم لا يهابون شيئًا.

***

عندما جاءت قوة الباشا. جمعت الرجال وقيدتهم في حبل واحد. وساقتهم إلى مركز الشرطة. وهم يسبونهم. ويضربونهم طوال الطريق.

***

احس عارف أن المساليب قد أفسدوا عليه الحياة في المراغة كلها. ألبوا عليه كل الناس. اصحاب أرض النخل. وعائلة رشوان. ومعظم أهل بسونة. كل هذا بسبب حبه لكوكب. فقد باع نفسه لآدم. نظير عمل السحر لها. وأفسدت العلاقة بينه وبين خاله هارون الذي كان يحبه كثيرًا.

بني قصره الكبير في المراغة. واستدان من البنك. لكي يجعلها سيدة القصر. بل أن كره عائلة رشوان بسبب سرقته لها من زوجها رزق. لم يؤثر

فيهم أخذ العمودية، بقدر ما أثر فيهم سرقة كوكب. وبعد هذا كله، تهرب منه، تغلق حجرتها عليها ولا تحدثه.

إنه ما زال يحبها. لكن ما يمر به - الآن - جعله لا يطيق أحدًا. يثور عليها لأقل شيء.

يسير الآن وسط الخفراء المسلحين. ليحمونه. لديه احساس أنه سيموت في الطريق. فالأعداء كثيرون. وفي كل مكان.

***

جمع آدم عثمان رجاله في بيته البعيد عن النخل. قال بعد أن أغلق الباب:

- أريدكم هذه المرة أن تحرقوا أرض رشوان.

قال صالح:

- لماذا، ليبيع أرضه هو الآخر؟

- رشوان ليس لديه أرض في النخل. كما أن حرق أرضه لن يؤثر فيه. فهو ليس مدينًا لاحد كعارف. لكننا نريد إثارة الفرقة بين العائلتين. فيزدادان كرهًا. ونكسب نحن.

قال جاد:

- أود أن يفنوا بعضهم بعضًا ولا يبقى منهم أحد.

يأتي سويفي من تجواله حزينًا. يصرخ في آدم.

- اريد آسيا يا آدم.

- آسيا ليست منا. منذ أن تزوجتها، وهي متمردة علينا. وتكره المساليب.

- لكنني أحبها.

- مهما كان حبك. لا يجب أن تفسد كل خططى. سيجئ اليوم الذي أستطيع فيه أن أقف أمام عبد الوهاب وعارف وكل بسونة.

يسير سويفي في الطرقات. عيناه لا تساعدانه عنى الرؤية الكاملة. لا يستطيع أن يجتاز الشارع في سوهاج. دون أن يسحبه أحد.

***

خرج القصاصيون الذين يعيشون في المراغة. بعد حرق أرض الحاج رشوان، مطالبين بالثأر من العمدة عارف.

لكن هارون وعبد الوهاب وصلا إليهم قبل أن يصلوا إلى قصر عارف. قال هارون:

- عودوا. نحن نعيش معًا منذ سنوات طوال. ولم يحدث بيننا شجار.

قال الحاج رشوان:

- ابن أختك أحرق أرضى.

- هو أيضًا حرقت أرضه. وأنا لا يهمني عارف. كل ما يهمني العلاقة بين بسونة وقصاص.

اسرع آدم ليخبر العمدة عارف بما حدث.

قال الحاج رشوان:

- لكنني لم أحرق أرضه. ولا أعرف أي شئ عن هذا.

- آمر رجالك بالعودة يا حاج. وتعالى إلى بيتى.

سار الحاج رشوان مضطرًا.

جاء رزق متأخرًا. رأى أقاربه القصاصيين، صاح فيهم غاضبًا:

- ما الذي جعلكم تأتون هكذا.

نظروا إليه مندهشين.

- عودوا إلى دياركم. لسنا ممن يحرقون أرض الغير.

قال أهل بسونة:

- عاقل رزق.

لكن عندما ابتعد. واختلى باهله. صاح فيهم:

- أغبياء. تريدون حرق أرضه علنًا، وأمام الجميع.

صاح أحد الرجال:

- لقد استخفوا بنا.

- اصمت الآن. ماذا سيفعل الباشا وأنتم تحرقون أرض العمدة أمام الناس.

- ليس مهمًا. ما دام الأمر متعلق بكرامتنا.

- عودوا إلى دياركم الآن. وسنحرق أرضه مرات ومرات.

***

أيقظ الرجال رزق من نومه. قالوا له

- أبشر. لقد حرقت أرض العمدة.

صاح فيهم غاضبًا:

- قلت لكم أن تنتظروا حتى آمركم.

قال البعض:

- لكننا لم نفعل شيئًا.

ظنوا أن واحد منهم فعلها. ولا يريد أن يكشف عن نفسه.
أحس رزق أن المتاعب آتية. فمن سيصدق أن القصاصيين لم يفعلوها.
وهم الذين كانوا يهددون بهذا أمام الجميع بالأمس فقط.

لقد بدأ رزق بحرق أرض العمدة، أرسل إليه كلبًا مشتعلاً. لكنه لم يفعلها ثانية. ولا يدري من الذي يفعل هذا. أحيانًا يظن أن فهمي قد فعلها. أو أحد خدم هارون. لكنه الآن يعتقد أنه واحد من الذين سرقت أرضه في النخل. خاصة أن رجال الباشا، لم يتركوهم سوى منذ أيام قليلة. وقد أذاقوهم العذاب هناك.

***

بكى عارف هذه المرة أمام الناس. لم يعبأ بهم.
خرجت كوكب إليه. أمسكته:
- اهدأ يا عارف. اهدأ.
صاح غاضبًا:
- لقد خرب بيتي. وضاعت كل الأرض مني.
أحست بانه سيضيع منها هذه المرة. اقتربت منه، لكنه رماها بعيدًا.
- الكل يحاربني. رشوان. والعجل. وامك.
- وما شأن أمي بهذا؟
قالتها في هدوء شديد. لكنه جن. صفعها:
- لا أريدك في بيتي. الكل يخونني.
خرج الخدم من أماكنهم. رأوها قلقة. وهو ما زال يصرخ.
حملت كوكب أشياءها وخرجت.

النار مشتعلة.ولا أحد يطفؤها.لقد تعلموا من المرات السابقة.أن يتركوها تأكل بعضها. ويحمو الأطراف. حتى لا تنتقل إلى الأراضي المجاورة.

***

عند حلول موعد سداد القسط. لم يجد عارف ما يبيعه فباقي الأرض محجوز عليها من للبنك. وليس من حقه بيعها.

يردد الناس في بسونة. أن آدم أمتنع عن مساعدته في سداد قسط البنك الأخير. لحكمة أرادها باشا خير الدين. فأخبر بها آدم. بعد أن سافر إليه. وقابله في سوهاج. قال له عما يحدث من صراع وصل إلى حرق الأرض مرات. ثم حدثه عن عجز عارف عن سداد أقساط البنك. فقال الباشا في ضيق:

– وماذا تريد مني أن أفعل.

– أنت أحق بهذه الأرض.

فوجئ الباشا بهذا القول. كان يتمنى أن يحصل على أرض الوجيه الأمثل. منذ أن كان شابًا صغيرًا، لكنه لم يستطع. كان الوجيه الأمثل كريمًا وتصرفاته لا تعطي فرصة لأحد للنيل منه.

– كيف آخذها؟

– عندما يعرض البنك الأرض للبيع. تأخذها أنت.

فهم الباشا مقصده:

– آه.

– من الممكن أن ترسل أحد رجالك للشراء.

***

لا يدري أحد كيف تم هذا. فقد ظن الناس أن العمدة عارف سيجد حلاً. ويدفع للبنك، ولو أقترض من الباشا خير الدين الذي يحابيه. ويفضله على غيره.

ويرددون هناك. بأن هارون قد فوجئ بأمر البيع. وانه من شدة حزنه على أرض ابن أخته بكى. وندم لانه لم يسرع لانقاذه. وسداد دينه.

جاءت الشرطة واحاطت بالارض من كل جانب. ومندوبو البنك يقفون في شموخ. وآدم عثمان يقف بينهم - كأنه منهم - ورجاله منتشرون. والفلاحون يقفون في دهشة. لم يأت رجل واحد من أسرة منصور عشرة. ولا الوجيه الامثل. وبدأ المزاد. المبلغ كبير. ورجال البلدة فقراء. لا يملكون شيئًا.

تم البيع لرجل غريب عن البلدة. اشترى الأرض بثمن بخس. ظل عارف في بيته وحيدًا. الكل انشغل عنه. لم يجد سوى بعض الخفراء يقومون بخدمته. ونقلوا إلى أهل البلدة، انه يعاني من مرض يشبه المرض الذي مات به أبوه. انتفاخ الوجه كله. وتمدد البطن بطريقة تثير الدهشة.

- ٢٧ -

حضر وفد من المراغة إلى بيت هارون. قالوا له:

- لو قبل والدك العمودية عندما عرضها عليه الباشا خير الدين. ما كان رشوان ولا غيره أصبحوا عمدًا، وكذلك أنت. رفضت العمودية. وجعلت عارف عمدة.

- من كان سيظن أن عارف سيفعل ما فعل.

- يا شيخ هارون. كل العائلات الكبيرة يتربص بعضها ببعض.

- لقد أهنت وذقت العذاب. بسبب عارف، ومن يومها وأنا أفكر في طريقة تخلص البلد من كل ما فيها.

- ليس هناك سوى أن تقبل العمودية.

اتفق وفد المراغة على عقد اجتماع يوم الخميس القادم، يحضره كل الرجال الكبار في المراغة. لانهاء كل ما يحدث.

***

في ركن بعيد من النخل. اجتمع آدم عثمان بشباب المساليب. كان كل شاب يلتقي بآخر. يخبره بموعد الاجتماع.

أراد حنفي بن فهمي العجل في الحضور. فقد اصبح منهم. بل هو أسوأ منهم حالاً. هم يتسولون من الأغنياء في بسونة وغيرها. وهو

يتسول منهم يعمل لدى أي مسلوب في حاجة لعمل..

اقترب حنفي من مجلس الاجتماع. رأى آدم جالسًا وسويفي يحمل ربابته بجواره. يريد أن يستقر سويفي وأن يعيد آدم زوجته إليه. صاح آدم:

– عارف لن تقوم له قائمة بعد الآن. وعلينا باضعاف رشوان وهارون وعبد الوهاب البقال. وكل قوي في المراغة.

قال صالح:

– قد يكتشفون ما نفعل.

– لا. فالخلافات بينهم كثيرة. وكلما أحرقنا ارضًا. ظنوها بفعل رجل منهم.

فوجئ حنفي بما يسمع. بعد أن كان يود الدخول بينهم؛ أحس بالاختناق من أجل أهله.

قال آدم:

– لابد من الاسراع حتى نكون أقوى العشائر هنا.

أسرع حنفي. أحس انه لابد أن يتدخل. يقابل هارون. أو عبد الوهاب، أو حتى رشوان. لابد أن يخبرهم بما ينوي المساليب فعله. حتى لو قتله فهمي العجل.

بعد أن ابتعد قليلا، لمحه أحدهم. كان قريبًا من الطريق. صاح:

– شبح. سمع حديثنا وهرب.

هب آدم فزعًا. وجرى جاد خلفه. قال لآدم:

– إنه الغريب. ابن فهمي العجل.

صاح آدم :

- ألحقوا به قبل أن يفشي سرنا.

جرى حنفي حتى خرج من النخل. المساليب خلفه. لحقوا به قريبًا من بيت الشيخ هارون. ضربه جاد في عنف. لكن آدم صرخ فيه :

- دعه.

أمسكه آدم قال:

- ماذا تريد يا حنفى. ألم تعد مسلوبًا مثلنا؟!

- لا. أنتم تعاملونني كخادم لكم.

- كذب بل أصبحت منا.

دفعه حنفي وأراد أن يهرب. فأمسكه آدم. جاد دفعه في صدره. تكالبوا عليه. ضربوه جميعًا. حتى آدم شارك في ضربه، وهو يقول:

- سنحمله ونعيده إلى النخل دون أن يحس بنا أحد.

خرج أحد الرجال من بيت هارون. بعد الاجتماع. شاهدوا ما يحدث. أسرعوا إليهم. فجرى آدم ومن معه. تاركين حنفى. الذي كان ينزف دمًا من أماكن عديدة. في جسده ووجهه.

صاح رجل منهم:

- إنه ابن فهمي العجل.

تأوه حنفى. جسده ما عادبقادر على الانتصاب. حملوه وساروا به حتى بيت هارون. كان رشوان ورزق يجلسان. وعبد الوهاب يدخن سيجارته. وفهمي العجل وابنه عقل معهم.

هب فهمي فزعًا:

- ولدي. ماذا حدث له؟

التفوا حول حنفى. قال أحد الرجال:

- المساليب كانوا يضربونه.

أسرع عقل. يشارك في حمل أخيه. وبكى فهمى. وقبل ولده الذي يشتاق إليه منذ زمن. قال هارون

- احملوه إلى الداخل. وأرسلوا في طلب سعفان الحلاق. ليضمد جرحه.

استلقى حنفي فوق الفراش. وجثى فهمي فوقه.

- لماذا فعل المساليب بك هذا.

قال هارون:

- دعه يا فهمي الآن. انه منهك.

جاء سعفان الحلاق. أخذ يمسح الدم بالقطن وصبغة اليود. وحنفي يصرخ. سمعه المارة بالخارج. اكتشف سعفان الحلاق طعنة بصدره. طعنه جاد دون أن يحس آدم.

قال عقل:

من فعل بك هذا ؟

- قال وهو يتأوه:

- المساليب. سمعتهم يتآمرون لحرق أرض الحاج رشوان. وأرض الشيخ هارون. وعبد الوهاب البقال.

صاح هارون مندهشًا:

- المساليب؟!

خرج الحاج رشوان، نادى رجاله القصاصيين الذين جاءوا معه

خشية أن تقوم معركة بينه وبين أهل بسونة

أحس عبد الوهاب بالضيق، لم يكن راغبًا في أن ينتهي الاجتماع بتأييد هارون عمدة للبلد، فهو سيقاوم ما يفعله عبد الوهاب. سيمنعه من بيع الخمور في دكانه. وقد يطرد المساليب من البلدة. وعبد الوهاب لا يستطيع الاستغناء عنهم.

لقد آن الأوان لكي يبحث عبد الوهاب عن نفسه. أجل. لماذا لايكون هو العمدة. انه يمتلك من المال الكثير. يستطيع أن يدفع للباشا خير الدين.

دخل القصاصيون الذين يحملون الفئوس والبنادق والمعاول. قال رشوان:

- لابد أن تؤدب المساليب.

قال هارون:

- تريث يا حاج رشوان.

قال رزق:

- آدم عثمان هو الذي سحر لكوكب وأضاعها مني لابد أن ننتقم منهم.

قال عبد الوهاب:

- يا حاج رشوان، الباشا خير الدين لن يسكت عما تفعلونه.

- فليفعل خير الدين ما يشاء. لقد قضوا على، وعلى عارف عشرة صديقك.

شد فهمي العجل بندقية من رجل قصاصي وأسرع إلى الخارج.

حتى عقل فعل مثله. كان فهمي يتألم. وجهه وجسده قد تورما. لم يستطع الرجل وابنه احتمال هذا.

خرج الجمع إلى النخل. لم يكن هناك سوى النساء والأطفال، كل الرجال هربوا. دفع فهمي الأكواخ في جنون. والمسلوبات يصرخن. والأطفال يبكون. قال:

- لن أبرح النخل قبل أن يعود الرجال.

***

عاد رجال المساليب بعد ساعات قليلة. معتقدين أن أهل البلدة سيملون ويعودون إلى بيوتهم. اطلق الحاج رشوان الطلقات من بندقيته، وتبعه كل من يمسك بندقية في يديه.

منذ أن جاء المساليب إلى بسونة، وكل شئ قد تغير في المنطقة كلها. كان رشوان مطمئنًا في قصره يحكم قصاص ومن حولها، والمراغة ومن حولها. لم يعارضه أحد إلى أن جاء هؤلاء. وبدأت المتاعب.

لم تصب الطلقات النارية سوى سويفي العائد توًا إلى أرض النخل. تابعهم رشوان ورجاله وسط النخل. لحقوا ببعضهم. فأوسعوهم ضربًا. ثم تركوهم في أرض النخل وعادوا.

لم يكن آدم بينهم. فقدد سافر مع صالح لمقابلة الباشا خير الدين.

***

في الصباح جاءت قوة من رجال الباشا خير الدين. دخلت النخل. حملت جثة سويفي، وألقت نظرة على الجرحى. ثم سارت القوة بدوابها فوق أرض بسونة.

كان فهمي العجل يحمل رأس حنفي الذي مات. ويبكي. وسليمة تشد طرفي طرحتها خلف رقبتها وتولول.

قبض رجال الشرطة على العديد من رجال يسونة. وحققوا معهم. ثم أفرجوا عن الجميع فيما عدا الحاج رشوان. وقريبه رزق. وفهمي العجل.

وأتهم آدم شقيقه بقتل حنفي وذلك بعد أن رآه مع زوجته آسيا.

أفرج رجال الباشا عن كل المساليب.

يقولون أن الحاج رشوان ظل في السجن إلى أن مات. ورزق وفهمي خرجا بعد سنوات عديدة. وقد هدهما السجن.

وعارف ظل سنينًا في مرضه. زاره خاله هارون عدة مرات. وبكى متمنيًا له الموت ليرتاح. لكن كوكب لم تستطع زيارته. متعللة بأن قوة خفية تمنعها عن ذلك. رغم عمها بأنه قد سأل عنها كثيرًا. والذين شاهدوا آدم عثمان يقتل الديك بجرة قلم، يؤكد أن وراء مرض عارف "عمل" اعده آدم باتقان ليقضي عليه، ليمكن الباشا من أرضه. وما دام عارف قد مات بنفس الطريقة التي مات بها أبوه. فلابد أن للمساليب يدًا في موت منصور عشرة.

***

بعد سنوات قليلة. استطاع آدم عثمان أن يشتري بيت منصور عشرة الملاصق لبيت رضوان. باعه له عبد الوهاب الذي أصبح عمدة بعد ذلك.

وأن المساليب تزايدوا بصورة مفزعة. حتى قارب عددهم أهالي البلدة الاصليين. وبعضهم أصبح غنيًا يتاجر في كل شيء خاصة الخمور والدخان.

وواحد منهم أصبح مغنيًا مشهورًا تذاع أغانيه في الإذاعات الأهلية التي بدأ ظهورها في ذلك الوقت.



المساليب

لمصطفى نصر شغف بعالم الصعيد لا يقل عن شغفه بعالم حي غربال الذى أبدع عنه معظم رواياته ... وفي هذه الرواية « المساليب » يبحث عن الإنتماء من خلال العلاقة بالناس والمكان والأشياء ، والأحداث التي تضئ وتختفي التي يستلهمها بأحداث تتصل بطبيعته المصرية الجادة ..... فهو يعمد في بناءه القصصي على الشخصيات التي تتعلق بها الأحداث ، فتدفعه وينمو بها ومعها وقد ت في عمله الإبداعى « المساليب » .



دار ومطابع المستقبل
بالفجالة والإسكندرية
ومكتبة المعارف ببيروت